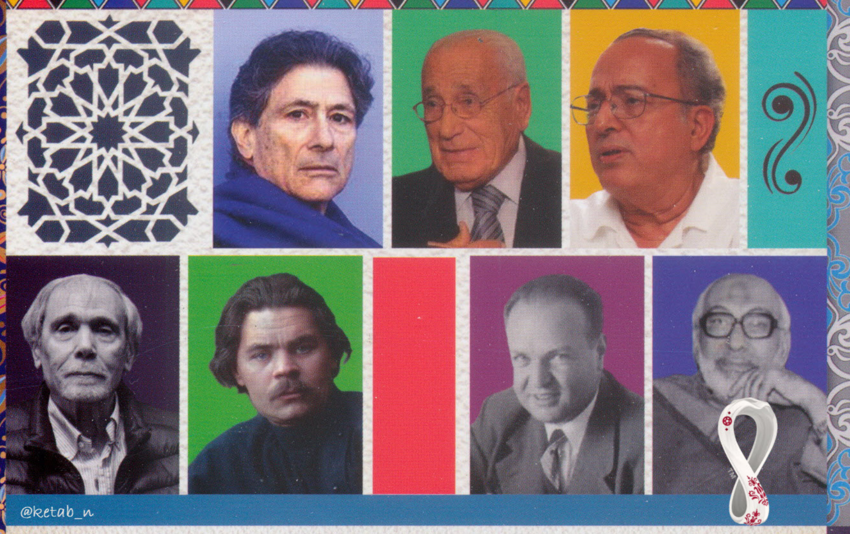


محمد عبد العزيز الهجين

مودَّة الغرباء

حكايات من السِّير الذاتية والمذكرات



محمد عبد العزيز الهجين

مودَّة الغرباء

حكايات من السِّير الذاتية والمذكرات



مودَّة الغرباء

حكايات من السِّير الذاتية والمذكرات

محمد عبد العزيز الهجين

- باحثٌ مهتمٌّ بالتاريخ والسِّير.
- تخرَّج في كلية الآداب بجامعة طنطا - قسم التاريخ.
- حاصل على درجة الماجستير.
- صدر له: **الأُنس بالراحلين: أمسيات مع السِّير الذاتية.**

مودَّة الغرباء

حكايات من السِّير الذاتية والمذكرات

محمد عبـد العزيـز الهجيـن

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧١٩١/ ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6459-49-6

الطبعة الأولى لمدارات للأبحاث والنشر

صفر ١٤٤٤هـ - سبتمبر/ أيلول ٢٠٢٢م

مدارات للأبحاث والنشر

٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية

☎ ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢

info@madarat-rp.com

facebook.com/Madaratrp


والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين
صدق الله العظيم
العنكبوت: ٦٩

المحتويات

القسم الرابع: سِير المترجِمين

القسم الخامس: قصص الأدباء

المقدمة

درستُ التاريخ في الجامعة، وأحببتُ هذا التخصُّص؛ فقد أعانني على أن أفهم كيف أصبح العالمُ على ما هو عليه الآن، ثم اكتشفتُ عالم السِّير الذاتية والمذكرات، وكان بمثابة كسوة جميلة قشيبة فوق جسد التاريخ الصارم؛ ذلك أن السِّير والمذكرات وكتب التراجم تجعل التاريخَ أكثر حياةً، والأهمُّ أنها تجعله يتنفَّس ويصبح حاضرًا في الوعي بقصص حياة الناس.

كنت كلما طالعتُ سيرةً أو مذكراتٍ لبعض الشخصيات، رأيت الحدث الكبير يتحوَّل إلى مشاعر إنسانية، ابتداءً من البطولة وانتهاءً بالضعف البشري، وهكذا أصبحت أسارع إلى اقتناء كتب السير والتراجم؛ حتى أرى التطبيق العملي للحدث النظري في التاريخ. وأما الفائدة الثانية التي نعمتُ بها من وراء قراءة هذا اللون من المؤلفات فهي صحبة هؤلاء المؤلِّفين والتعلُّم منهم.

هذا الكتاب حصيلة قراءة ست سنواتٍ (٢٠١٣-٢٠١٩)[1]، وكنتُ كلما استهوتني شخصيةٌ كتبتُ عنها، وتملكتني رغبةٌ عارمةٌ في إلقاء الضوء على حياة هذه الشخصية. ولقد يسعك أيها القارئ الكريم أن تَعُدَّ هذا الكتاب أول الغيث، وأتمنَّى أن أستكمل هذا المشروع في كتب

(١) استكملتُ المشروع من خلال قراءاتي التالية في كتاب **الأنس بالراحلين: أمسياتٌ مع السِّير الذاتية**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ٢٠٢١).

أخرى، أزور فيها مدينة السِّير الذاتية والمذكرات، وأتأمَّل ذلك السؤال المهيب المحيِّر: كيف يكتب المرءُ عن نفسه؟ وكيف يكتب الآخرون عنه؟

وقانون هذا الكتاب هو الفوضى الخلاَّقة التي قيل: إنها أنسبُ طريقة للقراءة، فهو مزيجٌ متنوِّعٌ يمكن وصفه بأنه **أشتاتٌ مُجتمِعاتٌ**، كما أطلق العقادُ على أحد كتبه. ولا يناقش هذا الكتابُ نظريات السِّير الذاتية أو أساليب الكتابة عن النفس أو الكتابة عن الغير؛ وإنما بدا لي أن أحكي قصص هؤلاء الذين أمتعتني قصصُ حياتهم، وأردتُ أن أدعو القارئ إلى هذا الفن الجميل.

كنتُ أطالع ترجمات المترجم الفلسطيني عادل زعيتر، فتبهرني لغتُه الجميلة الرصينة، وعندما تصفَّحت كتاب وديع فلسطين الممتع الذي يتحدَّث فيه عن أعلام عصره، تحمَّست للكتابة عن عادل زعيتر، ولم أكن أتخيَّل أن هذه المقالات ستصبح كتابًا، كنت أنفعل بالكتاب أو السيرة التي بين يدي، وأحيانًا بالشخصية نفسها، فأكتب عنها. وعندما تُوفي المترجم طلعت الشايب كتبتُ عنه، فقد التقيتُ به في أحد المؤتمرات.

وقرأت كتابًا بعنوان: **حياتي في الإعلام** لعارف حِجَّاوي فكتبتُ عنه، وكان سببًا في بداية تعرفي إلى المؤلِّف الذي تعلَّمت منه الكثير، وتجد في الكتاب حديثًا عن كتابيه **أول الشعر وآخر الشعر** وفكرة الموسوعة وطريقتها. وقرأتُ مذكرات سومرست موم **عصارة الأيام** أو **الخلاصة** في ترجمة حسام الخطيب، ثم كتبتُ عن الناقد الأدبي وراهب القراءة ماهر شفيق فريد الذي سعدتُ بلقائه أيما سعادة، وكان راضيًا عن مقالتي

التي تشير إلى كتبه. هكذا كنت أتفاعل بمن ألتقيهم أو أقرأ عنهم، فأبحث عن سيرتهم وأتامل حياتهم.

هـذا الكتـاب يريد أن يقول: إن فنَّ السـيرة الذاتية فن ممتـعٌ وله فوائد كثيـرة، وإن هنـاك مذكـراتٍ تسـتحقُّ أن نعيـد قراءتها، وإن هنـاك مؤلفين يبدعـون فـي فنِّ التراجـم والكتابة عن الشـخصيات، مثل وليـم كليفلاند وكتابه عن شكيب أرسلان الذي تتبَّع حياته تتبعًا دقيقًا في كل أطوارها.

ومن شـكيب أرسـلان وحياته تعرفتُ إلى رحلات رشيد رضا وكتبتُ عنه، ثم أعجبني كتاب محمد كُرد علي: **المثقف وقضية الولاء السياسي** للنفـزاوي، وفـي أثناء تجوالي في إسـطنبول انتابني الفضول حول شـكل المدينـة قديمًـا، فقـرأت رحلـة جورجي زيـدان لها منـذ مائة عـام تقريبًا، واكتشـفتُ أن المستشـرقة أنَّا ماري شـيمل عاشت في إسطنبول، لكن في خمسينيات القرن الماضي، وأنها عَرَضَت لطرف من علاقتها بالمدينة في سيرتها الذاتية.

وأحببتُ كتاب عايدة الشـريف **قصة قلم** عن محمود شـاكر، ووفاءها لأسـتاذها، ومذكراتهـا اللطيفـة التي بعنوان: **شـاهدة ربع قـرن**، فعرضتُ سـيرتها. هكـذا كنتُ أقرأ السِّـير والتراجم، وأشـعر بضـرورة الكتابة عنها والتنويه بها.

واستمتعت بقراءة كتاب **عالم الأمس**؛ سيرة الأديب النمسـاوي ستيفان تسـفايج وطفولتـه فـي النمسـا وعالم الأمن الذي سـبق الحـرب العالمية الأولـى، وأدركـتُ أن ثمـة تشـابهًا فـي بعض الملامـح بين عالمـه وعالـم المخرج الإسـباني لويس بانويل في قرية كالاندا الإسـبانية. وفي فلسطين

كان هناك جندي عثماني شارك في الحرب العالمية الأولى وكتب يومياته التي ضاعت مع الاجتياح الإسرائيلي، ثم عثر عليها سليم تماري وعرضها وكتب عنها مقدمةً ضافيةً، وكتبتُ عنها، وتجدها في طيات الكتاب.

وعندما شاهدتُ الوثائقيَّ الجديدَ عن حياة إدوارد سعيد من إنتاج قناة ثمانية، ورأيت عرفات واقفًا في الأمم المتحدة يقرأ خطابه الذي كتبه محمود درويش وراجع النص الإنجليزي إدوارد سعيد، وجدتني مدفوعًا إلى التعمق في معرفة هذا الرجل. وتناولت كتاب نبيل عمرو **ياسر عرفات وجنون الجغرافيا**، وهو يسجِّل تلك الانطباعات التي تولَّدت لديه من خلال معايشته عرفات عن قرب، ومشاطرته كثيرًا من أيامه المجيدة والبائسة، فيما يمكن أن نصفه تبسيطًا بالحلو والمُر.

وحين صدر كتاب **أحاديث برقاش: هيكل بلا حواجز** للصحفي عبدالله السنَّاوي كتبتُ عنه، وعرضت الكتاب، وأشرتُ إلى اعتراض فؤاد زكريا في كتابه **كم عمر الغضب؟ هيكل وأزمة العقل العربي** الذي كتبه بعد صدور كتاب هيكل عن السادات بعنوان: **خريف الغضب**. وسيرة هيكل مُلهمة؛ فهو الصحفي الذي لازم السياسيين، وهو العَلَم الأبرز في مجال الصحافة.

وقرأتُ مذكرات المترجم محمد عناني المعنونة: **واحات العمر** وعرضتُها، وأعجبتني مذكرات مجايله المترجم ماهر البطوطي في كتابه **الجيل الرائع**.

لقد سعدتُ وأنا أجمع فصول هذا الكتاب حين رأيتُ ما اجتمع لي من سِيَر المترجمين بالصدفة البحتة، ولعلَّ سبب حبي لهم أنهم يعملون

فـي الظـلال، ويضحُّون بجزءٍ من حـبِّ الأنا والظهور، فكنـت أحبُّ تتبُّع أخبارهـم ورصـد ملامح حياتهـم؛ مثـل: المترجم سـامي الدروبي الذي بهرتنـي قصـةُ حياتـه التـي كتبتها زوجتُه السـيدة إحسـان بعـد وفاته، فهي مذكـرات يشـعُّ منها الحـبُّ والوفاءُ، ونرى فيها سـامي الدروبي في حياته اليومية، ونتعرف على دوره السياسـي والدبلوماسـي كسـفير. وكتبتُ عن سـيرة صلاح نيازي **غصن مطعَّم بشـجرة غريبة**، وهي السيرة التي شرعتُ فـي قراءتهـا بنـاءً على توصيـة أحـد أصدقائي وبسـبب عنوانهـا الغريب، وتأثـرت بتجربتـه في تعلُّم اللغة الإنجليزية في لنـدن، إلى أن أصبح قادرًا على ترجمة كلاسيكيات الأدب الإنجليزي.

وبعدُ، فهذه مقالات تهتمُّ بفنِّ السيرة الذاتية، وتعرض نماذجَ من كتب هذا الفن، كما تسوق نماذجَ أخرى من كتب التراجم كَتَبها بعضُ المؤلفين عن شخصياتٍ أخرى، أردتُ فيها أن أشارك القارئ انطباعاتي وشعوري وأنا أتعرف إلى حياة هؤلاء المؤلِّفين، فإذا نجحتُ في إثارة فضوله وحثِّه علـى مطالعـة الكتب التي أشـرتُ إليهـا، أكون قد وفِّقتُ فـي المهمَّة التي انتدبتُ نفسـي لها، وهي أن أدلَّ القـرَّاء على عناوين مميزة لـم تأخذ حقَّها أحيانًا من الانتشار والذيوع.

القسم الأول

حكايات من بدايات القرن العشرين

ستيفان تسفايج وانهيار عالَمه
مائة عام على انتهاء الحرب العالمية الأولى

«لقد دمروا منزلي ووجودي ثلاث مرات، وفصلوني عن الماضي وكل ما كان، ثم قذفوا بي بغتةً إلى الفراغ، إلى حيث لا أعرف، وإن كنت أعرفه حقَّ المعرفة. ولكنني لا أتأسَّف على ذلك. فالإنسان الشريد يغدو حرًّا بمعنى جديد»

ستيفان تسفايج

احتضنت باريس في نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٨ احتفالاتٍ لإحياء الذكرى المئوية لانتهاء الحرب العالمية الأولى. تذكَّرتُ مع حلول هذه الذكرى كتاب **عالم الأمس** لستيفان تسفايج الذي يُعَدُّ من أمتع المذكرات التي يمكن أن يطالعها القارئ، فهي تصف حياة كاتب قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها، كاتب شهد انهيار إمبراطورية النمسا، ونشوء خارطة سياسية جديدة للعالم. كل هذا جعل حياته عبارة عن محطاتٍ بعضها قبل الحرب وبعضها بعد الحرب، وما أشدَّ الاختلاف بين هذه وتلك!

عصر الأمن الذهبي وعصر التأمين العظيم

يبحث تسفايج عن تسمية مناسبة لعالم أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى، فيجد أنها «عصر الأمن الذهبي»؛ فالأشياء قائمةٌ على الديمومة،

والدولـة ضامنـةٌ لهـذا الاسـتقرار. كانـت العملـة النمسـاوية (الكـراون) تتداولها الأيدي قطعًا ذهبية لامعة مستقرة. في هذه الإمبراطورية الواسعة، كان كلُّ شـيء يقـف راسـخًا ثابتًـا فـي موضعه المحـدَّد. كان فـي مقدور الموظـف أن ينظر إلـى الروزنامة نظـرةً واثقةً: يعرف متى سـيُرَقَّى، ومتى سيُحال إلـى التقاعد. لقد كان المنجز الأساسـي في النمسـا هو الشـعور بالأمان، فقد سـبق الحرب ما يمكن أن نطلق عليه «قرن التأمين العظيم»: المنـزل مؤمَّنٌ عليه ضد الحريق والسـرقة، والحقـل مؤمَّنٌ عليه ضد البرد والعواصف، وحياة الشخص مؤمَّنٌ عليها ضد الحوادث والمرض. وكان يُدفع للشخص معاشٌ سنويٌّ في زمن شيخوخته. إنه عالمٌ بلا حدود، ولا يحتاج جوازات سفر.

ويحلِّل تسفايج نظرة الأمان هذه؛ فعيبها البارز هو الثقة البالغة بأن هؤلاء البشـر قـد تحصَّنوا ضد كل الثغـرات التي يمكن أن يهاجمهـم منها القدر، وهذه نظرةٌ تنطوي على غرور خطر. لقد أقنعت المثاليةُ الليبراليةُ في القرن التاسع عشر الناسَ بأنهم ماضون في طريقٍ مستقيم مطَّردٍ إلى أفضل العوالم، وأنهـم لـن يرتكبـوا أخطـاء العصـور السـابقة التي عصفـت بهـا الحروبُ والمجاعـاتُ، فلقد كان البشـر يفتقرون إلى النضـج والتنوير، ولقد تقدَّموا الآن لتجـاوز كل هـذه الأخطاء. وهكذا أصبحت عقيـدة «الإيمان بالتقدُّم» قوةً تضارع قوة الدِّين، وتعززها المعجزاتُ اليوميةُ الجديدة للعلم والتقنية.

عصر العلم والتقنية قبل الحرب

يصـف تسـفايج كيف غيَّرت التقنية والعلوم نهاية القرن التاسـع عشـر وبداية القرن العشـرين، فالأنوار الكهربائية حلَّت محلَّ الإضاءة الضعيفة

للشوارع في الليل، وبفضل الهاتف أمكن أن يتحدَّث شخصان متباعدان، وأخذ الناس ينتقلون من مكانٍ إلى آخر في عرباتٍ بلا خيل وذات سرعة جديدة، وبدأت أحلام الطيران تصبح واقعًا، وأخذت أسبابُ الراحة تنتقل إلى الطبقة الوسطى، فلم يعد أحدٌ مضطرًّا إلى إحضار الماء من المضخَّة والقناة، وانتشر الوعي الصحي، واختفت القذارة، وزاد الولع بأهمية الرياضة، وقلَّ عدد ذوي العاهات والمشوَّهين ومتضخمي الغدة الدرقية في الشوارع. لكن مع كل هذه الإنجازات، لم يتخيَّل أحدٌ أن أوروبا ستتجه إلى حرب ضروس تتقاتل فيها بكل المنجزات العلمية الجديدة، وتطوّع التقنية لخدمة الحرب.

يهودي في النمسا

عاشت أسرة تسڤايج في ڤيينا التي بلغ عدد يهودها آنذاك نحو عشرين ألف أسرة، ورغم أن الحرب العالمية الأولى كانت بمثابة عاصفة لعالم الأمن والأمان الذي عاش فيه أبوه وجدُّه، فإن حياتهما كانت دافئةً وخاليةً من المتاعب، ويصف تسڤايج حياة أبيه وجدِّه وصفًا ممتعًا، وكيف تكيَّفا مع ظروف العصر السابق واستطاعا الإثراء. وعلى الرغم من أن والده كان ثريًّا، فإنه كان يأخذ الدرجة الثانية في عربة النوم، ولم يُجِز والدُه لنفسه ترف قضاء شهر في الشتاء في نيس إلا عندما بلغ الخمسين؛ إذ إن مبدأ التمتُّع بالثروة عنده إنما كان التمتُّع بامتلاكها لا بإظهارها. لم يطرأ عليه أيُّ تغيير مع الإثراء، فقد كانت روح العصر تحثُّ على عدم البذخ. ورغم أن والده كان مليونيرًا، فإنه لم يدخن سيجارًا مستوردًا قطُّ، بل كان يدخن سيجار فيرجينيا الشعبي الرخيص الذي كانت الدولةُ تحتكر

إنتاجه، مثله في ذلك مثل الإمبراطور فرانسيس يوزيف. وحين كان يلعب الورق لم يكن يراهن إلا على مبالغ زهيدة، فقد التزم نمط عيشه المريح المتحرِّز المتحفِّظ التزامًا لا هوادة فيه.

ليالي الأُنس في ڤيينا

عندما وصف تسفايج مدينته ڤيينا قبل الحرب، خطرت ببالي كلمات أحمد رامي التي غنتها أسمهان «ليالي الأنس في ڤيينا نسيمها من هوا الجنَّة.. نغم في الجوّ له رنَّة.. سمعها الطير بكى وغنَّى»، فهو يتغنَّى بحبٍّ المدينة للموسيقى والألحان، ويشبِّهها بباريس حيث التمتُّع بالحياة أمر يسير، وطغى الاهتمامُ بالموسيقى والمسرح والفنون على أيِّ اهتمام آخر بالحياة السياسية والعسكرية. فلم تكن أحداث البرلمان أو شئون العالم أولَ ما ينظر إليه الإنسان العادي في صحيفة الصباح، بل كانت تشغله عروض المسرح القادمة. كان التعلُّق بالمسرح والفنانين لافتًا. كان يمكن أن يسير في شوارع ڤيينا رئيس الوزراء، أو أحد كبار الأثرياء، دون أن يلتفت إليه أحدٌ، وأما الممثلون ومغنو الأوبرا فقد كان يعرفهم القاصي والداني. ولقد بلغ التعصُّب للفنِّ والمسرح في تلك المدينة المُؤنسة أن يتظاهر الطلَّاب وتُكتب المقالات للمحافظة على المنزل الذي مات فيه بيتهوڤن.

في مديح البطء

يرصد تسفايج الفروق بين عصر ما بعد الحرب العالمية الأولى والقرن الذي سبقه، ونلاحظ تأكيده على أن القرن الذي سبق الحرب لم

يكـن قـرنَ معاناة، وأن التحولات كانت هادئـةً، والأهمُّ من ذلك أن إيقاع الحياة كان بطيئًا؛ فلم تكن قد انتشـرت بعدُ الآلات والسـيارات والهاتف والمذياع والطائرة، فالزمن والعمر كان لهما مقياسٌ آخر. ويصف تسفايج سلوك الناس قائلًا: «كانوا يمشون في بطء، ويتكلمون كلامًا منتظم اللهجة، وفـي أثناء أحاديثهم يمسِّـدون لحاهـم المهندمة التي وخطها الشـيب في الغالـب ... فالعجلـة لـم تكـن سـلوكًا مهذبًا، بل غيـر لازمـة بالفعل، أما الحـروب والكـوارث فلم تكـن لتخترق الجـدران القويـة للعيش الآمن، فحرب البوير والحرب الروسـية اليابانية وحرب البلقان لم تنفذ إلى حياة أبويَّ، وكانا يمران على تقارير الحرب في الصحف كما يمران على أخبار الرياضة، فما أهمية ما كان يحدث خارج النمسا بالنسبة لهما!».

«كل هـذا تغيَّـر في ٢٩ يونيو/ حزيـران ١٩١٤؛ ففي سـراييڤو أُطلقت الرصاصـة التـي حطمت فـي لحظة واحدة عالـمَ الأمان والعقـل الخلَّاق الـذي تعلَّمنـا فيـه وترعرعنـا، حطمته مثل وعـاء أجوف من فخَّـار»، يريد بذلك حادثة اغتيال إمبراطور النمسا فرانز فرديناند.

لا بدَّ لي من أن أفسـد النهاية وأخبر القارئ أن صاحب هذه السيرة قد انتحر لاحقًا في البرازيل، وأنه شـعر بالغربة الشـديدة والتشرد، وأن منزله الروحـي الأول قـد ضاع بفعل حربين. سـتجد في سيرته تفاصيـلَ مهمَّة وممتعـة عـن عصر ما قبل الحرب، وعن عصر ما قبل فرويد وبعد فرويد، وعـن الفـوارق بين نظم الدراسـة قبل الحـرب وبعدها، وحـال المرأة في عصره وكيف تغيَّر بعد ذلك. إن الكتاب مكتوبٌ بقلم أديب بارع فلا تملُّ منـه، وتتجلَّـى براعتُـه في رسـم صـور الشـخصيات، فعندما تقـرأ وصفه لراينر ماريه ريلكه يتملكك الفضول لمعرفة المزيد عن هذا الشاعر الذي

وصفه تسـڤايج وصفًا رقيقًا هادئًا. إنها سـيرةٌ تثير أسئلةً، وتمنح متعةً رغم مركزيتها الأوروبية.

العرب في الحرب العالمية الأولى

علـى الضفـة الأخـرى من أوروبا تسـڤايج، ثمـة عالَمٌ آخـرُ لم يرصده الكاتـب، ويبـدو أنه كان يجهله جهـلًا تامًّا؛ إذ نـراه يتعجَّب كيف تحدث حرب بين الأشـقاء في أوروبا، وينسـى سـنواتٍ من التنافس الاستعماري والحـروب علـى ثروات العالم. لـم أجد لدى تسـڤايج أيَّ أحزانٍ تخصُّ غيـر المواطـن الأوروبـي، وفصول الكتاب تـدور حول أوروبـا فقط. أما البلاد العربية فهي إمَّا مسـتعمرة من قِبل بريطانيا أو فرنسـا، وإمَّا أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة تحت حكم العثمانيين. لم تكن -على اختلاف ظروفها- في حال جيدة.

أما عن أحوال بلاد العرب في الحرب العالمية الأولى، ولا سـيما في نهايتهـا، فقد كانت خاسـرةً سياسـيًّا، وتبحث عن هويـة لها في عالـم قاسٍ قائمٍ على التقسـيم. فالدولة العثمانية تسـقط، وبريطانيا وفرنسا تتقاسمان الهلال الخصيب عبر سـايكس بيكو، ولبنـان يعاني المجاعة، والمؤلفون العـرب يبحثـون عن سـرِّ تقـدُّم الغـرب وتأخُّر العـرب، وإنجلتـرا تخدع الشريف حسين، ويحصل اليهود على وعد بلفور. فعصر «الأمن الذهبي» الذي وصفه تسڤايج عصرٌ أوروبيٌّ، ولـم تشهده بلادنا العربية.

وتجدر الإشارةُ إلى اهتمام بعض الدراسات بتاريخ بعض المناطق في أثناء الحرب، مثل دراسة لطيفة سالم المعنونة: **مصر في الحرب العالمية الأولـى**. وهناك كتاب أشـمل يضمُّ أبحـاثَ مؤتمر عقـده «المركز العربي

للأبحاث ودراسة السياسات» لبحث أثر الحرب العالمية الأولى من وجهة نظر عربية، وصدر في مجلدين بعنوان: **مائة عام على الحرب العالمية الأولى: مقاربات عربية.**

تعبّر عن حال العرب في الحرب العالمية الأولى لقطةٌ من الوثائقي المميز **العرب في الحرب العالمية الأولى**، فعند وقوع العرب في أسر القوات الألمانية يسارع علماء اللسانيات إلى تسجيل لقاءاتٍ مع الأسرى لحفظ لهجاتهم ودراستها، ويردّد أحد الأسرى قول أبي فراس الحمداني، من القصيدة المشهورة:

أَراكَ عَصِيَّ الدَّمعِ شِيمَتُكَ الصَّبرُ
أَمَا لِلهوى نَهيٌ عليكَ ولا أمرُ؟

فيقول:

وقال أُصَيحابي: الفِرارُ أو الرَّدى!
فقلتُ: هما أمرانِ أحلاهما مُرُّ
ولكنني أمضي لما لا يَعيبُني
وحَسبُكَ من أمرينِ خَيرُهما الأسرُ

عسكري ساخط: يوميات جندي عثماني فلسطيني في الحرب العالمية الأولى

بيـن يدي كتاب بعنوان: **عام الجراد: الحـرب العظمى ومحو الماضي العثمانـي مـن فلسـطين - يوميـات جنـدي مقدسـي عثمانـي (١٩١٥ - ١٩١٦)**، ويشـمل دراسـةً لسـليم تماري، ونصَّ يوميات الجندي إحسان حسن الترجمان الذي شارك في الحرب العالمية الأولى في القدس. وقد اختـار محقِّـقُ النـصّ عنـوان: **عـام الجـراد** للكتـاب؛ لأن هجمـة الجـراد الكارثية على أراضي فلسـطين وسـورية سـنة ١٩١٥ اختزلت في الذاكرة الجماعيـة ارتبـاط قسـوة الطبيعـة بالمجاعـة والأوبئـة وهمجيـة الحـرب والتهجير في لحظة واحدة من الزمن.

لقـد نجحـت الحرب العالميـة الأولى في محو ذاكـرة أربعة قرونٍ من الحُكـم العثماني، واختصرتها فـي أذهان الأجيال اللاحقة برموز الطغيان الثلاثة: جمال باشا، والسفر برلك (تهجير أهالي بعض المناطق)، وأعواد المشانق في ساحة البرج في بيروت، وفي باب العامود في القدس. هكذا كان المشهدُ الأخيرُ للدولة العثمانية في بلاد الشام أسودَ قاتمًا، وتحولت الدولة في نظر رعاياها من دولة عثمانية واعدة متعدِّدة القوميات إلى دولة الأتراك، ومن القمع العثماني إلى الطغيان الطوراني.

قصة إحسان حسن الترجمان واختفاء يومياته وكيف وصلتنا

كان إحسان عسكريًا مجنَّدًا في القيادة العثمانية بالقدس، ولد عام ١٨٩٣ في باحة الحرم القدسي الشريف، وهو أحد المجنَّدين العرب الذين يذكّرنا المؤرخ التركي جورسيل جونشو بأن عديدهم بلغ نحو ٣٠٠ ألف جندي من قوام الجيش العثماني. وقد جُنِّد في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٤، وكان عمره ٢١ عامًا عند إعلان النفير العام وانضمام تركيا إلى دول المحور (ألمانيا والنمسا)، ضد الحلفاء الروس والإنجليز.

ومن حسن حظّنا أن يدوّن الجندي حسن الترجمان يومياتِه في هذه الفترة. وقد قضى الترجمان فترة الحرب في القدس وهو «يلعب بشواربه» على حدّ قوله، واستعان بعلاقاته الاجتماعية ليتهرَّب من الخدمة على جبهة السويس. وأصبحت يوميات الترجمان من جملة ضحايا الحرب، ولم تظهر إلى الوجود إلا بعد قرنٍ من الزمن في مكانٍ غير متوقع، ويبدو أن عائلته -والداه وأخواته- لم تعلم بوجود اليوميات، وبالتالي لم تشعر بغيابها.

والراجح أن الترجمان ترك يومياته في المنزل أو لدى صديقه حسن شكري الخالدي، وعندما احتلَّت إسرائيل شرق المدينة في يونيو/ حزيران ١٩٦٧، وضمَّت ما تبقى من القدس العربية، ظهرت اليومياتُ المفقودةُ فجأةً في أرشيفات الجامعة العبرية في قسم «الأملاك العربية المتروكة». ويرجع تاريخ هذا القسم إلى يوليو/ تموز ١٩٤٨، بعد شهرين من احتلال الهاغاناه للقدس الغربية. حينها أرسل الملازم كاتزين سوفر، رئيس شرطة القدس الجديد، خطابًا إلى الدكتور كورت وورمن، رئيس

مكتبة الجامعة العبرية، يشير فيه إلى مصير ١٢ ألفًا من المجلدات والمخطوطات التي تمَّ الاستيلاء عليها من البيوت العربية، وضمن لائحة الكتب قائمة بأسماء بعض البيوت المنهوبة، ومن بينها منزل عادل بك الترجمان في شارع المصرارة.

ولم يكن اسم صاحب المذكرات واضحًا؛ ذلك أنها كانت مدوَّنةً باسم محمد عادل الصالح، غير أن المحقِّق سليم تماري وجد بعد مراجعتها أن أصدقاء صاحب اليوميات كانوا ينادونه: «إحسان»، وتتقاطع فترة كتابة اليوميات مع يوميات خليل السكاكيني. وهناك يوم يزور فيه الجندي إحسان بيت خليل السكاكيني، ويدوِّن السكاكيني اسم إحسان، فنتعرف إليه بوضوحٍ.

لقد بذل سليم تماري -وهو الذي حقَّق أيضًا مذكرات السكاكيني التي تقع في ثماني مجلداتٍ- جهدًا علميًّا في إضاءة كثير من المعلومات، وتتبُّع تاريخ النصّ. ودراسته التي تسبق مادة المذكرات ثريةٌ حافلةٌ بالملحوظات التاريخية والاجتماعية، ومن الإضافات القيمة مقارنتُه بين مذكرات إحسان الترجمان ومذكرات جندي عثماني اسمه محمد الفصيح، قاتَل على جبهة جناق قلعة، ودوَّن يومياته. ويقارن تماري بين شخصية هذين الجنديين ويُبَيِّنُ الفروق بينهما، وكيف رأى كلٌّ منهما الحرب نفسها وهما على جبهتين مختلفتين.

يوميات الترجمان والتاريخ من أسفل

هناك التاريخ الذي يكتبه القادة والمنتصرون أو حتى الزعماء السياسيون، ويشير تماري في ذلك إلى مذكرات عوني عبد الهادي،

ومحمد عزة دروزة، ورستم حيدر، أو ما كتبه قادة عسكريون مثل فوزي القاوقجي، أو روّاد فكريون مثل خليل السكاكيني، ونجاتي صدقي. إلا أن يوميات الترجمان مختلفةٌ، فهي مذكرات جندي عادي ومواطن مقدسي. وتتيح لنا مذكراتُه التي دوَّنها على ضوء شمعة ليلًا بعد انتهاء الدوام اليومي كثيرًا من تفاصيل هذه الفترة. لقد عمل إحسان مساعدَ كاتبٍ تحت قيادة روشن بك، وكان روشن بك أرفعَ سُلطة عسكرية في فلسطين العثمانية، ويتبع مباشرةً جمال باشا قائد الجيش الرابع في دمشق، وكان جمال باشا يزور القدس زيارات مطردة في أثناء الحرب.

يفتتح الترجمان يومياته بنقاشٍ أجراه في ربيع سنة ١٩١٥ مع زملائه: «كان مدار حديثنا عن هذه الحرب المشؤومة، وعن انتهاء مدتها، وعن مصير هذه الدولة ... فحياة هذه الدولة (العثمانية) قصيرة لا شكَّ، وسيفضي أمرها إلى الانحلال عاجلًا أم آجلًا؛ لأن تقسيمها أصبح ظاهرًا كالشمس، ولكن ماذا سيكون نصيب فلسطين يا ترى؟ والجواب هيِّن: إمَّا الاستقلال وإمَّا الالتحاق بمصر، والأمر الأخير أقرب لنا من الاستقلال».

جندي ساخط على دولة تلفظ أنفاسها الأخيرة

يبدي إحسان في يومياته كراهيته الشديدة لجمال باشا، ولقيادات الاتحاد والترقِّي. إنه حزينٌ على انتكاسة حملة جمال باشا في السويس التي قاتل فيها أقرباؤه ومعارفه، ويخاف أن يرسَل إلى جبهة القتال. ويغضب إحسان من قرارات جمال باشا بتوظيف اليهود والمسيحيين في طوابير العمَّال وتكليفهم بالمهن الشاقَّة، ويحكي في يومياته عن زواج

جمال باشا بمومس يهودية. وفي بعض الأحيان، يصوِّر جمال باشا على أنه شخصية اعتباطية مهمتها تكدير الجند، فهو يمدِّد ساعات العمل ويلغي الإجازات الأسبوعية بلا مسوِّغ، ويصل غضب إحسان إلى ذروته من جمال باشا بعد شنق جنديين في ساحة باب الخليل في ٣٠ مارس/ آذار ١٩١٥ بتهمة التجسُّس لحساب الإنجليز، الأمر الذي يراه إحسان اتهامًا باطلًا.

ويعاني إحسان شيئًا من الارتباك في الهوية؛ فتارة يلوم شعبه الفلسطيني لصبره على الظلم والذلِّ، بل يصفه «بالأمَّة الذليلة الخانعة»، قائلًا: «إن أيَّ شعب يحترم نفسه يجب أن يثور على أوضاع اضطهاده»، إلا أنه يغتبط لانتصارات العثمانيين في الدردنيل وكوت العمارة في جنوب العراق، وحين اندلعت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين تضامن معها وكتب: «بارك الله بك أيها الشريف ... أنتم أيها العربان برهنتم للعالم أنكم رجال تأبون الذلَّ والهوان».

مدينة القدس والحرب العالمية الأولى

كانت القدس مركزًا لمتصرفية[1] كبيرة شكَّلت نصف مساحة فلسطين الانتدابية، وكان أشرافها ووجهاؤها نخبةً متنفِّذةً في مجريات الأمور في المدن المحيطة (يافا والخليل تحديدًا)، وتكمُن أهمية هذه اليوميات في إلقاء الضوء على طرف من الحياة اليومية للمدينة، فقد كانت الحرب

---

(١) المتصرفية تقسيم إداري عثماني من المستوى الثاني؛ فكل ولاية عثمانية تنقسم إلى عدد من المتصرفيات، ويطلق على المتصرفية أيضا اسم سنجق أو لواء ، ويترأس المتصرفية موظف إداري يسمى المتصرف يعيَّن بأمر من السلطان.

العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) حقبةً مفصليةً في مسار انقطاع التواصل بين الحاضر العثماني للمجتمع الشامي وبين مستقبله الانتدابي.

وقد أفضت الحرب العالمية الأولى إلى تقويض القيم الاجتماعية السائدة، واستحداث أنماطٍ سلوكية جديدة؛ فمع غياب أعداد كبيرة من الرجال والشباب عن عائلاتهم، بسبب التجنيد الإجباري والموت على جبهات القتال، تعرَّضت مئاتُ الآلاف من العائلات لضربات الفقر المدقع والجوع والمرض. وظهرت أنماطٌ سلوكيةٌ جديدة لم تشهدها هذه المدنُ بهذا الزَّخم من قبل. فقد انتشر التسول والسرقة والدعارة، وكلها سلوكياتٌ صاحبت الحرب. والحقُّ أن إشارات سليم تماري إلى التحولات التي طرأت على المدينة تذكِّرنا بملحوظات الشيخ محمد رشيد رضا في رحلاته إلى بلاد الشام في بيروت ودمشق، ورصده أثر الحرب العالمية الأولى في هذه المدن.

لقد حوَّلت الحربُ فلسطين إلى ورشة بناء عملاقة للمنشآت العسكرية، ويمكن نسبة العديد من سمات الحداثة التقنية، التي نُسبت إلى فترة الانتداب البريطاني في فلسطين (والفرنسي في سوريا ولبنان)، إلى مبادراتٍ عثمانية بدأت أيام الحرب، فقد حُفِرت الآبار الإرتوازية في أنحاء البلاد، وبدأ ربط التجمُّعات الحضرية الرئيسة بشبكة من الأنابيب، وامتدَّت السكك الحديدية من شمال البلاد إلى الجهات الجنوبية (الحفير وَبئر السبع)، كما ربطت شبكة الهاتف والتلغراف فلسطين وسورية بالعالم الخارجي. وتطورت الخدمات الصحيَّة بفتح المستشفيات والعيادات لمكافحة أوبئة الملاريا والكوليرا والتيفوس، التي انتشرت في أثناء الحرب وحصدت ضحايا لا يقلُّ عددها عن ضحايا المعارك.

ويرجع إنجاز العديد من المشاريع إلى تشكيلات «طوابير العملة»، وهم عمَّال سخَّرهم الجيشُ العثمانيُّ لبناء الطرق والسكك الحديد ومعسكرات الجيش. وعلى الرغم من سوء أوضاع هؤلاء العمَّال، فإن عملهم أتاح لهم الطعام المجاني والإقامة المجانية بمعسكرات الجيش. وتغيَّرت عادات سكان القرى والبلدات الصغيرة لتقترب من العادات في حواضر بيروت ودمشق وحلب. ولقد لفَت نظري كيف استخدم سليم تماري كتاب صلاح عيسى **رجال ريا وسكينة** ليفسِّر عادات العمَّال في الجيش الرديف الذي صاحب الجيش البريطاني في مصر في أثناء الحرب العالمية الأولى، وطبَّق تلك الرؤية على العمَّال الذين رافقوا الجيش العثماني.

ويشير تماري أيضًا إلى تحولاتٍ مهمَّة في أنماط العمل والحياة اليومية؛ فقد بدأ سكان المدن باقتناء ساعات الجيب لتحديد بداية ساعات العمل ونهايتها. واحتلَّت المقاهي مقام المنازل كأماكن تجمُّع وزيارة للرجال؛ ففي القدس ويافا كما هي الحال في بيروت وحلب ودمشق، شجَّعت الدولة إنشاء الملاهي الليلية والمواخير؛ للترفيه عن الجنود.

وعلى صعيد آخر، كان للحرب تأثير انعتاقي إيجابي في المجتمع خلال الحرب ذاتها، ففي أجواء الحرب والدمار وتعطيل حياة الناس الطبيعية ظهرت آفاقٌ جديدةٌ للحداثة الاجتماعية، وأحدثت الحرب احتكاكًا واسع النطاق وحراكًا سكانيًا كبيرًا؛ حيث احتكَّ المجنَّدون بعساكر الجيش الشاهنشاهي من قومياتٍ أخرى، من أتراك وأكراد وسوريين وعراقيين وألبان وبلغار، بالإضافة إلى بعض الضباط الألمان والنمساويين من حلفاء تركيا.

وبعدُ، فثمة مصطلحٌ شائعٌ في بعض نظريات النقد الأدبي، هو مصطلح «موت المؤلف»، ويُقصَد به انتهاء قدرة المؤلف على المشاركة في تأويل عمله، وأن تصبح قراءة العمل في متناول القُرَّاء فقط. لقد لقي إحسان الترجمان مصرعه برصاصة في عام ١٩١٧، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، مات مؤلِّف **اليوميات** دون أن ينشرها بعد أن أخذ عادة تسجيل اليوميات عن أستاذه خليل السكاكيني. ثم كان أن وصلتنا هذه المذكراتُ بمحض الصدفة، فرأينا جنديًّا عاديًّا يرى كثيرًا من مظاهر الحرب على حقيقتها دون ادعاءاتٍ أيديولوجية، رأينا جنديًّا يفكِّر في موعد زواجه، وفي ثريا بنت الجيران، ويَعِدُ نفسه أن يتوقَّف عن التدخين، جنديًّا يشفق على المومسات في طرق القدس ليلًا، جنديًّا لا يرى من وراء الحرب طائلًا، ويعيش لحظات وعي مشوَّش تحدث لكل من يعيش في أوقات التحولات التاريخية، فلا هو عثماني خالص ولا عروبي خالص ولا فلسطيني خالص؛ غير أنَّ ما ميَّز كل ما كتبه هو الأريحية والصدق وامتزاج الخاصِّ بالعام.

شكيب أرسلان: الجنتلمان العثماني

بين يدي كتاب مميز صدر مؤخرًا للمؤرخ الأمريكي وليام كليفلاند بعنوان: **الإسلام ضد الغرب: شكيب أرسلان والدعوة إلى القومية الإسلامية**. ينظر فيه إلى الأمير شكيب أرسلان (١٩٤٦ - ١٨٦٩) بوصفه نموذجًا لشخص من الجيل الأخير للعرب العثمانيين الذين نشأوا قبل العام ١٩١٤، والمولودين تقريبًا بين عامي ١٨٧٠ و١٨٩٠. وقد تلقى أبناءُ هذا الجيل تعليمهم، وأسسوا حياتهم المهنية وخططوا لمستقبلهم في عالم كانت الإمبراطوريةُ العثمانيةُ جزءًا منه، وأُرغموا بعد عام ١٩١٩ على إعادة تأسيس حياتهم وتسوية أوضاعهم في عالم لم يختاروه، وقد كانوا ميَّالين إلى رؤية النظام السياسي والهوية الثقافية بوصفهم عربًا عثمانيين، معتبرين تسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى ظالمةً وغير ملائمة؛ فقد فُكِّكت البلاد العربية وغدت مقسَّمةً بين القوى الاستعمارية.

كان أبناء أسرة أرسلان أمراء دروزًا بالوراثة، وتعود جذورهم إلى منطقة الشوف في لبنان. أما والده الأمير حمود، فقد خرق أعراف الدروز بزواجه من امرأة شركسية (وكذا فعل شكيب لاحقًا)، ودرس في طفولته في المدرسة الأمريكية في منطقة الشوف. وقد انتسب شكيب إلى مدرسة الحكمة، وهي المدرسة الرائدة في بيروت (أسَّس المدرسة يوسف الدبس، مطران بيروت عام ١٨٧٤)، وتشكَّلت مراهقتُه في أجواء بيروت المتحرِّرة، وظلَّ رجلًا مدينيًا طوال حياته؛ ليكتسب بذلك ذائقة الأجواء الأدبية التي يمكن أن تؤمِّنها المدينة دون سواها. وفي سنِّ السابعة عشرة

نشر ديوانه الأول **الباكورة**، وأهداه إلى الشيخ محمد عبده. ثم التحق بعد ذلك بالمدرسة السلطانية، وهو معهد حكومي عثماني، درس فيه العلوم الإسلامية، وترسخت لغته التركية. وفي سنِّ الثامنة عشرة اكتمل تعليم شكيب، بأفضل ما كان متاحًا في عصره، فقد منحته سنواتُه السبع التي قضاها في المدرسة المارونية مدخلًا إلى الأوساط الأدبية في كل من بيروت ودمشق، ومع تعلُّمه التركية تمكَّن من تولي مهام رسمية وغير رسمية في كنف الدولة العثمانية.

التقى في شبابه بمحمد عبده الذي كان منفيًّا عن مصر، مقيمًا في بيروت من سنة ١٨٨٦ إلى سنة ١٨٨٨، وتنبَّأ له محمد عبده بأنه سيكون شاعرًا كبيرًا. وقد رأى أرسلان في محمد عبده أنه ذلك الرجل الذي لم يكن عالمًا فقط، بل عالمًا لم نعهد رؤية مثله من قبل، على حدِّ وصفه. زار مصر بعد ذلك، ثم أقام سنتين في إسطنبول تعرف فيها إلى العديد من شخصيات الدولة، والتقى بالسلطان عبد الحميد، وتعرَّف إلى جمال الدين الأفغاني وأُعجب به جمال الدين الأفغاني، ثم انطلق من تركيا لزيارة أوروبا وبالتحديد لندن وباريس، وهناك بدأت صداقته مع الشاعر أحمد شوقي، وهي الصداقة التي ستمتدُّ بعد ذلك أربعين سنةً، وقد عرض لها في كتابه **شوقي أو صداقة أربعين سنة**.

احترف أرسلان الصحافة، ونشر مقالاته في أكبر الصحف اليومية التي كانت تصدر في القاهرة، ومنها صحيفتا **الأهرام** و**المؤيد**، هذا بجانب عمله متصرِّفًا أو حاكمًا لمنطقة الشوف في لبنان وعضو في البرلمان العثماني، شأنه في ذلك شأن اثنين من أشقائه. ولم يكتفِ بذلك في شبابه، فقد حقَّق مخطوطتين اثنتين ونشرهما وهو في العشرين من عمره،

وهما: **الدرَّة اليتيمة** لابن المقفع، **والمختار من رسائل الصابئ**. وكذا أولى اهتمامًا للأدب الفرنسي وترجم لشاتوبريان روايته **مغامرات آخر بني سراج**، ويرجع سببُ اختياره لهذه الرواية إلى تصويرها الوجود الإسلامي في الأندلس.

وفي أثناء الغزو الإيطالي لطرابلس، تحرَّك من جبل لبنان، جنديًا وعاملَ إغاثة وناشطًا، بعد أن أقنع القائد العثماني في دمشق بإرسال عددٍ من الضباط والجنود للخدمة العسكرية في طرابلس. ورافق أرسلان الجنود في رحلتهم، ومرُّوا بمصر التي كانت تُحكم من قِبل بريطانيا، فتنكروا في أزياء البدو، ولم يتمكَّن أرسلان من أن يمضي أبعد من منطقة العريش؛ حيث اعتُقل وأُرسل في نهاية المطاف على متن قارب إلى يافا. ولكن ذلك لم يوقفه، فقد ركب سفينة أخرى من يافا إلى الإسكندرية، ثم وصل القاهرة بوصفه متطوّعًا في خدمة جمعية الهلال الأحمر المصرية. وبعد ذلك أيَّد جمعية الاتحاد والترقِّي، وصاحَب عبد العزيز جاويش في رحلاتٍ لبيروت ودمشق والقدس والمدينة المنورة مروِّجًا للسلطة العثمانية الجديدة، ومحذِّرًا من خطورة الاستعمار.

تربَّى أرسلان وترعرع في ظروفٍ بدت له فيها الهيمنة والقوة للعسكرية الأوروبية الغربية ظاهرةً، فقد كانت تلك سنوات أفول الإمبراطورية العثمانية. وعلى مدى السنوات الأربعين الأولى من عمره، كان التوسُّع الأوروبي في البلاد الإسلامية متواصلًا؛ فلبنان تمَّ تنظيمه من قِبل الدبلوماسية الأوروبية في عام ١٨٦١، وبريطانيا احتلَّت مصر عام ١٨٨٢، فيما كانت فرنسا لا تزال تحتلُّ الجزائر وتحكمها منذ عام ١٨٣٠، وجعلت من تونس سنة ١٨٨١ والمغرب عام ١٩١٢ محميَّتين

خاضعتين لها، في حين شنَّت إيطاليا هجومًا على طرابلس الغرب في عام ١٩١١، وشكَّلت روسيا تهديدًا مستمرًا في المضائق وعلى طول الحدود العثمانية الشرقية. وبالإضافة إلى ذلك، تشكَّلت دول جديدة في منطقة البلقان انفصلت عن أراضي الدولة العثمانية وتحالفت مع القوى الأوروبية، وعمدت أوروبا إلى تقسيم تركة الرجل المريض والمناطق الخاضعة لسلطان العثمانيين.

دافع أرسلان عن الدولة العثمانية حتى آخر نَفَس لها، مخالفًا قطاعًا كبيرًا من العرب كان يشعر برغبة في التخلُّص من نِيرِ الحكم العثماني، خصوصًا في ظل استبداد كثير من قادة الدولة مثل جمال باشا في الشام، فضلًا عن وعود القوى الاستعمارية بإقامة حكوماتٍ عربية؛ كالوعد الذي حصل عليه الشريف حسين. ومع سقوط الدولة العثمانية تغيَّرت حياة الشاب المؤمن بها إلى شخصٍ يعيش في منفاه في جنيف وحيدًا، بعيدًا عن البلاد العربية جغرافيًا، لكننا نجده حاضرًا في حقبة ما بين الحربين بقوة.

ويصف أرسلان في سيرته الذاتية لحظة أفول الدولة العثمانية ومغادرة قادتها إلى برلين، مثل أنور باشا وطلعت باشا. وما لفت نظري هو تقديره الشديد لأنور باشا، حتى إنه قصَّ تحركاته بعد وصوله برلين وعدم رغبة أنور في توقف القتال ضد بريطانيا، وعودة أنور إلى فتح جبهة مع بريطانيا مستعينًا بالروس البيض، ثم خذلانهم إياه وقتلهم له في بُخارى خلال المعارك ضد الحكومة البلشفية في عام ١٩٢٢. وعاش طلعت باشا في برلين، لكنه اغتيل على يد أحد الأرمن، وكذلك اغتيل جمال باشا في تفليس عاصمة جورجيا على يد أحد الأرمن. وهكذا انتهت حياة

الطورانيين الثلاثة قتلًا بعد أن قوّضوا الإمبراطورية العثمانية في انقلابهم عام ١٩٠٨.

أما أرسلان في حياته الشخصية، فقد كان كثيرًا ما يقدِّم القضية والاهتمامات العامَّة على أي اهتماماتٍ شخصية، فقد تزوج من زوجته سليمى عام ١٩١٦ بعد بلوغه سنَّ السابعة والأربعين. ولقد عانى زواجهما فتراتٍ طويلة من الابتعاد؛ فقد غاب عن أسرته ست سنواتٍ متصلة ولم يلتئم شمل الأسرة إلا في ربيع العام ١٩٢٤، بعد رؤيته أمه وزوجته وابنه غالب، مع مكابدته بعض الصعوبات المالية، لكن هذه الشخصية لم تكن لتستقر وتهدأ في مارسين، تلك القرية التي تقع في جنوب تركيا، فقد كتب شكيب رسالةً إلى صديقه رشيد رضا يشتكي عُزلته، وأنه تمضي الجمعتان والثلاث ولا يأتيه زائر... ولمدة خمسة أشهر ما أقام إلا مأدبة واحدة.

كان شكيب يرتدي ملابس أوروبية فاخرة لا تشوبها شائبة، وينشر مقالاته في مجلاتٍ علمية جديدة، وبهذه وتلك كان يبدو مثقفًا غربيَّ النزعة والثقافة. لكنه لم يكن علمانيًّا ولا متغربًا (لم يتفرنج)، فقد كان عدوه الأول مصطفى كمال أتاتورك الذي عصف بعالمه القديم من خلال إلغائه الخلافة؛ وبمساعدة رشيد رضا، تأتَّى بلباقة ودهاء لشغل منصب رئيس الوفد السوري الفلسطيني المفوض في عصبة الأمم في عام ١٩٢٥. واتخذ لنفسه مسارًا عمليًّا جديدًا بوصفه داعية سياسيًّا عالميًّا، وولج عمق القضايا السياسية والتيارات الفكرية الرئيسة في عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

وعلـى الرغـم من أنـه لـم يعش قطُّ بصورة دائمة فـي أي بلد عربيٍّ بعد عام ١٩١٧، فقد اسـتأثر شـخصه -إلى جانب آرائـه- بمثل هذا الاهتمام إلـى الحـدِّ الذي جعلـه جزءًا لا يتجـزَّأ من الصـراع السـوري اللبناني مع فرنسـا، ولاعبًا فاعلًا على صعيد المأسـاة الفلسـطينية، ومعلِّقًا على التيار الإصلاحـي الإسـلامي المنبثـق مـن مصر. وإلـى جانب كل ذلـك، لعب أرسلان - كما تؤكِّد دراسة كليفلاند - دورًا رئيسًا في إرساء قواعد أرضية مشـتركة بين نضالات العرب المشـارقة وعرب شـمال إفريقيا في سعيهم إلـى تحقيق الاسـتقلال. وأصبح المعلِّم المرشـد لمجموعة من القوميين المغاربة الشـباب، وأظهره تنسـيقه للاعتراضات الإسـلامية الدولية على مرسوم الظهير البربري عام[1] ١٩٣٠، بوصفه شريكًا مرغوبًا فيه للمسلمين العـرب فـي كل المناطـق، وانخـرط ضمـن مجموعـة مـن الشـخصيات الجزائرية والتونسية الريادية وتبنَّى قضاياهم، وأتى بها إلى معترك النضال العربي الإسلامي الشامل المناهض لقوى الإمبريالية الأوروبية. وأضحت إقامتـه فـي جنيـف أرضية اختبـار لاسـتراتيجيات المقاومة. وسـواء أكان يستضيف الملك فيصل ملك العراق، أم يسدي المشورة لمصالي الحاج مـن الجزائـر، أم يتنـازع مع ديڤيـد بن غوريون، أم يسـتقبل وفودًا سـورية متنوِّعـة؛ فقـد حوَّل في كل ذلـك مقرَّ إقامته في جنيف إلـى مركزٍ للحركة الإسلامية العالمية.

---

(١) قانون أصدره الاحتلال الفرنسي للمغرب في مايو/ أيار ١٩٣٠، ينصُّ على جعل إدارة المنطقـة البربريـة تحت سـلطة الإدارة الاسـتعمارية، فيمـا تبقى المناطـق العربية تحت سلطة «حكومة المخزن» والسلطان المغربي.

هذا الرجل يمكن النظر إليه بوصفه ناشطًا سياسيًا مهمًا في فترة ما بين الحربين، إلا أن هذا النشاط السياسي لم يجعل نشاطه يتوقف عن الحضور ككاتب لهذه الفترة، فقد كتب سيرة صديقيه رشيد رضا وأحمد شوقي، وبوصفه مؤرخًا للفتوحات العربية في أوروبا أعاد إلى الذاكرة صورًا عظمى للماضي بكتابة تاريخ للأندلس، وبوصفه معلقًا إصلاحيًا شارك بكتابه الذي تضمَّن نقدًا قاسيًا وعنوانه: **لماذا تأخَّر المسلمون؟** والذي طُبع ثلاث مراتٍ في حياته وأُعيد طبعه بعد ذلك؛ وشرحه الذي ورد في أربعة مجلداتٍ لكتاب **حاضر العالم الإسلامي** للكاتب لوثروب ستودارد. ومن خلال اشتغاله على هذه الكتب، إلى جانب مجلته التي كانت تصدر باللغة الفرنسية باسم **الأمة العربية**، مع مقالاته التي نشرها في الصحافة العربية، والتي بلغ عددها مائة مقال سنويًا أو نحو ذلك؛ يمكننا القول: إن أرسلان كان الكاتب العربي الأكثر مقروئية في حقبة ما بين الحربين.

لقد كانت الشهرة وذيوع الصيت قدرَ شكيب أرسلان ، فقد أتته الشهرة منذ أن كان شابًا إلى نهاية حياته، وأصدر ديوانه الأول بالتزامن مع اشتغاله بعمل إداريٍّ لأول مرة في لبنان عام ١٨٨٨ ، واختير رئيسًا للأكاديمية العربية في دمشق عام ١٩٣٨ . واعتُرف به بوصفه المسئول التنظيمي لحركة الاستقلال المغربية في ثلاثينيات القرن العشرين. وكان الضيف الشخصي للخديوي عباس حلمي الثاني في القاهرة عام ١٩١٢ .

أما نشاطه فلم يتوقف، وسفره المتصل الذي يبدو لنا دليلًا على أنه لا يبالي بالتعب ولا يكلُّ ولا يملُّ. وقد عزَّزت رحلاته الشاقَّة التي ارتحل فيها إلى أنحاء متفرّقة من العالم -في أحيانٍ كثيرة- صورتَه بوصفه

مجاهـدًا لا يُقهـر. فمن ذلك مثلًا: أنه أنفق خلال عام ١٩٢٧ أربعة أشـهر في الولايات المتحدة الأمريكية، وحضر مؤتمرًا في موسكو. وخلال ستة أشـهر مـن العـام ١٩٣٤، جـال فـي دول البلقان وصـولًا إلى بودابسـت، وتوسط لفضّ نزاعٍ في اليمن، والتقى مرتين بموسوليني في روما، وتناول طعـام الغـداء مـع المنـدوب السـامي البريطانـي فـي القـدس. وكان مثل الأفغانـي، فـي آخر أيامـه، يجوب العالم الإسـلامي وأوروبا، فيسـتقطب مريديـن جـددًا، ويحـذِّر وينبِّه بعض الحـكَّام العرب إلى الخطـر، وينتزع تعابيـر القلـق مـن المسـئولين البريطانييـن والفرنسـيين الذيـن يقتفون أثر تجواله.

ومن يُطالع هذه السـيرة يلفي تحليل الكاتـب للقيمة الفكرية التي كان شكيب أرسلان يتمتع بها، فعلى الرغم من كونه كاتبًا متميزًا له أثرٌ واضحٌ، فقـد كان فـي رأي المؤلـف أقـلَّ أهميةً بوصفه مفكرًا أصيـلًا؛ وحاله حال أقرانـه، كان فكـره مزيجًـا من فكر مرشـديه الأفغاني ومحمـد عبده، فيما كانت قدرته على توجيه الأحداث أكثر محدوديةً مما كان يخشى خصومُه الأوروبيون. ومع ذلك، فقد كان صاحبَ شـخصية بارزة، وذا نفوذ دوليٍّ كبير، وأكثر نزاهةً واسـتقامةً مما عزا إليه منتقدوه، وأشـدَّ دهاءً مما يعتقد مؤيـدوه.وكان أحـدُ أوجه تميُّز سـيرته التي كتبها كليفلانـد، اطلاعه -أي كليفلانـد- علـى أرشـيفات أجهزة الأمـن الحكوميـة التي تعقَّبت نشـاط أرسـلان، كما هي الحال في بريطانيا وسويسـرا، فهاتفُ منزله ظلَّ مراقبًا إلى وفاته، رغم مغادرته هذا المنزل قبلها بسنتين؛ وبذلك أضاف كليفلاند معلومـاتٍ وتحليـلاتٍ تظهـر لأول مرة، أضـف إلى ذلـك تحليله لموارد شـكيب أرسـلان المالية، وكيـف كان يموّل كثيرًا من نشـاطاته. إن سـيرة

شكيب أرسلان هي وجهٌ من وجوه تاريخ المنطقة متمثلًا في أحد المفكِّرين الجوَّابين المنذرين مما يحيق بها من أخطار.

رحلة الكفاح: شكيب أرسلان وسوريا

في بداية القرن الماضي نمت حركة نهضة في مختلف البلدان العربية، وكانت تركِّز على سؤال: لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم الغرب؟ وتنوَّعت شخصياتُ تلك الحركة فكانت أطيافًا شتى وأمزجةً متباينة، بداية من ثورية الشيخ جمال الدين الأفغاني، وانتهاءً بتحولات الشيخ محمد عبده. وهناك شخصيتان اجتمعتا في قضايا كثيرة وأنشطة فكرية وسياسية، هما: الأمير شكيب أرسلان، والشيخ محمد رشيد رضا. ومن أمثلة نشاطاتهما دورُهما في القضية السورية.

تحوَّل شكيب أرسلان إلى داعية سياسيٍّ مدافع عن القضايا العربية: من سوريا وفلسطين إلى بلاد المغرب العربي. فعلى النقيض من سعد زغلول الذي لم يشغله شيء خلا مصر، حيث تولَّى المفاوضات بخصوص الاستقلال، وحصل على تأييد إقليميٍّ وقاعدة شعبية من المصريين؛ فإن شكيب أرسلان كان محرومًا من قاعدته الإقليمية بفعل القيود الفرنسية والبريطانية التي فُرضت عليه، وحظرت دخوله إلى البلاد الخاضعة لانتدابهما، لكنه تمكَّن من أن يتحوَّل إلى نصير للحقوق السياسية، محاكيًا أسلوب الأفغاني في جوبانه أصقاع العالم الإسلامي.

وعلى الرغم من أن رشيد رضا قد انتقد في البداية مواقف شكيب أرسلان وقُربه من جمعية الاتحاد والترقِّي ودفاعه عن السياسات العثمانية، فقد حدث بعد ذلك نوعٌ من التقارب الفكري بين الاثنين.

لـم تكـن هزيمـةُ العثمانيين فـي الحرب العالميـة الأولى كافيـةً ليوقن أرسـلان بفشـل مشـروع إحياء مجـد الدولـة العثمانية، وانتظـر حتى رأى الكماليين ينتصرون في تركيا ويقومون باسـتعراض عسكريٍّ عام ١٩٢١، ثم شهد الاغتيالات التي طالت كبار أعضاء الاتحاد والترقّي المنفيين في أوروبا، بداية من اغتيال طلعت باشا عام ١٩٢١، ثم بهاء الدين شاكر عام ١٩٢٢ في برلين، ثم محمد سـعيد حلمي رئيس الوزراء العثماني الأسبق في روما، واغتيال جمال باشـا، المشـهور بالسـفاح، على يد شاب أرمنيٍّ عام ١٩٢٢ في تفليس عاصمة جورجيا، ثم اغتيال الأب الروحي لشكيب أرسـلان أنور باشـا في بخارى. ويتضح من سـيرة شـكيب أرسـلان مدى تقديره لأنور باشا.

لكن شـكيب أرسلان سيحاول المحاولة الأخيرة للحصول على دعم تركيٍّ بزيارته إسطنبول عام ١٩٢٣ في محاولة لتشكيل جبهة عربية تركية تعمـل علـى طرد الفرنسـيين مـن سـوريا، إلا أن مصطفى كمـال أتاتورك رفض تلبية نداءاته، واسـتقرَّ أرسـلان في مدينة مرسـين التركية القريبة من الحدود السورية، ولم يكن في وسعه أن يذهب إلى سوريا أو فلسطين أو حتى مصر، بسبب المنع المفروض عليه، وأمضى ثمانية شهور في مرسين وقابـل أمَّـه وزوجته وابنه الذين حُرم لقاءهم منذ سـت سـنواتٍ. وأرسـل رسالةً إلى رشيد رضا توضّح أنه شخصٌ يحبُّ أن يعيش كسياسيٍّ وناشطٍ منخـرطٍ في الشـأن العـام، حيث كتب له محتـدًّا ومتذمرًا مـن القيود التي يفرضهـا العيـش فـي بلـدة صغيـرة: «ولـو أردت أن أخـرج إلـى السـوق بالقفطـان مـا لاحـظ ذلك أحـد، وتمضي الجمعتـان والثـلاث ولا يأتيني زائر... ولمدة خمسـة أشـهر ما أدبت إلا مأدبة واحدة». لقد شـكّلت تلك

الإقامـة نقطـة تحـوُّل؛ إذ طـوى فيهـا نهائيًـا صفحـة إحيـاء الإمبراطوريـة العثمانية، وأخذ يتنامى تماهيه مع «العروبة» سياسيًّا.

لعب رشـيد رضا دورًا في دمج أرسـلان في بوتقة النشـاطات العربية، فقد رأى في مواهب أرسلان وقدراته ما يثير الإعجاب، وأدرك أنه خطيبٌ مفـوَّه، وأنـه بارع فـي الدعايـة والتواصل مـع الزعماء والقـادة. لقد أدرك رشـيد رضا أن شـخصًا يملك هذه المواهب لا يجوز أن يُترَكَ في مرسين أو برليـن، وكانـت إيماءة المصالحة الأولـى بينهما في عهد الملك فيصل فـي سـوريا، حيـث أصبح رشـيد رضـا مقربًا مـن الملك فيصل، وأرسـل رسـالة لأرسـلان مفادهـا أنه «مضى الـذي مضى، وصار علينـا أن نجتمع ونتفق لأجل معالجة الحال الحاضرة».

وقبـل ذلك وفي عام ١٩٢١، انعقد المؤتمر السـوري الفلسـطيني في جنيف برئاسـة الأمير ميشـيل لطف الله ونائبه شكيب أرسـلان، وقد دُعِيَ إلـى انعقـاده من أجـل بلـورة موقفٍ متماسـكٍ مناهـضٍ لنظـام الانتداب الفرنسـي في سـوريا، ومن أجل تقرير أفضل السُّـبل لعرض هذا الموقف على عصبة الأمم.

وكان الأمير ميشيل لطف الله وراء تنظيم المؤتمر في جنيف وتمويله، فقد كان صاحب أراضٍ وتاجرًا ثريًّا من أبناء الجالية السـورية المقيمة في مصـر، وكان أبـوه حبيـب باشـا مقـاولًا كبيـرًا راكم ثـروة بوصفـه تاجرًا، وأصبـح أحـد أثرى أثريـاء مالكي الأراضـي في مصر، ومنحتـه الحكومة المصرية لقب باشا، وأسبغ عليه الشريف حسين لقب أمير.

وفي عام ١٩٢٥، حدثت انتفاضة ضد القوات الفرنسية في دمشق، وكان ردُّ الفعل الفرنسي إجراميًّا، حيث قصفت فرنسا -في أحد أسوأ استعراضات القوة التي أبدتها في حروبها الإمبريالية قاطبةً- دمشق جويًّا وبسلاح المدفعية على مدى يومين بدءًا من الثامن عشر من شهر أكتوبر/ تشرين أول من العام ١٩٢٥.

شجَّع رشيد رضا الأمير شكيب أرسلان على مغادرة مرسين والسفر إلى سويسرا لتفعيل المعارضة ضد تحركات فرنسا، وتشير محاضر اجتماعات عصبة الأمم إلى اسم شكيب أرسلان وإحسان الجابري مندوب قضية فلسطين بأكثر مما يرد اسم أي شخصٍ من دول الانتداب، وتبرز حرصهما على المشاركة في إظهار الموقف السياسي للثورة السورية والقضية الفلسطينية.

عومل أرسلان معاملة الناطق الرسمي باسم سوريا في أوروبا، وطلب هنري دوجوفينيل (قبل مغادرته إلى بيروت لتسلم مهام منصبه الجديد بوصفه مندوبًا ساميًا في نوفمبر/ تشرين ثاني من العام ١٩٢٥) من أرسلان -بصفته رئيسًا للوفد- أن يذهب إلى باريس ليناقش الوضع معه.

أمضى أرسلان في الولايات المتحدة الأشهر الأربعة الأولى من عام ١٩٢٧، وحضر اجتماعات المؤتمر السنوي لحزب سوريا الجديدة في ديترويت. وكان يرمي من حضوره المؤتمر إلى تزويد الجالية العربية في الولايات المتحدة الأمريكية بمعلوماتٍ عن الثورة الأخيرة، وإلى جمع التبرعات.

ومثلما يحدث في المنفى، تنشأ صراعاتٌ بين السياسيين. وقد ظهرت تلك الخلافات في القاهرة بين شخصيتين سياسيتين هما: عبد الرحمن الشهبندر وشكيب أرسلان، بسبب طموحات الرجلين التي تصادمت. وأصبح الشهبندر عدوَّ شكيب أرسلان اللدود، مما أدى في النهاية إلى الخصام الذي كان في صالح الاستعمار. وعكف الشهبندر على ماضي شكيب أرسلان العثماني وعمله مع جمال باشا، وورَّطه في موقف المدافع عن تلك العلاقة. وحاول الشهبندر إضعاف سلطة شكيب أرسلان في تمثيل القضية السورية من خلال إثارة مسألة تنازلات أرسلان في المفاوضات. ويفسر كليفلاند مواقف شكيب أرسلان بأنه بوصفه ناشطًا سياسيًّا في المنفى كان ينظر بإحدى عينيه إلى مواقف فرنسا وردَّة فعلها، وبالعين الأخرى إلى ردود فعل مواطنيه، وقد حرَّره نفيه من الخوف من المسئولية السياسية، وجعله يعبِّر عن رأيه بصراحة وجرأة.

ضاقت بريطانيا وفرنسا بجهود شكيب أرسلان وتحالفاته، وتابعت تحركاته أمنيًّا. فقد أعدَّ هنري دوجوفينيل تقريرًا أمنيًّا عن أداء أرسلان ونشاطه في برلين، حيث حاول تجنيد ضباط ألمان لقيادة الثورة في سوريا. وورد في التقرير أنه بينما كان أرسلان في روما من أجل حضور اجتماعات لجنة الانتداب، أعدَّ الترتيبات الضرورية لتكليف عميل بشراء أسلحة ألمانية ليرسلها بعد ذلك إلى الثوار في سوريا. وكانت مثل هذه المعلومات والتحركات عنه تجعل فرنسا تصفه بالمتآمر لضرب المصالح الفرنسية في المنطقة.

تطرق وليام كليفلاند في كتابه عن شكيب أرسلان إلى معلوماتٍ لا توجد بهذا الوضوح فيما نعرف من الكتب العربية عن حياة الأمير، منها

أوضاعه المالية المتدهورة في فترات حياته الكثيرة، فعندما ضرب الكساد أوروبا وازدادت ديون أرسلان كانت رسائله إلى رشيد رضا مليئةً بتفاصيل عن الضائقة الاقتصادية التي يعانيها، وتكشف النقاب عن رجل يعيش حالة فوضى مالية ناجمة عن مزيجٍ من سوء الطالع وسوء الإدارة. وأضحت الديون سمةً قائمةً ودائمةً من سمات حياة أرسلان، وسبَّبت له كثيرًا من القلق.

ولكي يموِّل رحلاته واسعة النطاق ويقوم بواجباته كاملةً في «عصبة الأمم»، كانت أوضاع أرسلان تتطلَّب من المال ما يفوق قدرته على الاقتراض. وتلقي أرسلان مساعداتٍ ماليةً أمرٌ معروف، وإلى أن دبَّ خلاف بينه وبين ميشيل لطف الله في أواخر عشرينيات القرن العشرين، كان الوفد السوري الفلسطيني يُموَّل من قِبل أسرة لطف الله. وذلك فضلًا عن تلقي أرسلان معونة مالية شخصية مباشرة من عباس حلمي، خديوي مصر المعزول.

تحمَّل عباس حلمي أعباء نفقات شكيب أرسلان في أوروبا من خلال إعانته ماليًّا بمبلغ وقدره ٣٠ جنيهًا شهريًّا، وعندما تأكَّد أرسلان من كون هذه المعونة لا ترمي إلى استخدامه سياسيًّا وافق على قبولها. إلا أنه عندما أعلنت فرنسا أنها مستعدَّة لإقامة مملكة في سوريا، أماط عباس حلمي اللثام عن طموحاته في اعتلاء عرش سوريا، لكن أرسلان لم يوافق على رغبات مموِّله، وأعلن أن الوفد السوري الفلسطيني معنيٌّ فقط بتحقيق الاستقلال، ولن يبذل جهدًا لدعم الخديوي المعزول ليغدو ملكًا، فتوقفت تلك المعونة من عباس حلمي عام ١٩٣١. وكان أرسلان يسعى دائمًا لعقد تحالفاتٍ بشرط أن تسمح تلك التحالفات له بحرية

الحركة، وألاَّ تملي عليه أفكارًا ليس مقتنعًا بها؛ ولذلك استخدم علاقاته مع إيطاليا وألمانيا ليصطنع حلفاءَ لـه، وكذلك حرص على التواصل مع الملك فيصل ثم الملك عبد العزيز آل سعود.

كانت علاقة شكيب أرسلان مع رشيد رضا قويةً، فالتقدير المتبادل ووحدة الهدف جمعا بينهما، وفي ثلاثينيات القرن الماضي اضطر شكيب أرسلان إلى أن يكتب نعيًا لكثيرين من أبناء جيله، وكان يتأثر كثيرًا برحيل رفاقه؛ لأن المنفى حرمه من عِشرتهم في سنواتهم الأخيرة. لقد أثَّر فيه فقده لصديقه رشيد رضا، وتذكَّر اللقاء الأخير بينهما على متن قطار أقلَّهما من الإسكندرية إلى السويس خلال رحلة أرسلان متجهًا إلى الحجاز عام ١٩٣٤، وكان يرافق أرسلان حارس عسكري في رحلته كلِّها، وكان الحديث بين رشيد رضا وشكيب أرسلان محظورًا.

وكانت إقامته في جنيف أرضيةً للتحالفات. وسواء أكان يستضيف الملك فيصل ملك العراق، أم يسدي المشورة لمصالي الحاج من الجزائر، أم يتنازع مع ديفيد بن غوريون، أم يستقبل وفودًا سورية متنوِّعة؛ فقد حوَّل في كل ذلك مقرَّ إقامته في جنيف إلى مصدر إزعاجٍ لبريطانيا وفرنسا.

وفي عام ١٩٣٦، سافر إلى باريس وفدٌ سوريٌّ للتفاوض حول الاستقلال، ولم يكن شكيب أرسلان عضوًا في الوفد. لكن خوفًا من نقده للمعاهدة علنًا مما قد يؤدي إلى شحن الرأي العام ضدها، زاره الوفد في جنيف، ووافق شكيب أرسلان على الشروط. وعلى أثر المعاهدة، تمكَّن من العودة إلى سوريا في شهر يونيو/ حزيران من العام ١٩٣٧. لكن بريطانيا ستطلب من فرنسا إخراجه في نهاية العام بسبب

خطاباتـه التحريضيـة ضدها فـي مؤتمر بلودان. وفي حيـن صدر عفو عن رفيقه إحسـان الجابري من قبل فرنسـا، وبقي في سـوريا ليشـغل منصب محافـظ اللاذقيـة، طُرد أرسـلان ثم تعـرض إلى مزيدٍ مـن التضييق عندما رفضـت الحكومـة المصريـة السـماح لـه بالنـزول مـن السـفينة فـي ميناء الإسكندرية. ولـم يكن لديه خيار سوى العودة إلى جنيف.

أحاطت الديون بشـكيب أرسـلان عام ١٩٤٦، وأرسل رسائلَ لبعض رفاقـه، وأنقـذه الأمير عبد الله ابـن الإمام يحيى إمام اليمن؛ إذ أرسـل إليه أمـوالًا لتسـديد ما عليه من الديـون الأكثر إلحاحًا. وقد عاد أرسـلان إلى سـوريا مـرةً أخـرى عـام ١٩٤٦ . وفي الحادي عشـر من ديسـمبر/ كانون الأول، قـررت السـلطات السويسـرية التوقف عـن التنصُّت علـى هاتفه، لكنها لـم تكن تعلـم أنه توفي قبلها بيومين في سوريا عن ثمانين عامًا.

محمد رشيد رضا: حياة حافلة بالأعمال وعصر مخيّب للآمال

«لمّا نشب خلاف بين أعضاء المؤتمر وبين الملك فيصل وبدرت من الملك كلمة ينتقص فيها من قدر رجال المؤتمر، كان فيما قال الملك: أنا الذي أوجدته (أي المؤتمر). فردَّ محمد رشيد رضا عليه بقوله: بل هو الذي أوجدك! فقد كنت قائدًا من قواد الحلفاء تحت قيادة الجنرال ألنبي فجعلك ملكًا لسوريا».

أعرض فيما يأتي طرفًا من تجربة محمد رشيد رضا ودوره في بلاد الشام، من خلال رحلاته التي سجلها وجُمعت مرتين: الأولى في كتاب **رحلتان إلى سورية** الذي يسجل فيه رحلتيه إلى سورية فقط، والثانية في كتاب **رحلات الإمام محمد رشيد رضا** تحقيق يوسف إيبش، وهو الكتاب الذي جمع رحلات رشيد رضا وأسفاره كلها.

قرَّر رشيد رضا أن يلحق بشيخه محمد عبده في مصر عام ١٨٩٨، بعد أن عُطِّلت مجلة **العروة الوثقى**، وفي العام نفسه أصدر رضا أول أعداد مجلته **المنار**.

الرحلة الأولى لبلاد الشام عام ١٩٠٨

صادرت حكومة سورية العدد الثاني من **المنار** بعد توزيعه؛ لمقالة فيه عنوانها: «القول الفصل في سعادة الأمَّة»، ثم صدر أمر من السلطان

عبد الحميد الثاني بمنع مجلة المنار من دخول مملكته، وعُرض عليه أكثر من منصب في بلاد الشام شريطة أن يتوقف عن الكتابة، فلم يوافق وفضَّل المكوث في مصر. ثم أُعلن الدستور العثماني في عام ١٩٠٨، فعاد لزيارة بلاد الشام.

مما لفت انتباهه سعي بعض المصلحين لإعادة فتح المدارس التي أسستها جمعية المقاصد الخيرية والتي أُغلقت في عهد عبد الحميد. واستقبله الناس بالاحتفالات في طرابلس، لكن أحد الأشخاص اعتدى عليه محاولًا إطلاق النار عليه، وغضب كثيرٌ من أنصار رضا ومريديه من هذا التصرف، ويقول في سجله عن الرحلة: «وتطوع نحو خمسين رجلًا من فدائية بيروت (الأبضايات) بذلك، فكتبتُ إلى بعضهم أنه لا حاجة إلى ذلك، وأنني في طرابلس عزيز كريم»، وينقل رسائل من بعض المسيحيين الذين أحزنهم أمرُهُ، وكتب له نقولا أفندي شحادة رسالةً يتمثَّل فيها بقول المسيح -عليه السلام- الذي معناه أنه لا يُهان نبيٌّ إلا في قومه وبلده.

وفي سبيل جلب الدعم لأفكاره، سافر رضا إلى الآستانة عام ١٩١٠ ليموِّل «دار الدعوة والإرشاد»، ثم شارك في تأسيس جمعية «الجامعة العربية».

وبعد رحلته الشامية بأعوام -في عام ١٩١٣- سافر إلى الهند واستُقبل فيها استقبال الملوك، وعرج في أثناء رحلته هذه على مسقط والكويت والعراق وسوريا. وكانت الثورة العربية في أواخر العهد العثماني، فرحل إلى الحجاز والتقى الشريف حسين، وجعل مجلة **المنار** منبرًا لبثِّ الدعوة إلى مبايعته، واغتنم تلك الرحلة لأداء فريضة الحج.

رضا يلتقي بيكو

سافر رشيد رضا إلى بلاد الشام ثانية في سبتمبر/ أيلول سنة ١٩١٩ وقد وضعت الحرب العظمى أوزارها، ومُنح إذنًا بالسفر مقابل تعهده بعدم تهييج الوضع السياسي، ثم دُعي إلى مقابلة مسيو بيكو المشارك في وضع اتفاقية سايكس بيكو، قال رضا: «واتفق أن أعلن كلٌّ من دولتي إنكلترا وفرنسة عقب وصولي إلى الشام أنهما اتفقتا نهائيًّا على تنفيذ معاهدة سايكس بيكو». ثم زاره شرطيٌّ في بيروت وأبلغه استعداد القومسير السامي مسيو «جورج بيكو» لمقابلته. وقد دار الحديث بينهما حول ثلاث مسائل: الأولى: ذكر فيها رشيد رضا أهمية أن يكون التعليم باللغة العربية، وعدم مساس الفرنسيين بهذه القضية؛ والثانية: سأل رشيد رضا بيكو عمَّا تنوي فرنسا عمله في شرق سوريا، وهل ستبقي على حاكم واحدٍ أم ستتخذ عدة حكام؟ وتهرب بيكو من الإجابة على هذا السؤال؛ والمسألة الثالثة: كانت نقاشًا عن الفرق بين سياسات بريطانيا وفرنسا في المناطق التي خضعت لكل منهما.

رضا والملك فيصل

في هذه الزيارة ذهب رشيد رضا إلى دمشق حيث التقى الملك فيصل، ثم عاد إلى بيروت في أول مارس/ آذار سنة ١٩٢٠؛ لإقناع وجهاء بيروت المنتخبين للمؤتمر السوري بحضور الجلسة التاريخية التي يُعلَن فيها استقلال سورية. وكان رضا يتصرف بوصفه المسئول الأول عن مستقبل بلاد الشام، فيقترح على الملك فيصل تعيين الوزراء، ونقل فيما كتب عن

رحلاتـه خلافَـه مع فيصـل وردَّه عليه بأنه جاء بسـبب عمله مـع الحلفاء، ورفض رشـيد رضا طلب فيصل من وزراء حكومته إعداد جيشٍ لمؤازرة أبيه الشـريف حسـين إذا نشـبت الحرب بينه وبين ابن سـعود. إلا أن ذلك كلَّـه لـم يمنعه مـن الثناء علـى تواضع الملـك فيصل وخصالـه الحميدة. وكان يوسـف العظمـة وعبد الرحمـن الشـهبندر لا يصـدران إلا عن رأي رشـيد رضا؛ لأنه هو الذي رشَّـحهما لوزارة الأتاسـي. ويجـدر بنا هنا أن نُشير محذِّرين إلى أننا ننقل الوقائع والمواقف من منظور رشيد رضا كما دوَّنها بقلمه.

وقد شارك رشيد رضا في تأسيس حزب الاتحاد السوري، ورضي أن يكون فيه نائبًا للرئيس، وأن يكون الأمير ميشـيل لطف الله رئيسًا. وقررت لجنـة حـزب الاتحاد أن تدعـو الجمعيـات والأحزاب السـورية إلى عقد مؤتمر سوريٍّ عام في جنيف، مركز عصبة الأمم، عام ١٩٢٢. ومع عودة رشـيد رضـا إلى مصر لـم تعد المسـألة السـورية من أولوياتـه، وقد تزامن ذلك مع انهيار الخلافة العثمانية، ونشوء دولة آل سعود في نجد.

تاريخ اجتماعي لبلاد الشام

نجـدُ فـي رحـلات رشـيد رضا إلـى بـلاد الشـام تاريخًا شـخصيًّا عن نشـاطاته، ونجد فيهـا تاريخًا اجتماعيًّا حيًّا؛ حيث يصف عادات اسـتقبال النـاس فـي القـرى وتقاليدهـم، وكان يصـف أيَّ مـكانٍ يـزوره، مثل بلدة القلمون وطرابلس. ولـم تتجاهل ملحوظاته القطار الحديدي إلى دمشق، وينقل لنا فرحته بصناعات دمشـق وانشراح صدره بها، فهو يلاحظ مهارة العمَّال في صناعة الفسيفساء في المساجد، ويزور بيت عبد الرحمن باشا

يوسف أمير الحج، فيلفت نظره جمالُ أثاث بعض الحجرات وأنها كلها من صنع بلاد الشام، ثم يقول: «ونفتخر بصناعات الشام في النسج والحفر والبناء والنجارة والأثاث، حتى القناديل الكهربائية النحاسية فهي من صنع تلك البلاد».

إن رشيد رضا رجلُ إصلاح، فما إن يزور مدينة حتى يقدِّم درسًا في المسجد، وينتقل بعدها ليؤسس جمعية في البلد، ويسعى لإصلاح المدارس بها، ويشتغل بالعمل السياسي بجانب تلك الأنشطة. وهو حريص على مقابلة الأعيان والمشايخ، فيصف مثلًا مقابلته مع الشيخ جمال الدين القاسمي ويمدحه، ثم يزور حمص ويلفت نظره أن التعايش بين المسلمين والمسيحيين فيها أفضلُ من بيروت، والتفاصيل التي يهتمُّ بها رشيد رضا تشبه مذكرات الرحالة عن المدن التي يزورها، وهو يكتبها لقرَّاء مجلته **المنار** من أقطار مختلفة، فيريد أن يُشركهم في كل ما تقع عليه عينُهُ.

وفي دمشق يصف فندق فيكتوريا وسوء الخدمة فيه، ثم انتقاله إلى فندق الشرق الملاصق لفندق فيكتوريا مع وصف حالة الفنادق آنذاك، ثم يصف الوضع الاقتصادي المتردِّي في بلاد الشام إبَّان الحرب العالمية الأولى، ويذكر أن دمشق كانت أفضل حالًا؛ لأنها تقع وسط بحر عظيم من الجنات والبساتين. أما مناطق لبنان والساحل فقد تعرَّضت لما يشبه المجاعة، ويصف ما وصل إليه حال الناس في تلك المناطق، خصوصًا في قضاء المتن وكسروان، وينتقد إقامة الوجهاءِ المآدبَ للولاة وقواد الجيش؛ مثل جمال باشا الذي يذكر مظالمه، وذكر أن رؤساء البلديات كانوا يهتمون بنقل جثث الموتى أو المشرفين على الموت جوعًا من

الطرقات؛ حتى لا يراهم جمال باشا أو أنور باشا أو والي بيروت في زياراتهم.

ويصف حال المسلمات في بيروت بأنهنَّ الأشدُّ محافظةً على التقاليد القومية من أمثالهنَّ في سائر المدن السورية، بسبب قلَّة أخذهنَّ بأسباب التغريب وقلَّة اختلاطهنَّ بالتُّرك. ننقل تلك الملحوظات -وهي كثيرة في رحلاته- لنذكر اهتمام رشيد رضا برصد مظاهر الحياة في بلاد الشام، بدايةً من الدروس العلمية في المساجد، إلى الحالة السياسية والعمرانية، إلى الحياة الاجتماعية وملابس النساء، وقد فعل الشيء ذاته عندما دوَّن رحلته إلى إسطنبول وقدَّم عنها ملحوظاتٍ شائقة.

حياة حافلة بالأعمال وعصر مخيّب للآمال

قد يجد البعض في حياة رضا تحالفاتٍ مختلفةً وولاءاتٍ متباينةً؛ فهو لم يعادِ العثمانيين في البداية، لكن التضييق اضطره إلى معاداتهم اضطرارًا، ومع الوقت زاد وعيه بخطورة الاستبداد خصوصًا حين عرف الكواكبي، ثم حاول أن يتعاون مع الشريف حسين في ثورته العربية، وشهد أفول حكم العثمانيين وسقوط دولتهم، ووثق في وعود الرئيس الأمريكي ويلسون بحقّ تقرير المصير، وسافر مع وفد المجلس السوري الفلسطيني إلى جنيف؛ ليعرض قضيته على عصبة الأمم، ثم لم تكن تلك الوعود إلا أوهامًا، ورأى بلاده تُقسَّم بمعاهدة سايكس بيكو بين إنجلترا وفرنسا.

لقد كان رشيد رضا شاهدًا على لحظة التحول، لكنها لم تكن لحظةً مبهجةً. وقُدِّر له أن يكون المؤرخ اليومي لوقائع دخول الجنرال الفرنسي

غـورو إلى دمشـق وإقصاء فيصل عنها، ثم اقترابـه من الدولة الجديدة في نجـد، ومحاولتـه أن يتعاون مع آل سـعود لتحقيق أهدافه. وقد توفي رضا وهو عائد من اسـتقبال الأمير سعود في أثناء زيارته إلى مصر، في السيارة التي تقلُّه من السـويس إلى القاهرة، وروايته بوصفه شاهد عيان مهمَّة عن هذه الفترة الحافلة بالتحولات السياسية والتاريخية والاجتماعية.

محمد كُرد علي:
حيادي على طريقته في زمن التحزّب

«وقد ثبت لي أنه ما أفلح في هذه الأرض حزب ولا جمعية، اللهمَّ إلا إذا كان من بعض الشياطين أن اتخذوا من حزب مطيةً لأغراضهم الخاصَّة، يصلون على متنها إلى المراتب والمكاسب»

محمد كُرد علي

يتناول محمد الناصر النفزاوي حياة محمد كُرد علي (١٨٧٦-١٩٥٣) من زاوية ميوله السياسية في كتابه **محمد كُرد علي: المثقف وقضية الولاء السياسي**. ورغم قِدَم الكتاب؛ إذ صدر في أوائل التسعينيات عن «دار الجنوب» في تونس، فقد برع مؤلِّفه في تتبُّع مواقف الرجل ورصد علاقاته السياسية اعتمادًا على مصادر متنوِّعة، ونجح في استنطاق مذكرات محمد كُرد علي استنطاقًا يبيِّن مدى صدق دعوته إلى عدم التحزُّب.

وأول ما يخطر في الذهن عند الحديث عن محمد كُرد علي هو اهتمامه بالتراث العربي ودوره في «المجمع العلمي السوري» منذ إنشائه إلى وفاة محمد كُرد علي، وقد أنزله هذا الدورُ منزلةً مرموقةً بين أهل الثقافة بسبب إسهاماته في ميدان اللغة وإحياء التراث، وأما دوره السياسي فيحتاج إلى مراجعة.

ابن الغوطة يتعلَّم الفرنسية

وُلد محمد كُرد علي عام ١٨٧٦، وهو العام الذي تولَّى فيه السلطان عبد الحميد الثاني عرش الخلافة العثمانية، في عالم كانت منزلة الدولة العثمانية تتضعضع فيه. وقد تعلَّم الفرنسية والتركية والعربية في طفولته. وفي ذلك الزمن، كانت بعض الأُسر في كل منطقة تحتكر العِلم أو الاشتغال بالأمور المعرفية. ويرى كُرد علي أن هذه الأُسر كان لها دورٌ مهمٌّ في الاستئثار بالمدارس والأوقاف والوظائف الدينية، مما جعلها تقصُر العلم والتعليم على أبنائها احتكارًا لفرص العمل بالتدريس والوعظ والخطابة والإمامة جيلًا بعد جيل. وهو بهذا لا يتبنَّى رأي من يُرجع كل مصائب الشام إلى إرادة تركية شريرة، فهو يلقي بالمسئولية على البيئة الاجتماعية والمصالح المحلية الضيقة أيضًا.

في هذا الجوّ، الذي لم يَرَ الناسُ فيه المشايخ التقليديين أصحاب إلهام، يقتدي الشاب الصغير بالشيخ طاهر الجزائري الذي يعدُّه «في هذه الديار كالأستاذ محمد عبده في مصر».

العمل في الصحافة وبدايات الشهرة

في عام ١٨٩٩، نشرت له مجلة **المقتطف** «شيخة المجلات العربية» كما يسميها، وهو في الثالثة والعشرين؛ تسعة فصول في «عمران دمشق»، فبدأت شهرتُه منذ نشر في هذه المجلة المرموقة.

وقد أغرته هذه الشهرةُ بالسفر إلى مصر في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني عام ١٩٠١، ثم سافر إليها ثانيةً عام ١٩٠٥ ليصدر مجلة

المقتبس، ويقيم في مصر ثلاث سنوات. ثم يقع الانقلاب على السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨، فتخفُّ قبضة الاستبداد على بلاد الشام، ليعود إلى دمشق وينشئ مطبعةً ويصدر **المقتبس اليومي السياسي**، وكذلك **المقتبس الشهري العلمي**، وكان **المقتبس السياسي** أول جريدة يومية صدرت في دمشق.

علاقة متوترة: محمد كُرد علي والاتحاديون (١٩٠٨ - ١٩١٤)

لم يتردَّد محمد كُرد علي في دعم حكومة الاتحاد والترقِّي في الآستانة من خلال مجلته **المقتبس**. وحتى عندما أرسلت حكومة الاتحاد والترقِّي حملةً على الدروز بقيادة سامي باشا الفاروقي، حاول أن يساعد الحملة بالخرائط والتقارير عن تلك المناطق. ولم يكتفِ بذلك، بل هاجم جماعة المحمَّديين المناوئة لحكم الاتحاديين. وأدَّى ذلك -بحسب روايته- إلى أن حاول المحمَّديون اغتياله، حتى إن عبد الرحمن باشا اليوسف -وهو من كبار الاتحاديين- قرَّر أن يرسل ثلاثة من شجعان الأكراد يرافقونه أينما ذهب لحمايته.

لكن مواقف محمد كُرد علي لم تشفع له عند والي سوريا، الذي تقدَّم بشكوى ضده، واستصدر قرارًا من حكومة الاتحاديين باعتقاله؛ لكن بعض العاملين في مديرية البرق سربوا الخبر له، فهرب عام ١٩٠٩ على متن باخرة نمساوية كانت راسيةً في ميناء بيروت إلى باريس. وقضى في باريس فترةً حتى حصل على البراءة عن طريق الآستانة. ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي سيهرب فيها خوفًا من الاعتقال، بل ستتكرَّر عام ١٩١٢ عندما صدر قرار باعتقاله من حكومة الاتحاديين، وهرب إلى

مصـر على ظهور الجمال، وعبر المدن والصحارى حتى بلغ القاهرة بعد أسبوعين.

كانـت ضريبـة العمل الصحفي والاقتـراب من السياسـة هي التعرض للاعتقال والمسـاءلة؛ ولذلك نجد محمد كُرد علي بعد عام ١٩١٣ يتجه إلى البحث. وإذا كان شكيب أرسلان قد اختار في أثناء الحرب الإيطالية الليبية أن ينخرط في تيار في مقاومة الإيطاليين، رفقة صديقه الحميم أنور باشـا، فإننا نجد محمد كُرد علي في عام ١٩١٣ يشـتغل في خزانة الأمير «ليوني كايتاني» في روما شـهرًا كاملًا؛ الأمر الذي عرَّضه لكثيرٍ من النقد بسبب حدَّة المشاعر المضادة لإيطاليا آنذاك.

رئيس تحرير عثماني الهوى في الحرب العالمية الأولى

لن يصمد قناع الحياد الذي سيبدأ في ارتدائه محمد كُرد علي محاولًا التخفي؛ فقد اضطر للعودة إلى ساحة السياسة، حيث خطبت ودَّه حكومةُ الاتحاد والترقّي في بداية الحرب العالمية الأولى، فكتب في الصحيفة ما يدعـم مواقفهـم. ومـع اشـتداد الضغـط علـى حكومـة الاتحاديـن التقى عبد الرحمـن الشـهبندر رضـا باشـا الركابـي ومحمد كُرد علـي، وعرض الشـهبندر الاتصـال بالإنجليـز للتفكيـر في مصيـر الديار الشـامية، إلا أن محمد كُرد علي رفض بحجَّة أن الدولة العثمانية قد تنتصر ويتغيَّر الوضع. وعرَّضه هذا الرأي لسـخرية الشهبندر، وانفضَّ الاجتماع، وتعاهدوا على الكتمان. وأرسـلت له القنصلية الفرنسية -كما يروي- من يستميله ليقف في صف فرنسا، لكنه وقف مع العثمانيين، فسجَّل الفرنسيون هذا الموقف فـي أوراق القنصليـة التي سـيحصل عليها رجال جمال باشـا، فزاد تقدير

جمـال باشـا لمحمد كُـرد علي، وبدأت علاقـةٌ بين الرجلَيـن؛ حيث موَّل جمال باشا محمد كُرد علي وجريدته **المقتبس**، ثم رأس محمد كُرد علي تحريـر جريـدة **الشـرق**، وهي جريـدة كانت تبـثُّ الدعاية لتركيـا وألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى.

ولا نحتـاج إلـى المقارنـة بين مواقف شـكيب أرسـلان ومحمـد كُرد علي؛ فقد كفانا محمد كُرد علي نفسـه مؤنة ذلك؛ حيث قال: «كان الأمير شـكيب أرسـلان من جماعـة أنـور يحميه ويحبـه، وكنت أنا مـن أخصَّاء جمـال باشـا يحبنـي ويحمينـي، والله أعلـم بنيَّـات الاثنين نحونـا، وأنا لا أعتقـد بـأن قلـب أمثالهمـا مـن القلـوب التـي تحـبُّ، ومـا حبهمـا لنا إلا لاستخدامنا في الدعوة لهما وللدولة».

محمد كُرد علي بعد الحرب العالمية الأولى وفي عهد الحكومة الفيصلية

كانـت فترة جمال باشـا قاسـيةً على شـخصٍ يحـبُّ الفرديـة، ويمقت العمـل السياسـي، ويريـد النجـاة بنفسـه ومالـه مـا اسـتطاع، ويتشـكَّك -بطبيعتـه- فـي دوافـع الناس، ويميل إلـى أن يضفي أبعـادًا أخلاقية على مواقف الأشـخاص السياسـية. وكان محمد كُرد علي قد غشيته موجةٌ من الحزن خلال تلك الفترة؛ إذ يقول: «استُعبدتُ مرة واحدة في حياتي، ولا أحبُّ أن أُستعبد مرة ثانية، اسـتعبدني جمال باشا الكبير لأنه حماني، منذ وافى هذه الديار، من دسـائس الدسَّاسين، وأنا أكره الاستعباد مهما كانت صورتـه، ولسـتُ كفوطـة الحمـام أنتقل من جسـم إلـى آخر». وممـا يثير العجب حنق محمد كُرد علي على بعض الشـخصيات التي ذكرت اسـمه فـي التحقيقـات التي أعدَّها جمال باشـا فـي عالية، مع تجاهل المتسـبِّب

الحقيقي في هذه الفوضى السياسية، وما أدَّت إليه من إعدام الوطنيين، وهو جمال باشا.

ولم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها ويتولى رضا باشا الركابي الحكم، حتى اعتزل محمد كُرد علي العمل السياسي المباشر، وشرع في تأسيس المجمع العلمي في دمشق. ويستمر كتاب النفزاوي في بيان تفاصيل العلاقة بين محمد كُرد علي وحكومة فيصل بيانًا متقنًا. ولا بدَّ هنا من إشارة عرضية إلى أن القوم جميعهم، أعني مثقفي تلك الفترة؛ محمد كُرد علي وخصومه، لم يكونوا يجدون في التعامل مع القوى العظمى (بريطانيا وفرنسا أو حتى ألمانيا) أيَّ غضاضة، أي أنهم لم يكونوا يرون في هذا التعامل ما سترى الأجيال اللاحقة من أن ذلك يُعَدُّ خيانةً أو نقصًا في الوطنية. وكي نفهم ذلك، يجب أن ندرك أن تلك كانت فترة سيولة سياسية وانهيار لسلطة الدولة العثمانية بعد قرونٍ من سيطرتها على تلك البلاد، وهي فترة تنازع بريطاني وفرنسي، بل حتى أمريكي، فقد أرسلت أمريكا وفدًا لدراسة فرض الانتداب على تلك المنطقة التي كانت تتشكَّل من جديد، وتبحث عن قوى عظمى تؤيدها. ولم يكن لديهم ما أصبح لدينا اليوم من خبرة تاريخية أدت بنا إلى عدم الثقة بوعود الغرب، وكانوا أول من جرب هذه الكأس؛ فالملك فيصل سافر وهو يظنُّ أن الإنجليز لن يسلِّموا سوريا للفرنسيين، ووثق الكثير من أهل ذلك الزمن بوعود الرئيس الأمريكي ويلسون بشأن حقِّ تقرير المصير.

محمد كُرد علي وعهد الانتداب

كانت واقعية محمد كُرد علي السياسية تفرض عليه البحث عن مصالح مدينة دمشق فقط، فهو غير منشغل بالأحداث السياسية الكبرى. ولقد غضب من توظيف الوالي رضا باشا الركابي بعض الفلسطينيين أو اللبنانيين في بعض الأعمال، فضلًا عن جمعه نخبةً من شباب دمشق لمقابلة المندوب السامي الفرنسي الجنرال غوابيه.

إن صراحة محمد كُرد علي في مذكراته توضّح سذاجته السياسية، أو تبيّن كيف كان ينظر إلى الأمور في تلك الفترة بصراحة دون مواربة، فهو يقول مثلًا: «إن من يعادي إنما يعادي لسبب، وإنه لم يجد سببًا لمعاداة سلطات الانتداب». لقد شعر أنه لم يلقَ من الفرنسيين إلا كل رعاية، وساعدوه في إقامة المجمع العلمي ودار الكتب والمتحف. والحقُّ أن محمد كُرد علي كان ينطلق في تقييمه للأحداث من واقعٍ فرديٍّ، فهو ينتمي -ككلِّ أعضاء الحكومات التي تشكّلت خلال هذه الفترة- إلى جماعة الانتدابيين، الذين لا يرون حرجًا في التعامل مع الفرنسيين. ولا يستغرب المرء أن تكون كلُّ وزارة لا تضمُّ بين عناصرها محمد كُرد علي محلَّ نقدٍ جارحٍ من جهته.

تفكير محمد كُرد علي السياسي

من الملاحظ أن محمد كُرد علي لم يكن من المعارضين لحُكم العثمانيين ولا من المؤيدين له، فقد كان يتجنَّب الخوض في السياسة العثمانية، ولعلَّه حاول أن يفسر ذلك في مذكراته؛ إذ يقول: «العاقل يلزم

السكون عند تبدل الدول». ويفسر الكاتب محمد الناصر النفزاوي حيادية كُرد علي السياسية بأنها تعود إلى أن الرؤى الفكرية والسياسية كانت متضاربةً في هذه الفترة؛ فهي فترة شبيهة بفترة المخاض، وفترة نزاعٍ بين العثمانية والإسلامية والوطنية، وفترة إرهاب وشكٍّ وتعدُّد رؤى قومية ووطنية لم تبلغ مستوى الوضوح إلا فيما بعد.

خلال هذه الفترة، انتشرت الجمعيات السرية والمنظمات، وتمَّ إحياء العديد من الأفكار. وفي فترات النزاع لا تتمكَّن العقول الميَّالة إلى الشكِّ -ومنها عقل محمد كُرد علي- من الاستقرار على ولاءٍ راسخٍ. ومما عزَّز ذلك قلةُ البدائل المتاحة في الساحة السياسية. ولعل هذا ما يفسر وصفه لنفسه بأنه «حياديٌّ غير حزبيٍّ».

هناك سبب ذاتيٌّ يورده محمد الناصر النفزاوي معتمدًا على مذكرات محمد كُرد علي، وهو أن محمد كُرد علي كان يسيء الظنَّ بالساسة والعمل الحزبي. يقول في مذكراته: «كنت أسير على ما يوحيه إليَّ عقلي عندما يُقترح عليَّ الانضمام إلى أناسٍ لا أعرف سيرتهم للمشاركة في مسائل ظاهرها نافع ووطنيٌّ؛ وذلك لأني بلوت الأحزاب وعرفت أغراضها، وأدركت مرامي الجمعيات. ومن فضل الله أنني كنت أقلَّ رفاقي تهوسًا بالحزبية وتهورًا في الإقدام عليها. واجتهادي هذا وفَّر عليَّ أوقاتي ومالي». ونلاحظ ميل محمد كُرد علي إلى التقليل المستمر من دور العامل السياسي الشعبي أو المقاومة في إحداث أثر، فضلًا عن تمجيد النمط الإنجليزي في التغيير البطيء، والخشية من الثورات والتحولات السريعة في المجتمع.

وهو في هذا على النقيض من شخصيات مثل شكيب أرسلان ورشيد رضا، فرشيد رضا حاول الاستفادة من الشريف حسين سياسيًّا، لكن محمد كُرد علي رأى أن ما تمتدُّ إليه يد الناس من صرة الشريف حسين هو ذهب الإنجليز لا ذهب الشريف حسين، وعلى الرغم من أن شكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا حاولا إقامة علاقاتٍ مع حكومة نجد والحجاز لتوظيفها سياسيًّا، فإن محمد كُرد علي كان يرفض إدخال الدين في السياسة في موقفٍ متشدِّد من الوهابية ونقدٍ حادٍّ لحكومة نجد. ثم نجده ينقد في كتاباته جماعة الإخوان المسلمين التي كانت في بدايتها في تلك الفترة.

إن روح العصر تترك أثرها في أفكار المثقفين وحياتهم، ولا يليق بمن يقرأ التاريخ أن يقيم المحاكمات، وأن يُلبس المواقف التاريخية ثوبًا أخلاقيًّا، وأن يكون كالقاضي الذي تُعرض عليه ملفات الأنام ويحكم فيها بمفاهيم الوطنية أو الخيانة؛ فكلُّ مثقف قد تحدوه الشجاعة أو تخونه في بعض الأحيان، والذي يلفت النظر في محمد كُرد علي صراحتُه في تفسير مواقفه. وهو نموذج من نماذج عديدة في تعامل المثقفين مع السلطة مقاومةً أو مهادنةً. ومن اللافت للنظر كذلك أنه لا يملُّ من الدعوة إلى التبرؤ من كل التزام سياسيٍّ، وإلى التمسُّك بالحياد. ومع ذلك، فقد كان بعيدًا كل البُعد عمَّا كان يدعو إليه.

جورجي زيدان:
وصف إسطنبول منذ مائة عام

جورجي زيدان وجزر الأميرات

نستعرض فيما يلي كتاب **الرحلات الثلاث: الآستانة - أوروبا - فلسطين** للكاتب جورجي زيدان. وكان الاهتمام بحالة إسطنبول قد تزايد على أثر الانقلاب العثماني وعزل السلطان عبد الحميد الثاني وإعلان الدستور سنة ١٩٠٨. وتابع جورجي زيدان ومجلته **الهلال** الخبر، ثم فكَّر في أن يسافر بنفسه ليرى ما حدث ويكتب عنه عام ١٩٠٩. ويبدأ جورجي زيدان رحلته بوصف الموقع الجغرافي لإسطنبول، وأقسام المدينة الأوروبية والآسيوية، ويذكر أسماء الضواحي وأهم معالم المدينة. ثم يُسهب في وصف المناظر الطبيعية؛ فعندما يسير في البوسفور على باخرة، يشعر أنه في بحيرة تحيط بها الهضاب المكسوَّة بالخمائل والحدائق، مما يشرح الصدر ويطلق العنان للخيال. ويعتبر أجمل ما شاهده هي مناظر قبيل الغروب وانعكاس أشعة الشمس على زجاج نوافذ منازل الشاطئ الآسيوي، ويبدو أنه أُعجب بمنظر البيوت التي تطلُّ على البوسفور والمناظر الطبيعية في المدينة. وقد دلَّ وصفُ زيدان لنزهات إسطنبول على حبِّه لها، فيقول في وصف الرحلة لجزر الأميرات: «تخترق تلك السفن البحر هادئةً، والهواء يهبُّ عليلًا، والعين تتمتَّع بمنظر

الشواطئ، ومهما يكن من حرارة الطقس في أشد أيام الحر، فإن البوسفور لا يبرح هواؤه منعشًا، وتفضُلُ الصيفية فيه معظمَ مصائف العالم».

المناظر الفاتنة والحواري الضيقة

بينما يصف جورجي زيدان متنزهات المدينة وشـدَّة العناية بالقصور، يتعجَّب من شوارع المدينة ودروبها التي تكاد تكون خرابًا؛ لتقلقُل بلاطها، وقلَّة العناية بإصلاحه، فضلًا عن ضيقها. ويتعجَّب من ضعف الاهتمام بشوارع عاصمة السلطنة، وينتقد مصارف إنفاق الخلافة، ويستدرك: «لكن الآمال معقودة بالحكومة الدستورية أن تعوض ما فات»، ويقصد حكومة الاتحاد والترقِّي. ثم يصف آيا صوفيا وتاريخ بنائها، ويصف مسجدًا اسمه «جامع القعرية»، ولم أستطع مطابقة الوصف مع أيٍّ من المساجد المشهورة حاليًا. واللافت في هذا المسجد أنه كان كنيسة، رُسم على سقفها تصاوير مستوحاة من الكتاب المقدَّس، والصور كثيرة وواضحة، غير أن الصلاة تقام هناك.

جورجي زيدان في مساجد إسطنبول

حرص جورجي زيدان على زيارة معالم المدينة التاريخية ووصفها لقارئ مجلته **الهلال**، حيث قدَّم له نبذةً عن كل مكان زاره، فوصف زيارته لجامع السليمانية، حيث استوقفته فخامة المسجد وضخامته، ثم وصف زيارته لجامع أبي أيوب الأنصاري، وجامع السلطان أحمد، وجامع نوري عثمانية. ثم انتقل إلى وصف قصور المدينة، مثل طوب قابي ودولمه بهجه الذي لم يستطع دخوله بطبيعة الحال؛ إذ كان يسكنه سلاطين الدولة العثمانية إلى ذلك التاريخ.

ويبدو أن أهمَّ معالم المدينة تتمثل في مساجدها وقصور السلاطين والأمراء، فزيارته للقصور تشغل جزءًا كبيرًا من الوصف مثل: قصر جراغان، وسراي يلدز، وقصر جيت، وقصر جهان نما. ويهتمُّ زيدان بالتفاصيل الصغيرة لزيادة التشويق، فعندما يزور غرفة السلطان عبد الحميد يصف بيانو في الغرفة أهداه له الإمبراطور الألماني غليوم [ڤيلهلم الثاني]، ويقول إن خبر عزل عبد الحميد وصله وهو في هذه الغرفة.

مسكن السلطان عبد الحميد

اختار جورجي زيدان في وصفه تفاصيلَ تناسب الصورة النمطية عن شخصية عبد الحميد الثاني. ولا يمكن التأكُّد من صحَّة كل المعلومات التي يوردها، فهو يصف كثرة الخزائن في الدهاليز ويعدُّها بالعشرات، ويذكر أن السلطان كان يضع فيها تقارير الجواسيس، ثم يورد بعض التفاصيل عن مخاوف عبد الحميد التي ظلَّ الكاتب يعتبرها قولًا بلا تحقيقٍ إلى أن زار مسكنه، فتبيَّن له بعد مشاهدة المكان أن السلطان لم يكن ينام على الأسِرَّة، وإنما على رقادة تشبة الشزليون في إحدى غرف القصر. ويذكر مشغل النجارة التي قيل: إنها كانت هواية عبد الحميد.

ويذكر جورجي زيدان أنه وجد في القصر ما يؤكِّد ما اشتهر به عبد الحميد من أنه إذا خرج للصلاة تدرَّع خوفًا على حياته، فقد شاهد الكاتب درعه في بعض الغرف، وهي صديرية من فولاذ مكسوَّة بالكتان الأبيض تُلبس تحت الثوب. وتلفت نظرنا شدَّةُ الرغبة في معرفة خبايا حياة السلطان وتفاصيلها؛ ذلك أن هذه التفاصيل كانت محجوبةً من قبل، وها هي الآن تُكتب في المجلات والجرائد. ولم يكن في إسطنبول آنذاك

متاحفُ تستحقُّ الذكر بالقياس إلى متاحف المدن الكبرى، ولكنها امتازت بآثارها المنتشرة في أرجاء المدينة.

حالة المدينة الاجتماعية والسياسية

عرفت المدينةُ كثيرًا من اللغات؛ فانتشرت بها الإسبانية مثلًا بسبب وجود اليهود، وإلى جانب اللغة التركية وُجدت طوائف تتحدَّث الأرمنية والفارسية والروسية. ويلاحظ جورجي زيدان أن الأتراك هم أهل الدولة، وموظفو الحكومة، وأنهم يوجهون آمالهم إلى أن يعمل أبناؤهم في خدمة الحكومة منذ نعومة أظفارهم، وقلَّما يشتغلون بعمل آخر من تجارة أو صناعة. ويلاحظ زيدان أن اللغة الفرنسية هي أكثر اللغات شيوعًا بين الأرستقراطية التركية، ويصف اشتهار اليونانيين بأعمال التجارة.

أما عن حال المرأة التركية في تلك الفترة، فيصفها زيدان بأنها من أرقى نساء الشرق، ويفسِّر ذلك بقدرتها على القراءة ومجالسة الرجال. ويشير إلى عناية العائلات الراقية بتعليم الفتيات، ويصف ملابس تلك الطبقة، فالمرأة تخرج للأسواق وعلى وجهها منديل أسود أو تتقنَّع باليشمك وهو شاش أبيض.

ولا تخلو ملحوظات جورجي زيدان عن أحوال المدينة من طرافة؛ فهو يقارن إسطنبول بسائر المدن، فيجد مثلًا أن المسكرات أقلُّ شيوعًا فيَ الآستانة مما في سائر البلاد المتمدِّنة، وأهلها أبعد من سواهم عنها، ولا توجد متاجر الخمور إلا في الأحياء الفرنجية كما يقول، ولا تخلو هذه الأحياء من بنات الهوى كما في القاهرة والإسكندرية؛ لكنه يلاحظ عناية الحكومة بالآداب العمومية، مثل منع التحرش من خلال تكليف

بعض الضباط بالتواجد في المتنزهات العامَّة، وهو يتمنَّى أن تنتقل تلك المحافظة على الآداب العامَّة إلى مصر لشدَّة الحاجة إليها وعدم توفرها.

ولا أدري سبب تغيُّر أخلاق سائقي التاكسي في إسطنبول حاليًا، فجورجي زيدان يصف تأدُّب العربجي وسائق المركبة ويصفهما بالدماثة الشديدة، وأن في أهل الآستانة على الإجمال تأدبًا في خطابهم، وظرفًا في عشرتهم، ورقَّةً في كلامهم، ولينًا في طباعهم، ويؤكد تأصل هذا الخلق سواء في الباشا أم التاجر والصانع، أم الكاتب والشيخ والشاب، ويقول: «وقد جربنا ذلك بنفسنا مرارًا، فالعربجي يقنَع منك بالتعريفة ودونها، وكذلك الحمَّالون، وهم منتشرون عند جسر غلاطة للوصول للضفة الأخرى من البوسفور».

أما عن الجرائد، فقد بلغت ستًّا وأربعين جريدةً، وينقل جورجي زيدان أهمَّ أسمائها وعدد النسخ التي تُطبع منها، ولفت نظري أن بعضها، مثل جريدة إقدام، تصل طبعتها إلى عشرين ألف نسخة، وهناك عدَّة صحف عربية ظهرت بعد استعادة الدستور، لكن معظمها توقف عن الصدور بعد فترة قصيرة. ثم يذكر أهمَّ المطابع في المدينة، مثل المطبعة العثمانية ومطبعة أبي الضياء، ويذكر مطبعة اسمها المطبعة العامرة وكان حرفها من خطِّ النستعليق ويصفه بأنه في غاية الجمال، وقد أُقفلت في عهد عبد الحميد، ويذكر الكاتب أنها ستعود للصدور.

وتميل آراء جورجي زيدان إلى تمجيد جمعية الاتحاد والترقِّي والدفاع عن مواقفها السياسية، فهو يرى أن ذهاب ألف أو بعض ألف في هذا التغيير السياسي شيءٌ طبيعيٌّ، فما من دستور إلا كلَّف أهله ألوفًا من الأنفس، ويضرب مثالًا بالثورة الفرنسية ومَن قُتل فيها؛ ولذلك يرى أن

هذا انقلاب سلميٌّ بدأ بمحبَّة وتآلف، ويذكر أسماء أربعة عشر وزيرًا في حكومة الاتحاد والترقِّي، فيضفي عليهم صفات التفوق المطلق، حتى إنني لم أجد له أيَّ نقدٍ أو ملاحظة على أيٍّ منهم.

ولجورجي زيدان تفسيراتٌ موافقة لقناعاته السياسية، فهو يذكر أن لجمعية الاتحاد والترقِّي سطوةً؛ إذ يخافها الكبير والصغير، ثم يفسر ذلك بأن كلَّ مجهول مخيفٌ، وأن أعضاءها لا يخرجون في الآستانة إلا مسلَّحين بالمسدسات وبالحراسة خوفًا على حياتهم. ثم يذكر سببًا آخر لخوف الناس منها، وهو فتكها بمن يحيد عن خطَّة الدستور اغتيالًا. ويسوِّغ الاغتيال بحجَّة الخشية على الدستور، ويقترف الفدائيون الاغتيالات، وهم بعض الأعضاء الجسورين الذين يفتدون الدستور بأرواحهم. فما أعجب التسويغ للقتل السياسي، واستخدام مفردة الفدائيين وما فيها من نبل لوصف القتل السياسي والإرهاب!

إن مرافعة جورجي زيدان عن الحكم الجديد طويلةٌ، فهو يدافع عن كل القرارات الحكومية، ويسوِّغ التتريك واستمرار الأحكام العرفية. وهو يدرك أن الحكم العرفي لا يخلو من استبداد، ولكنه لا غنى عنه للمحافظة على الحرية والدستور كما يرى، ولولا الحكم العرفي لم تبقَ الدولة العثمانية في رأيه؛ ولذلك يطالب بمدِّ أجله؛ لأنه على الرغم من وجوده سَيفًا مسلولًا مسلطًا على الرقاب كما يصف، فإن هناك من يجسر على نظم القصائد المهيجة، ويحتمي بالبُعد عن العاصمة، ولعله يعني قصيدة معروف الرُّصافي التي نشرتها جريدة **المؤيد**، وتنتقد العثمانيين طالبةً المساواة بين التركي والعربي.

نجيب أفندي في تقسيم

لدينا مذكرات أخرى كتبها نجيب أفندي بعنوان: **منظر أوروبا العجيب وملخص رحلات نجيب**، خلال الفترة التي زار فيها جورجي زيدان إسطنبول في عهد السلطان محمد رشاد عام ١٩٠٩؛ إذ يصل نجيب إلى جمارك سيركجي، ويحكي لنا أنه تمَّ توقيفه ساعتين من رجال «البسابورت»، ويقول: «إنه تضايق من تلك الأسئلة الثقيلة المختصَّة بكيفية حضورنا؟ ولماذا قدمنا؟ وكم سنبقى؟ وبأي فندق ننزل؟ وهل نعرف أحدًا من رجال الحكومة؟» كنتُ أحسب عالم العثمانيين منذ مائة عام خاليًا من هذه الأوراق، بل يوضِّح لنا أن إدارة فندق «أوتيل عثماني» تطلب من النزلاء جوازات السفر؛ لأن رجال الشرطة يمرون يوميًّا للنظر في النزلاء، ويتضايق نجيب أفندي من الفندق؛ لأن الناس تشترك في الغرفة نفسها، ويشعر أنه يحتاج غرفة بمفرده، فماذا يفعل؟ يسمع عن منطقة بك أوغلي التي في نواحي ميدان تقسيم، وأنها تمتاز بجودة الفنادق، فيقرِّر الانتقال إليها. يصل هناك ويعجب بالشوارع، ويصف شارع بيرا بالفخيم، ويشرح للقارئ لماذا تمتاز هذه الشوارع بالأحجار الصلدة الشبيهة بحجارة الطوب الأحمر، وسبب ذلك أنها وضِعت بارزة عن بعضها قليلًا لكي تشتبك بها سنابك الخيل وهي تصعد تلك المنطقة المرتفعة، وتجر وراءها العربات وهي تحمل الأثقال العظيمة، فتساعدها تلك الأحجار على الصعود، والطريف أنه منزعجٌ من بعض المصريين الذين انتقدوا شوارع المدينة وقالوا: إنها غير مرصوفة، ولم يفهموا العلَّة أو السِّر؛ لكنه لطولِ مكوثه أدرك السبب.

مدينة ليس كمثلها مدينة:
أنّا ماري شيمل في إسطنبول

«لا أنوي السفر؛ لكن إذا توجب عليَّ، سأسافر إلى إسطنبول»

أورهان ولي

عاشت المستشرقة الألمانية أنَّا ماري شيمل في تركيا منذ عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٩، وقد خصَّت تركيا بجزء من سيرتها الذاتية الممتعة التي ترجمها الدكتور عبد السلام حيدر ترجمة رشيقة. ونراها تتحدَّث بحب وشغفٍ عن إسطنبول، فتستهل حديثها باقتباس أبياتٍ من يونس إمره وأورهان ولي؛ ذلك أن الشعر كان سبيلها الأول إلى معرفة إسطنبول.

في صحبة الشعراء ولقاء مع يحيى كمال

وصلت أنَّا ماري شيمل إلى إسطنبول عبر سفينة بخارية قادمة من نابولي في فبراير/ شباط ١٩٥٢، واستقبلها الشاعر بهجت نجاتيجيل وأوصلها إلى مبنى في «لاليلي» الذي أصبح بعد ذلك فندق «رمادا». وقد أفادت أنَّا ماري من السيدة التي أجَّرت لها الغرفة؛ حيث زادت حصيلتها اللغوية في المفردات اليومية، مثل معجون الأسنان ومظلة المطر.

وهكذا بدا ربيع عام ١٩٥٢ في ذاكرة أنَّا ماري ربيعًا خالدًا، وسرعان ما اندمجت مع أجواء النقاشات الفكرية والأدبية في هذه المدينة. ولقد

اشتهرت إسطنبول بكثرة شعرائها وفنانيها، حتى إن أحد المؤرخين العثمانيين ذكر في القرن السادس عشر، إبان عهد السلطان سليمان القانوني، أن تحت كل حجر من أحجار شوارع إسطنبول شاعرًا. ولا يصدق ذلك بالطبع على المدينة العريقة في عصرها الحديث، ومع ذلك، فقد كانت أنَّا ماري تقابل باستمرار بعض الفنانين الجدد، حيث دأبت على الجلوس في أيام الثلاثاء الشهيرة بمقهى «ماجكه»، ملتقى شعراء إسطنبول، فكانت تستمع إلى النقاشات حول حججهم ضد الشعر الكلاسيكي، وتذكر لنا رواد هذه الجلسة من المثقفين الأتراك (مثل: ياسر نبي، وصلاح بيرسل، وخلدون تانير، والروائي كوجاغوز)، وكانت تجازف بالمشاركة في هذه النقاشات وتدافع عن الشعر الكلاسيكي وتُلقي أبياتًا ليحيى كمال؛ لكن الشباب المتحمِّس يردون عليها بأن هذه الغزليات شيءٌ سهلٌ، ولا بدَّ أن نتألم، ولا يجب الجلوس في أبراجنا العاجية لكي نكتب عن الشمس وعن الورود، بينما الناس من حولنا تعاني وتجوع، فتساءلت ماري: «ألم يوجد أيضًا في عصر هوميروس أو في عصر شعراء الشرق الكبار مثل حافظ أناس جوعى يعانون؟» غير أن الشعراء الشباب المتحمسين كانوا يتجاهلون هذه البراهين.

وتحكي لنا أنَّا ماري كيف أصغت لشاعرها المحبَّب يحيى كمال دون إِن تتنفَّس وهو يرشف كأسًا من الويسكي ويتحدَّث عن التاريخ العثماني، وكانت قد ترجمت قصيدته «رقص إسباني» التي نقل فيها أجواء رقص الفلامنكو الإسباني والحمرة البراقة للجونلات إلى اللغة التركية بعد عمله في السلك الدبلوماسي في إسبانيا، وكذلك قصيدته «موسيقى

الثلـوج» التي كتبها في أثناء سـفارته إلى وارسـو، حيـث يحكي عن حزن مساء شتويٍّ.

وكتبـت أنَّا مـاري مقالاتٍ عن الثقافة الألمانية فـي المجلات التركية، مثل مجلة إسـطنبول ديرجيزي، وكانت تُوقِّعها باسـمها المستعار: جميلة كيراتلـي، وكانت تلتقي الكثير من المثقفين في «غاليري عديلة عودة» في بيـرا، وعندما كانت تنهي عملها في المكتبة تجوب شـوارع المدينة، فهي لا تملـك إلا القليـل مـن المال، فكانت تتعـرف إلى المدينـة، وتصف لنا التعب الشـديد بسـبب أحجار رصـف الطريق، وأرصفة المـارة التي تبدو مثـل سـجادة مرتَّقـة، لكنها تقـول لنا: «إنهـا تمتَّعت بالشـوارع المزدحمة بالناس والقطط».

في المساجد كانت لها أيام و«العرضحالجية» أمام يني جامع

كانت أنَّا ماري تحبُّ زيارة المسـاجد، وقد فُتنت بمسـجد السـليمانية الـذي يبدو كتـاجٍ على رأس المدينـة، وتصف لنا تفاصيل المسـجد على نحـو مدهـش، مـن النقوش إلـى الخـطِّ الذهبي الكبيـر الـذي يتضمَّن آية الكرسـي. وبالقرب من البازار والسـوق المصري الذي لم تزره أنَّا ماري إلا مـرة واحـدة لأنها لم تتعلَّـم المفاصلة قطُّ، تزور جامع يني (المسـجد الجديد) الذي يقع تحت رأس جسر غلاطة، وتحكي لنا مشهدًا عجيبًا من جلـوس عـددٍ وفير مـن «العرضحالجية»، وهم كُتَّاب يقـف أمامهم بعض الرجـال والنسـاء لمـلء الطلبـات والاسـتمارات التـي يحتاجهـا المـرء للبيروقراطية المعقَّدة، أو لإملاء خطاب لأحد الأقرباء، وهو مشهد انتهى الآن في عصر التواصل الاجتماعي.

تشير أنَّا ماري إلى مسجد رستم باشا القريب من المسجد الجديد، وأنه لا يوجد مسجد آخر به مثل هذه الزخرفة الغنيَّة؛ لكن بالنسبة إليها، فإن أجمل مساجد إسطنبول كان مسجد ابنة السلطان سليمان زوجة رستم باشا جميلة ميرمه. والغريب أنها لم تستطع أن تتصادق مع آيا صوفيا، فربما يجب أن يرى المرء المكان في شكله القديم، حيث كان يقف الراهب الملتحي أمام الناس في حفل عيد الفصح، أو فيما بعد والمكان يغصُّ بالمؤمنين الورعين لصلاة عيد الفطر، أما أجمل جزء في آيا صوفيا فهو المكتبة وما تضمُّه من المخطوطات.

تعرفت أنَّا ماري إلى المتصوفة سميحة أويفردي، ومن خلال زيارتها لمنزلها في حي الفاتح ألمت بكثير من تفاصيل التاريخ العثماني وتراث الخط والعمارة، فقد أعطت حلقةُ أبلة سميحة الصوفية وجهًا آخر لمدينة إسطنبول يكاد يكون مفقودًا في ضجيج المدينة الحديثة. وتأخذنا شيمل في جولة أشبه بالجولات السياحية من السلطان أحمد إلى مسجد أيوب الأنصاري -رضي الله عنه- كل ذلك مع ذكر أسماء المثقفين الأتراك الذين التقَتهم، وتنهي جولتها قائلةً: «بأن هناك آلاف الذكريات تمرُّ مثل شريط سينمائي، ذكريات مُرة وحلوة، ولكنها دائمًا تتلألأ على ضوء البوسفور».

كلية الإلهيات في أنقرة

تلقَّت أنَّا ماري شيمل في الأول من نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٥٤ دعوة للتدريس في كلية الإلهيات في أنقرة. وتصف لنا شيمل أجواء الدراسة في هذه الكلية، وكيف كان رد فعل الطلاب عند تدريسهم

الهندوسية؛ حيث رفضوا الأديان الهندية بآلهتها ذات الأذرع الكثيرة، ووجدوا في نظام الطبقات تناقضًا سافرًا مع القرآن من تعاليم للمساواة، وتحكي لنا كيف كان الطلبة المسلمون يُجِلُّون السيد المسيح، وكيف أدهشها إعجابُ الشباب التركي بمارتن لوثر، وقد حاولت أن توضِّح للطلبة أن مارتن لوثر لم يكن محبًّا للإسلام، ألم يكتب: «على كلمتك ثبِّتنا يا رب، ووجِّه موتًا للبابا والترك!».

وقد تعلَّمت أنَّا ماري فنَّ الخطِّ على يد ألب أرسلان الذي كان معيدًا في قسم التاريخ الإسلامي، وتحكي لنا كيف قضت أول شهور عملها في أنقرة مع تخفيض قيمة الليرة، وأنها كانت في رعاية إحدى الأُسر التركية. ورغم تعرفها إلى بعض الشخصيات الألمانية المقيمة في تركيا، فإنها كانت تفضِّل قضاء الوقت مع الأتراك، وتحكي لنا عن بعض التعبيرات في اللغة التركية مثل: «تسلم رجلك التي حملتك إلينا»، أو تلبسه دائمًا في الفرح، وغيرها من العبارات التركية المأثورة. وقد تأثرت كذلك بالعادة الجارية عند سماع خبر الموت أو ذكر أحد الموتى؛ حيث كان الأتراك يقولون: «العمر الطويل لك»، فقد أبهجت تلك التعبيرات قلبها اللغوي. وتحكي لنا عن وجبة عاشوراء، وحفلات الختان، وعن جلساتها مع الجيران، وقد زارتها إحداهنَّ مرةً ورأتها تكتب، فقالت لها: «إنها سمعت خطيبًا في المسجد مرة وهو يقول: إن كل الشر يأتي فقط من الثرثرة مع الجارات».

في الخمسينيات تلك الفترة التي عاشتها أنَّا ماري شيمل في تركيا، توضِّح لنا أنه يمكن للمرء أن يلمس عدم الأمان الذي عانَته نساء الطبقة الوسطى، فهنَّ أصغر من أن يكنَّ قد تربين تبعًا للأسلوب التقليدي،

صغيرات عن أن يكـنَّ قد عاصرن الجهود العنيفة لحرب التحرُّر التركية، لقد كنَّ مثل كائنات عالم بَيني. وتصف لنا كيف كانت الحالة الاقتصادية سيئةً في أنقرة آنذاك، فلم تكن ثَمَّ قهوة، وكانت والدة أنَّا ماري تذهب إلى المحل الصغير وتسأل البائع عن اللبن، فيقول البائع اللطيف بأسفٍ: «لبن يوك!» أي إنه نافد.

فـي هـذه السـنوات، اهتمَّـت الكاتبـة بمحمـد إقبـال «الأب الروحـي للباكستان»، ونشرت عام ١٩٥٧ ترجمة شعرية ألمانية لملحمته الفارسية الكبيـرة جاويـد نامه؛ بل إن الأتراك طلبوا منها ترجمتها إلى اللغة التركية. وقد زارت أنَّا ماري شـيمل تركيا بعد ذلك عدَّة مرات. وفي عام ١٩٩٦، منحتهـا تركيا وسـام الفنـون والعلوم، وحـاول الرئيس سـليمان ديميريل تثبيت الوسـام على صدرها، لكنها لـم تسـتطع تجنُّب التفكير في أن معنى اسمه «اليد الحديدية».

القسم الثاني

سِير ومذكرات

عايدة الشريف: شاهدة ربع قرن

في صباح أحد الأيام، في فرع مكتبة الهلال بطنطا، وجدتُ كتابًا صغير الحجم، على غلافه صورة الأستاذ محمود محمد شاكر يتصفح كتابًا. كان الكتاب بعنوان: **قصة قلم**. وتتناول فيه الأستاذة عايدة الشريف، إحدى زوَّار صالونه الأدبي، تجربة شاكر الحافلة. بعد هذا التعارف الأول الثري، وجدتُ في زاوية من زوايا دار المعارف بطنطا نسختين قديمتين من كتاب بعنوان: **شاهدة ربع قرن** لعايدة الشريف، فاهتبلت الفرصة وخرجتُ مسرورًا بنسخة لي ونسخة لصديقي، وتمَّ التعارف، ووجدتُ في شهادة الأستاذة عايدة الشريف تجربةً جميلةً في مصاحبة رجال الأدب والفن.

لم تكن عايدة تَعُدُّ الكتابة أحد أحلامها يومًا، فقد كان حلمُها الأول في الحياة أن تكون رسامةً، رغم أن ما رسمته من ملامح شخصية لكثير من رجال الأدب لم يُبعدها عن الرسم ولا عن الفن. وأما حلمها الثاني فأن تكون قريبةً من عالم الطيور، فقد كانت شديدة الشغف بكل ما يخص الطيور، ولعل هذا الشغف المبكِّر يفسِّر لنا عنوان أحد كتبها المعروفة: **الإنسان الطائر**، فهل وجدت عايدة في عالم الفن والأدب تحليقًا من نوعٍ مختلفٍ؟!

سجلت عايدة الشريف ذكرياتها عن ربع قرن عاشته بين أجواء المثقفين والمبدعين. وتستفتح هذه الشهادة بعام ١٩٥٧ وتمتدُّ إلى عام ١٩٨٢،

وقد كتبت عايدة الشريف هذا الكتاب إبَّان إقامتها بالكويت، حيث أتاحت لهـا عُزلتها وما اسـتقام لها من هـدوء الذهن وصفاء البـال الفرصة لإتمام هـذه الصـور الشـخصية المترقرقـة فـي داخلهـا وإعـادة شـحن الذاكـرة بالمواقف.

لعـل النبع الذي فتح لعايدة الشـريف كثيرًا من آفـاق الثقافة هو أخوها يوسـف الشريف، الصحفي المعروف ومؤلِّف الكتاب الجميل **مما جرى في برِّ مصر**، وكذلك الناقد الدكتور محمد مندور، حيث تتلمذت عليه في معهـد الفنـون المسـرحية. وكان منـدور يطلـق علـى عايدة «شـيخة حارة الدنيا»، فقد كانت تساعده في التعرف إلى الناس وتشهد معه المؤتمرات والندوات، فضلًا عن القراءة له عندما ضعف نظره، فضلًا عن بيت والدها العالـم الأزهـري الـذي دأبـت علـى الدخـول إلـى صالونـه طفلـةً تثيـر الضحكات وتشاغب المشايخ والمطربشين.

عثـرت عايدة على روايـة **زقاق المدق** لنجيب محفوظ، التي رشَّـحها لها أسـتاذ اللغة العربية في مدرستها، قبل أن يشتهر نجيب محفوظ ويملأ الدنيـا ويشـغل النـاس، فأحبَّت روايات نجيب وبـدأت تبحث عن أعماله الأخـرى. هـذه الإشـراقة في حبِّ الأدب مـا كان لها أن تكتمـل إلا بدورٍ لمجلة **الآداب** البيروتية، التي تعرفت إليها عن طريق بهاء طاهر الذي كان طالبًا بكلية الآداب آنذاك، ومعه الناقد الشاب وحيد النقاش (شقيق الناقد الشَهير رجاء النقاش، والذي كتب عنه ماهر شفيق فريد).

تحوَّلـت عايـدة مـن **تحت ظلال الزيزفـون** و**ظلام فـي الظهر**، وتركت عالـم المنفلوطـي ومحمـد عبد الحليـم عبـد الله، وجيـل الرومانسـيين

الحالمين، وراء ظهرها مولّية وجهها شطر واقعية نجيب محفوظ ولقطات يحيى حقي، فقطعت عايدة حديثها مع ماجدولين لتتحدَّث مع تشيخوف بما اشتهر به من قسوة التصوير ودقته، وهكذا توازى مع مرحلة بناء الذات المعرفية وجود مجلة ثقافية مهمَّة يكتب فيها كثيرٌ من المثقفين العرب. أضف إلى ذلك الشلَّة الأدبية في بوفيه كلية الآداب، حيث يجتمع يوم الثلاثاء من كل أسبوع: صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي، وبهاء طاهر، ورجاء ووحيد النقاش، وسمير سرحان، وسليمان فياض، وغالب هلسا، وسيزا قاسم، وفي بعض الأحيان شكري عياد بعد الفراغ من محاضراته، وغيرهم كثير من المثقفين الشباب. كانت الأفكار التي شغلت هذا الجيل تجد في يوم الثلاثاء وفي بوفيه كلية الآداب متسعًا لها.

تسجل عايدة في شهادتها فصلًا طريفًا عن ملف زيارة سارتر للقاهرة عام ١٩٦٧، وتكشف عن «عُقَد النقص» التي تعتري مجتمع المثقفين، وكيف تمَّ استقبال سارتر بحفاوة منقطعة النظير كمدافعٍ عن حقوق العرب، رغم أنه لم يعلن ذلك، وكشفت هذه الشهادةُ مدى جهل توفيق الحكيم بأفكار سارتر، فقد كان يَعُدُّ القول بأن سيمون دي بوفوار خليلة لسارتر تشنيعًا على الرجل وعلى الثقافة الفرنسية!

جمعت عايدة -بشهادة الروائي خيري شلبي- بين قوة الشخصية وصلابتها من جهة، وصفاء النفس ورقة الأنثى من جهة أخرى؛ ولذلك كان لها حضورٌ قويٌّ في مجالس الثقافة وصالوناتها؛ كصالون محمود محمد شاكر، وعباس محمود العقاد، ونجيب محفوظ، وكامل الشناوي.

وقد أتاحت لها صداقتُها مع عالم المثقفين أن تقدِّم شهاداتٍ عن تطوُّر الحياة الفكرية لكثيرٍ من المثقفين بعيدًا عن عالم النميمة، بل شهادات عن كواليس الكتابة والقراءة. فقد دلفت إلى صالون الأستاذ محمود شاكر عام ١٩٧١ في لقاء الجمعة، وكانت تستثير دفين ذكريات الأدباء والفنانين، كالذي تستخرجه من صاحب **قنديل أم هاشم**، يحيى حقي، عن تاريخ الأوبرا والرواية والقصة وعطر الأحياء الشعبية. ولعل في كتاب عايدة الشريف **قصة قلم** ملمحًا من ملامح الوفاء في علاقتها بشيخ العربية محمود محمد شاكر، فكم قصَّر تلاميذ الشيخ في ذكر حياته والتنويه بأعماله، إلا ما كان من صاحبه يحيى حقي الذي ما فتئ يذكر فضل شاكر عليه في إذاقته حلاوة العربية وإيقافه على أسرارها ودقائقها.

كان محمود شاكر من أنقى وأصدق ما في تاريخنا الثقافي خلال هذا القرن، ولعل هذا النقاء والصدق والمعرفة الجادة في حياة الرجل قد أورث كلَّ من كان قريبًا منه ملامحَ من هذا النقاء والثقافة، فلم يكن الرجل مسئولًا يُلتَمس القربُ منه رجاء تحصيل منفعة مادية أو أدبية، ولكنه مثقف حقيقيٌّ وعالِمٌ مهموم بشئون أمته. وأحقُّ ما يقال عن محمود شاكر ما قاله هو نفسه عن أستاذه الرافعي في مقدمة كتاب **حياة الرافعي**: «لقد صار [شاكر] ميراثًا نتوارثه، وأدبًا نتدارسه، وحنانًا نأوي إليه».

ولعايدة نصيبٌ من خصلة الوفاء، في تذكُّرها أستاذها ورجالات الثقافة في ربع قرن من تاريخنا الثقافي؛ فإن أيَّ ثقافة في أيِّ مجتمع تقوم على أعلام ورموز وظروف، وفهم حياة هؤلاء الأعلام مقترنًا بالظرف التاريخي يفتح لنا بابَ الوعي بالتاريخ الثقافي والمجتمع في شريحة من أهم شرائحه.

صلاح نيازي:
غصن مطعَّم بشجرة غريبة

جذبتني غرابة العنوان وترشيح صديق أثق في ذائقته الأدبية، فقرأت الكتاب وشدَّتني كثافته؛ إذ طوى فيه الكاتب العراقي المغترب في لندن مائتي صفحة من التجارب الحقيقية والصادقة.

ولد صلاح نيازي في مدينة الناصرة عام ١٩٤٥، وحاز على ليسانس الآداب في جامعة بغداد حيث درس على طائفة من الأساتذة الممتازين مثل: نازك الملائكة، وعبد الواحد لؤلؤة، وعلي جواد الطاهر.

يصف نيازي في سيرته بلغة شاعرية مدينة الناصرة التي قضى فيها طفولته، ثم يأخذ القارئ ليعرِّفه إلى بغداد، ويصف لنا أجواء الجامعة، ولحظة ميلاد الشعر لديه، وإلقاءه قصيدة على الطلاب بعنوان: «العانس». ويلخِّص رحلته مع الشعر في مرحلة الجامعة في أنه وجد العزاء في أحمد شوقي، وذلك لما تمتع به أمير الشعراء من نفَس الأبوَّة؛ فأحسَّ معه بالأمان. أما ناظم حكمت، الشاعر التركي، فقد قرَّبه من كل ما هو يومي. وأما موضوعات شعر إيليا أبي ماضي، فكان لها تأثيرُ شيءٍ طارئ جميل.

ويصف نيازي لقاءه بزوجته الروائية سميرة المانع قائلًا: «تعرَّفتُ في الكلية على زوجتي سميرة المانع، فتكهربت حواسِّي كلها، هي قصيدة فريدة لم أقرأ مثلها جرسًا وعمقًا، نظرة حمامية وثياب مترعة بالسواد،

مترفة بالعواطف، أثمن ما يمكن أن يحلم به غواص. من أين جاءتني ضربة الحظ هذه؟». ثم يتحدَّث عن أخيها الكاتب نجيب المانع؛ صاحب السيرة الذاتية المعنونة: **ذكريات عمر أكلته الحروف**: «حين يتحدَّث نجيب يغمر المقابل بطوفان، فإذا استطاب فكرةً، يصغي كأنه لا يعرف شيئًا، يصغي إصغاءَ جاهلٍ فضوليٍّ».

يحبُّ كاتبُنا **حماسة** أبي تمام ويتذكَّرها بحنين؛ لأن هذا الكتاب أنقذه يومًا ما، فعندما همَّ أحد الجنود باعتقاله، وجد هذا الكتاب في الحقيبة، فظنه قرآنًا وقال: «لن ألمسه، فأنا نجس»، وأخلى سبيله.

وبعد أن فرغ نيازي من دراسته الجامعية، وقع انقلاب ١٩٥٨، فسقط النظام الملكي في العراق، وغمرت الناسَ الفرحةُ مدةً من الزمن، ثم تشنَّجت الثورة وانتفخت أوداجها، وقُتل شقيق كاتبنا في هذه الأحداث عام ١٩٦١. وبعد حركة ١٩٦٣ التي أنهت حكم عبد الكريم قاسم، انتشر القلق وعم الخوف وزاد القمع السياسي في العراق، فطفق كاتبنا يتساءل عن توحُّش هؤلاء البشر: «أحقًّا أنهم من صنع الله؟»

أخبره صديقُه حسين مردان أن وزير الإعلام قال له: «لا نمنع شاعرًا من السفر، ولا نقتل شاعرًا، دم لوركا عِبرةٌ لنا»، بهذه العبارة اتضح له أن الهروب بجلده من العراق أقصى ما يمكن أن يطمح إليه.

يقرِّر الهروب بلا لغة أجنبية ولا مال ولا حتى خطَّة، فقط أمنيته الوحيدة في الوصول إلى لندن، فقد أراد أن يختار موته كما اختار السهروردي موته. كان أشق شيء على نفسه أن يشفي قاتلُه غليله منه، أو أن يموت تحت أقدام سجَّانه مهانًا ذليلًا، ولكن قبل الوصول...

يقف قلبه عندما يُمنع من السفر على الحدود، ويتصل بقريب له يعمل في الجيش، ليخرجه من هذه الورطة، فتُكتب له النجاة. وعندما وصل القطار إلى حلب، تحوَّل إلى «كائن بمئات الحواس، أريد أن أرى، أريد أن أسمع، أريد أن أحلِّق، ولكني تسمَّرت بباب القطار خشية أن تضيع حقيبتي، كم تشوَّقت لتطأ قدمي أرض حلب، أن أشرب ماءها، أن أشمَّ وردها، أن ألمس نباتها، لكنني خفتُ أن يتركني القطار ويرحل».

وبعد رحلة صعبة عبر خلالها من العراق إلى سوريا ثم تركيا ثم ألمانيا وصولًا إلى لندن، شعر أن أوروبا هذه قبر له، وشعر بلذَّة الانتصار بهروبه من قبضة الاستبداد. أحبَّ صوت القطار؛ لأنه يخبُّ بقوة إلى الأمام ويدخل في أنفاقٍ ويبعده عن السجن والاعتقال، لقد أصبح هدير القطار أجملَ من تهويدة أُمٍّ حانية.

إن عنوان رواية جورج أورويل **متشردًا في باريس ولندن** يصلح أن يكون عنوانًا لحياة هذا الشاب في لندن، الذي نجا من خطر الاعتقال، لكنه وقع في سجن الجوع والفقر، في مدينة غريبة تكسوها الثلوج، ووجد نفسه غريب اليد والوجه واللسان، مع لغة لا يعرفها، وبشر ذوي بشرة شقراء وعيون زرقاء.

في حالة شعورية قاتمة، تلحُّ عليه فكرتان كانتا بمثابة طوق النجاة له من الغربة الشديدة: الفكرة الأولى: أن يرى نفسه ناجيًا؛ لقد وُلد من جديد، وقد أعانته هذه الفكرةُ على أن يبدأ حياةً جديدةً. وأما الفكرة الثانية فكانت تتمثل في القول المأثور: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا». هل كان يخطر ببال هذا المغترب الذي أخذ يفكُّ شفرات تلك اللغة أن

يترجم إلى العربية رواية يولسيس لجيمس جويس وهي إحدى كلاسيكيات الأدب الغربي المشهورة بصعوبتها؟ هل كان يدور بخلده أنه سيتقن الإنجليزية ليترجم مكبث شكسبير ويستدرك على جبران وعبد القادر القط بعض أخطائهما في الترجمة؟

يجد عملًا مع مستشرق يساعده في فهم أبيات اللغة العربية وتقريب معانيها، لكنه عندما يلتقي هذا المستشرق يكتشف صعوبة أسئلته ودقتها، فهو يريد منه أن يفرّق له بين معاني جميع الكلمات التي يقرأها أو تطرق سمعه، فطلب من المستشرق أن يسلّمه الأبيات التي يجب أن يقرأها معه في كل لقاء، وذهب يراجع حصيلته اللغوية بكل تواضع، ويراجع فهمه للغة العربية، ليصحبنا في رحلة ممتعة وهو يقرأ مع هذا المستشرق بيت دعبل الخراعي:

كانت خُزَاعَةُ مِلءَ الأرضِ ما اتَّسَعَت
فقَصَّ مَرُّ اللَّيالِي مِن حَواشِيها

في هذا الكتاب تشريحٌ للشخصية العراقية، وكيف عانى من التخلُّص من الاعتداد بالنفس والأنا، وفيه أيضًا تأملاتٌ عن حياة المتقاعدين في لندن ممن سكن عندهم، وفيه تحليل لاقتصاد الرفاه الاجتماعي في لندن خاصة والغرب عمومًا.

- يحدّثنا نيازي عن لقائه بالطيب صالح، وكيف كان يراه يروي أبيات المتنبي في كل مكان، وكيف يستطيع أن يروي قصيدة إنجليزية كاملة من محفوظاته. ومن خلال علاقته بالطيب الصالح تعرَّف إلى محمد أحمد محجوب، رئيس وزراء السودان الأسبق، الذي يجتمع في بيته المعارضون

ورجال الحكومة والمؤلفون والشعراء، ويبدأ محجوب القراءة عليهم من ديوانـه، ثم يمرِّر الديوان للجالسـين؛ ولكن مـا إن يصل الدور إلى الطيب صالح، حتى ينتهي محجوب وديوانه؛ إذ تعوَّد الطيب قبل أن يبدأ أن يتلو أبياتًـا للمتنبِّي، فـإذا الحاضـرون على رؤوسـهم الطيـر، فيضع محجوب ديوانـه علـى الـرفّ، ويسـود جـوٌّ مـن الابتهـال بعينـه، ويـردِّدون جميعًـا وبالتنـاوب شـعر المتنبِّي ويثملـون من النَّغـم. لقد تعرَّف نيـازي في هذه الجلسة إلى إيقاعاتٍ مسحورة في شعر المتنبِّي لـم يفطن لها من قبل.

ماذا علَّمني جلال أمين؟

«مـن أنـواع الكـذب الـذي ليـس من السـهل اكتشـافه: هـو أن يكتب أحدُهم عمَّا لا يهمه حقيقةً ويتظاهر فقط بأنه جدير بالكتابة»

جلال أمين

ماذا حدث للمصريين؟

نجح غلاف حلمي التوني الذي رسمه لكتاب **ماذا حدث للمصريين؟** في جذب انتباهي وأنا طالب في الجامعة، فاشتريت الكتاب ولم يخذلني؛ إذ كان بوابةً لعالـم جـلال أميـن. مـن هذا الكتـاب عرفت معنـى الحراك الطبقـي والاجتماعـي، وصعـود بعـض الطبقـات الاجتماعيـة فـي سـلم المجتمع، وتأثير ذلك في الأخلاق والعادات.

فـي هـذا الكتاب وجـدتُ نمطًا مـن الكتابـة كنت أبحث عنـه دون أن أحـدد صفاته قبل ذلـك تحديدًا دقيقًا، نمطًا من الكتابـة يجمع بين المتعة وسلاسـة العرض وأصالة الفكرة؛ ابتغاء فهم حياة المجتمع. كان الكتاب مهتمًّا برصد التحولات التي شهدها المجتمع المصري، وكان من أطرف الفصول التي قرأْتُها الفصل الذي كتبه عن الشواطئ والمصيف في مصر، وكيـف تغيَّرت تلك الأماكن التي يذهـب لها علية القوم، والتي بدأت من الإسـكندرية واسـتمرت في الاتجاه غربًا حتى وصلنا للقرى السياحية في السـاحل الشـمالي. كانـت أفـكار الكتـاب طريفـةً وتشـجِّع الذهـن على

استبصار التغيير. ثم كان أن بَعُد العهدُ بهذا الكتاب، ووجدتُ فيه الآن بعض المغالطات مثل حديثه عن أثر الهجرة للخليج في المصريين، لكن يظل الكتاب لافتًا.

شخصيات مصرية فذَّة وشخصيات لها تاريخ

في الوقت الذي دخلت فيه عالَم جلال أمين، وجدت له كتيبًا صغيرًا في دار المعارف بعنوان: **شخصيات مصرية فذَّة**، وفي هذا الكتاب يتحدَّث عن العديد من الشخصيات من مجالاتٍ مختلفة، مثل الصحافة أو الفن، فجلال أمين ماهر في كتابة المقالة التي تصف الشخصية. يحاول أن يلتقط صفةً مميزةً أو مفتاحًا للشخصية، ويحكي لك عن أثر هذه الشخصية في عصرها. عندها استعرتُ من صديقي كتابه الآخر **شخصيات لها تاريخ**، وفي هذا الكتاب يبدأ بالصحفي أحمد بهاء الدين في فصل بعنوان: «أربعون عامًا من الكتابة الراقية». ومن هذا الكتاب عرفتُ الصحفي والسياسي فتحي رضوان ووقفتُ على دوره بوصفه معارضًا سياسيًّا، ومن الطريف أنني أصبحتُ محبًّا لكتابات رضوان، ولا سيما كتاب **عصر ورجال**. وفتحي رضوان شخصية حيرتني بهذا الرصيد لدى الجميع في مصر، فقد عمل وزيرًا مع عبد الناصر، ثم ترك الوزارة وكتب كتابًا بعنوان: **٧٢ شهرًا مع عبد الناصر**. وكانت تجمعه علاقةٌ وطيدةٌ بالأستاذ محمود محمد شاكر الأديب والناقد المعروف، وكتب فصلًا عن حياة شاكر بعنوان: «الرجل والأسلوب». وكان من روَّاد ندوة العقاد.

ومن جلال أمين فهمتُ أبعاد العلاقة بين السينما والمجتمع، وذلك حين قرأتُ تحليله لفيلم المنسي، فاكتشفتُ زوايا لم أنتبه لها، وهكذا

وجـدت فـي ممارسـاته النقدية عن الكتب والشـخصيات والأفـلام بوابةً لفهم مجتمعي.

هنـا نقطـةٌ يلـزم التوقـفُ عندهـا، وهـي أن جـلال أميـن لا يكتب عن الشـخصيات ليمجِّدها أو يحتفي بها، وإن كان هذا أحد أهدافه مع بعض الشـخصيات المظلومـة التـي لـم تأخـذ حقَّها، مثـل جمال حمـدان. فهو يحمل حملةً شعواء على المخرج يوسف شاهين في وقتٍ كانت الأوساط الثقافيـة تمجِّـد أفلامـه وتبالغ في الحفـاوة بها. وهو مسـتعدٌّ لكتابة فصل كامـل عن شـخصية ليسـأل عن جدوى مـا قامت به مثلمـا فعل مع ثروت أباظة، وهو يتشكَّك في منجزه الأدبي والروائي في فصل بعنوان: «جريرة السـبعينيات». وكذلـك عندمـا كتب عن الموسـيقار محمـد عبد الوهاب بعنوان: «رؤية من اليسار»، وينقد رواية **الخبز الحافي** لمحمد شكري.

وبأثـر من قراءتـي لهذا الكتاب، كرهتُ توماس فريدمان، فما إن يظهر بوجهـه على شاشـة التلفزيون حتـى أتذكَّر هجاء جلال أميـن له. وبفضل هذا الكتاب أيضًا تعرفتُ إلى مارجريت تاتشر التي سخر منها جلال أمين سـخرية لاذعـة. وقد لاحظـتُ أن جلال أميـن يهتمُّ بحياة بعـض الفنانين ويكتب عنهم، مثلما كتب عن ليلى مراد في هذا الكتاب، وسـعاد حسـني في كتابه **شخصيات مصرية فذَّة**.

وكان جـلال أميـن يتمتـع بقـدرة فائقـة علـى مـزج النظريـات العلمية بأوضـاع المجتمـع وأحـوال النـاس؛ فمـن ذلـك مثـلًا أنـه يستشـهد بجوزيف شومبيتر الاقتصادي الشهير وبنظريته عن ربِّ العمل، وذلك في مقالته عن المقاول المصري الكبير عثمان أحمد عثمان، فيربط بذلك بين

ما تلقاه في علم الاقتصاد وعلم الاجتماع وبين حياة المجتمع الذي يعيش فيه. لقد أُوتي جلال أمين من القدرة والبراعة الأدبية ما يتيح له الحديث عن إدوارد سعيد والراقصة تحية كاريوكا في مقالة واحدة.

ومن أكبر مزايا جلال أمين تحررُه من المبالغة في تعظيم الأدباء، مثل نجيب محفوظ، فهو يقدِّر قيمته كروائيٍّ فذٍّ، ولكنه يناقشه في كثيرٍ من أقواله وما يقرره من آراء يُجريها على ألسنة أبطاله.

رحيق العمر أو لماذا تخيب الآمال؟

ماذا علمتني الحياة، و**رحيق العمر**، و**مكتوب على الجبين**؛ كلها سير ذاتية لجلال أمين، وهي ممتعة وجميلة، وتقرأ فيها تاريخه الشخصي وتاريخ البلد. كنت أقرأ **ماذا علمتني الحياة؟** في ليالي الامتحانات الجامعية قبل أن أنام وأنا أعالج توتُّرًا شديدًا من الامتحانات وتفكيرًا في الأسئلة، فأمسك الكتاب وأقرأ فصلًا كاملًا ثم أنام، كانت طريقةً ممتازةً لتحرير النفس من التوتر الذي يستبد بها أيام الامتحانات.

ومن الأسباب التي أضفت على تلك السيرة التي كتبها جلال أمين مزيدًا من الأهمية كون صاحبها ابنًا لأحد كبار الكُتَّاب والمفكرين المصريين خلال النصف الأول من القرن العشرين، وهو الأستاذ أحمد أمين. وقد أورد جلال أمين طرفًا من سيرة أبيه، وذكر أمورًا عن علاقته به ربما يخجل المرء من التصريح بها؛ كإشارته مثلًا، والحسرة تملؤه، إلى إعراضه عن التحدث إلى أبيه؛ إذ يقول: «لا زلتُ أشعر ببعض الألم ووخز الضمير حتى الآن، كلما تذكرتُ منظر أبي وهو جالس في الصالة وحده ليلًا، في ضوء خافت، دون أن يبدو مشغولًا بشيء على الإطلاق،

لا قـراءة ولا كتابـة، ولا الاسـتماع إلـى راديـو، وقد رجعتُ أنـا لتوي من مشـاهدة فيلم سـينمائي مـع بعض الأصدقاء. أحيِّي أبي فيـردُّ التحية، وأنا متجه بسرعة إلى باب حجرتي وفي نيتي أن أشرع فورًا في النوم، بينما هو يحاول اسـتبقائي بأي عذر هروبًا من وحدته، وشـوقًا إلى الحديث في أي موضوع. يسـألني أين كنت؟ فأجيبه، وعمن كان معي فأخبره، وعن اسـم الفيلـم فأذكره، كل هذا بإجابات مختصرة أشـد الاختصار، وهو يأمل في عكـس هـذا بالضبط. فإذا طلب مني أن أحكي له موضوع الفيلم شـعرتُ بضيـق، وكأنـه يطلب مني القيـام بعمل ثقيل، أو كأني وقتـي ثمين جدًّا لا يسمح بأن أعطي أبي بضع دقائق».

إن كتابـة جلال أمين قادرةٌ علـى أن تمتعك وأنت ترى وصفه الجميل لمباهـج الحياة في لنـدن وهو طالب في كلية الاقتصاد، أو وصفه لزوجته الإنجليزيـة وحيـاة أهـل زوجتـه فـي بريطانيـا وغَيرتـه الشـديدة وإصابته بالاكتئـاب، أو وصفه الحيـاة في الكويت وحياة التـرف والدَّعة وكراهيته لأنماط الاسـتهلاك في الخليج. وفي سـيرته ينهي الكتاب بسـؤال حزينٍ: «لمـاذا تخيـب الآمال في حياتنـا؟» يقارن فيه كيف كانـت الآمال معقودةً علـى كثير من الأشـياء والأحداث بل حتى الأشـخاص ثـم كانت نهايتهم باهتـة أو باردة، ويفسـر ذلك بأننا كبشـرٍ نبالغ جدًّا فيمـا نريده ونطمح إلى تحقيقه، وإذا كنَّا نبدأ بالطموح الزائد عن الحدِّ، فما الذي يجب أن نتوقعه سوى تعرضنا لكثير من خيبة الأمل؟

عارف حِجَّاوي وحياته

في الإعلام وزبدة الشعر

«ولا أقول: إنني ضيَّعتُ عمري في حبِّ اللغة العربية ومحاولة خدمتها، فأنا متيقن من أنها أداتنا الوحيدة للنهوض المعرفي، والعلمي خاصةً. ولو قُيض لي أن أعود شابًّا في العشرين لاستفرغت جهدي كله في خدمة اللغة العربية»

عارف حِجَّاوي

عارف حِجَّاوي إعلامي مميز نعرفه بصوته الشجيِّ ذي التلوين الصوتي والأثر الدرامي. بدأ عمله مع قناة الـ (BBC)، وكتب نصوص نحو ثلاثمائة برنامج قصير، وراجع نصوص بضع مئات من الوثائقيات، وبلسان هذه الخبرة المحصورة في هذا المجال يتكلَّم. صدرت هذه السيرة عن الدار العربية للعلوم، فاهتبلتُها بلغتها الجميلة شديدة العذوبة وأسلوبها الشائق، فهو يجلس ليكتب سيرته وهو يقرع باب الستين، ويلتفت وراءه فيرى ريحًا عاتيةً تسرع نحوه؛ ولذلك يحمل معه قدرةً على اكتساب مهاراتٍ جديدة. يحكي عارف قصة أيامه بأسلوب أدبيٍّ بارع وبلغة رشيقة، فهو يحيل المواقف إلى قصصٍ قصيرة وحكاياتٍ، فلا يملُّ القارئ كأنه يشاهد فيلمًا وثائقيًّا ممتعًا.

يحكي عن جدّه حائك الملابس العربية، وكيف تحوّل مع رياح التغيير إلـى خياطـة البدلة الإفرنجية، وكيـف وجّهه جدُّه إلى الهواية الفلسـطينية المفضّلـة: التعليـم أو ما يسـميها الكرتونة. ولعل طريقـه المعرفي بدأ في طفولتـه بهوايتـه الأثيـرة: التفـرج علـى الصـور الكثيـرة التـي حفلـت بها المجلات، مثل مجلة العربي، وكيف سأله جدُّه عن الدراسة في الجامعة، فأجاب بأنه لا يريد الذهاب إلى الجامعة، مجيبًا جدَّه قائلًا: لأنني أريد أن أتعلَّم. علَّمته المدرسة أنها لا تعلِّمك شيئًا، إلا إذا أردت أنت أن تتعلَّمه، تعلَّم كثيرًا من الكتب وقليلًا من المعلِّمين.

تسـتمتع في سيرته بمحاورته الذاتية وتشكيكه في جدوى ما يقوم به، ولعل قلقه هو أن يكون في الوسـط، فلا هو جاهل أخرق يؤدي ما يُطلب منـه، ولا مُبـدِع خلاَّق -بمقياس نفسـه- يعيش حياته صاعدًا. يتهم نفسـه بأنـه يخادعهـا بالعمل منذ أربعين سـنةً فـي الإعلام والأخبـار والصحف والإذاعـات والتلفـازات، ولعـل مـا أراد التأكيـد عليه هو قيمـة أن يعرف الناجح قدر نفسه، ويضع هدفًا نصب عينيه ويسير نحوه في خطٍّ مستقيمٍ. فرغـم إتقانـه اللغـة العربية والإنجليزيـة، فإنه لم يكن حِلـس أخبار أو من المهووسـين بهـا، فحتـى يوم الناس هـذا يفضِّل قراءة جريـدة الأمس عن خبـر اليوم، ويقرأ التاريخ بنهـم ولا يتابع الأخبار. هذه المحاورة الجميلة عن معنى النجاح ومراجعة النفس بقسوة يشعر القارئ معها بقرب الكاتب منه وبالأُلفة معه، فهو لا يتفلسـف على رأس قارئه بقدر ما يبين عن نفسـه بصدقٍ بسبب غرامه بالاعتراف بمواطن قصوره.

وهـو بالإضافـة إلى ذلك ليـس أكاديميًّا، فـلا يريد أن يعـرف العوامل السـبعة التي أدت إلى نشـوب الحرب العالمية الثانيـة، ولا يريد أن يحلِّل

التاريـخ. فالتاريـخ عنـده قصـة، والعلـوم الاجتماعيـة كلها قصـة، وأحد أسباب جمال سيرته أنها قصصٌ وحكاياتٌ.

يستطرد عارف حجاوي في سيرته ليحكي قصة إعلاميٍّ آخر هو أندرو مـار، يحبـه عارف ويحبُّ ما يقوم به أندرو وعملـه في الـ (BBC)، وكيف أنـه في شـهر مايو/ أيار مـن عام ٢٠١٤ كان أحد ضيـوف برنامجه رئيس الوزراء ديڤيد كاميرون، وفي ختام فقرته قال له أندرو مار: «رئيس الوزراء، رئيس الوزراء معذرة، اسكت، أدركنا الوقت». وكلمة اسكت ترجمة غير دقيقة، فهي بالإنجليزية «شـت أب»، التي تقع في مكانٍ ما بين «اسـكت» و«اخـرس». وكان ردُّ رئيس الوزراء المسـكين: «المعـذرة، فقد أطنبتُ». وجـاءت للبـي بـي سـي سـتٌّ وعشـرون شـكوى مـن المذيـع. وكان ردُّ المحطة: «ليس في الأمر قضية».

يمـدح عـارف حجاوي كتـاب **تاريـخ العالم** لأنـدرو مـار، مقارنًا إياه بكتب أخرى تهتمُّ بالتاريخ العالمي. وحِجَّاوي قارئٌ نَهِمٌ، وهو ما يتضح من الكتب التي يستشهد بها. وعندما شرح إنتاجه الضخم في الإذاعة في فتـرة مـن حياتـه، علَّل ذلك بالقـراءة المتوحشـة التي لـم يقطعهـا يومًا في حياتـه، ومـا زال يخلد إلى **كتـاب الأغاني**، وهذه ثالث مـرة يقرأ فيها هذا السِّـفر الضخـم الذي يقع في أربعة وعشـرين جزءًا. فهل تـراه ينفق جهدًا لكـي يكتـب حلقة إذاعية عـن جرير أو الفرزدق؟ وقُل الشـيء نفسـه عن بيتهوڤن وموتسارت.

والرجـل عاشـق للموسـيقى، وهـو يعـزف العـود، وقد قدَّم عـددًا من السلاسل القيمة عن الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية، وإذا كنت لا تهوى

بيتهوفن ولا كارمن وكسارة البندق، فقد تقع في حبِّ مقدمات هذه السلسلة الكلاسيكية بسبب تقديم عارف الجميل لها؛ إذ إنه يقدِّم فقراتٍ نثريةً مكتوبة بإتقانٍ مبهر ينوِّر الذهن ويمتع الروح باللغة قبل الموسيقى، إنه مفتونٌ بجرس الكلمات يتذوقها بحلاوة قبل أن يقدِّمها لك.

وفي سيرة عارف حديثٌ عن بريطانيا التي قضى فيها أحد عشر عامًا، حديث يفسره تفسيرًا طريفًا بأنه مثل أي هندي، أو جامايكي، فتح عينه على عالم يقوده البريطانيون، حتى لو انحسروا في بلدتهم وانسحبوا من الإمبراطورية، لكن يبقى «أن القط لا يحبُّ إلا خنَّاقه»، وعقدة المغلوب، ويصكُّ مصطلحًا جديدًا، هو «الانضباع» من تبعية حيوان الضبع؛ إذ يجده أقوى من كلمات مثل الاستلاب والاغتراب، أن تركض خلف القوي المسيطر وأنت فاقد السيطرة على روحك.

يصف عارف نفسه دائمًا بالكسل رغم ما يقدِّمه، ويستشهد في سيرته بمواقف طريفة، مثل حلاقة أهله لذقنه في الكرسي الخلفي في السيارة حينما توجَّه للزواج؛ لأنه كان يعمل في ثلاث جرائد. في سيرة عارف صدقٌ، فهو لا يخجل فيما يكتب من إظهار نزعات النفس مثل حب الذات والثقة بعبقريته التي يصفها بالزائفة، وذلك الوصف القاسي والتلميح لكثيرٍ من معايب النفس، مثل أن يفهم القارئ أن الكاتب يتعالم ويتفاصح عليه، فهو ينفي صناعة صورة للذات غير واقعية.

وفي السيرة مسحةُ حزنٍ يصل في بعض الأحيان إلى حدِّ التشاؤم، وتواضع وتقليل من قيمة كثير من الأمور، واعتراف بالهوى والكسل وخيبة الأمل في القارئ قبل الكاتب، وفي الإعلام وفي الناشرين. وفيها

أيضًا نغمة الرثاء على ضياع العمر وسرعة الزمن؛ فقد كان به هوى للغناء وتعلُّم المقامات، وهوى لتعلُّم الخط، وولع بصحبة الكتاب، ومع بلوغ الستين لم يعد لـ«لو» معنى. وقد يكون هذا هو طبع الدنيا النَّكد وعدم الكمال، وقد يكون أثرًا من مزاج الكاتب. وما أحب أن ألمح إليه هو أنني استمتعتُ بهذه السيرة في كل مزاجها حتى العابث منها، ولعل الغريب أنه رغم هذا الجهد الحياتي يتسلَّى في حياته بالعبث، وينتقم من نفسه ومن قدَره بأن يحمل الأشياء على محمل الهزل.

ولعله تزوج كي يقصَّ على زوجته بطولاته، فتُريه أنها تصدِّقه. أما المرأة في رأيه فتتزوج لسبب لا يعلمه، ثم إنه بعد ثلاثين سنة خدمة في هذه المؤسسة ألين عريكةً وأكثر خروفيةً (على حدِّ وصفه) أن يقول كلمة في هذا الشأن، وغاية الأمر حسن الختام، ثم إنه نسويٌّ مدافع عن حقوق المرأة.

مشروع العمر

يتمتع عارف بذائقة رفيعة، وآية ذلك مشروع العمر أو موسوعة الزبدة كما يحلو له أن يسمِّيها، وتفصيل هذا المشروع أنه توجَّه لعرض الشعر العربي القديم للقارئ المعاصر في ثوبٍ لائقٍ. وقد حدَّد ستين شاعرًا من الجاهلية إلى خمسينيات القرن العشرين رأى أنهم سادة الشعر وعبيده، امتلكوا ناصية القصيد امتلاكًا، وأخذ يؤلف عن كل شاعر منهم كتابًا.

سلسلته عن الشعراء تتضمن مختارات أحمد شوقي، فقد قرأ شعره وانتقى مختاراتٍ من المجلدات العشرة، وعدد صفحاتها أكثر من أربعة آلاف، وكذلك مختاراته عن البحتري، صرف فيهم ماء العين وبذل فيها من

الوقت والجهد ما أتاح له إخراجها على أفضل هيئة. ولعل علاقته بالمتنبّي تبدأ منذ قرأ **ديوانه** وهو شاب يعمل في وزارة الدفاع الكويتية في أوقات الملل. ونحن في جيل لا يتاح لذائقة ناشئ الأدب أن تتعوَّد على العبارة الفصيحة ولا اللفظ المعبِّر. وفي **موسوعته** يشرح عارف مختاراتٍ جمعها من دواوين العرب وسهلها لأقوام لا تعلِّمهم المدارس اللغة العربية.

خذ هذا المثال في عمله في **ديوان ابن الرومي**: يضمُّ هذا الديوان ثلاثين ألف بيت، وهو مطبوع في ستة مجلداتٍ كبيرة. قرأ عارف الديوانَ مرة ومرة، ثم استل منه ألفًا وخمسمائة بيت هي نحو خمسة بالمائة من مجموع أبياته، وهي زبدة الزبدة، ثم شرح كل بيت بسطر تحته، فما أقيمَ هذا العمل!

قرأت مقدمته لفصل المتنبّي في كتابه **تألق الشعر**، فوجدت الكتب التي تحدثت عن المتنبِّي مهضومةً في ثلاثين ورقةً، فيها زبدة الدراسات عن المتنبِّي مع ملحوظاتٍ ذاتية ذكية، توقد الذهن وتشرك القارئ في عملية القراءة والتحليل. وطريقته في الكتابة ودودة، فيها تفاعل، وتخاطب القارئ. فعلى سبيل المثال، يقول: «لا تذهب إلى الصفحات الآن، فثمة أفكار في هذه المقدمة لم تأتني إلا بعد كدٍّ، وأريدك أن تسمعها». ولعل ما يميز شرحه كما أوضح في مقدمته لمختارات شوقي: الاجتهاد، والأمانة، والتفاعل.

كتاب أول الشعر

أمامي كتاب لعارف بعنوان: **أول الشعر: عصارة الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي**. وقد سرَّني أن أطَّلع عليه مخطوطًا قبل أن يذهب إلى المطبعة، فتحمَّست له وتعلَّمت منه الكثير، ولتعرُّفي إلى هذا الكتاب

قصـةٌ تسـتحقُّ أن أرويهـا وأن يعرفها القرَّاء فيتحمسـوا للكتـاب ويحتفوا بخروج هذا المولود الجديد.

قبل تعرفي إلى شـخص الكاتب والكتاب، اسـتمعت إلى تسـجيلاتٍ من ديوان الحماسة وتسجيلاتٍ لأبياتٍ مختارة من ديوان المتنبّي بصوت عارف حِجَّاوي، فتحمَّستُ لتتبُّع ما يكتبه الرجل ويصدره، ثم كان التعرف بكتابه **أول الشعر**.

فهذا الكتاب أول الغيث، فهو المجلد الأول الذي صدرت بعده كتبٌ ومجلدات أربعة تروي قصة الشـعر العمودي في كل العصور حتى يصل المؤلـف إلى إيليا أبي ماضي في المجلد الخامس. وفي **أول الشـعر** زبدة دواويـن امـرئ القيـس وزهيـر والنابغـة والأعشـى وحسـان والأخطـل والفرزدق وجرير وعمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة. وفيه المختار المنتقى من المعلَّقات العشر جميعًا. وفيه أجمل ما ورد في كتب الأدب الأصول: «المفضليـات» و«الأصمعيات» و«الحماسـة» و«الوحشـيات». وفيه فوق ذلك اثنتا عشـرة قصيدةً وجدها أفلتت من كل ما سـبق؛ ولذلك أخرج لنا مجلـدًا ضخمًـا يضمُّ بضعة آلاف من الأبيات، ومعه مقدمات لكل شـاعر تضع القارئ في جوِّ شـعره. فقد انتقى كاتبه أجمل الأبيات وأقواها لأهمِّ شـعراء ذلـك الزمـن، ولاحـقَ الشـعراء المغمورين بلا كلـل، ناخلًا كتب الشـعر القديم نخلًا، ثم شـرح أشـعارهم شـرحًا يصفه بأنه شرحٌ حقيقيٌّ، ذلك الشرح الذي لا يغشك بتفسير الكلمة السهلة دون الصعبة.

والمشـروع كله يسـتمدُّ قوته الدافعة من الغريزة النمليَّة للكاتب. فمنذ نحو خمس وثلاثين سنةً بدأ يكتب الأبيات الجميلة التي تمرُّ به في دفتر،

وسرعان ما صار الدفتر عشرة دفاتر. ثم سافر إلى لندن للعمل، واصطحب دفاتره. ثم انتقل في العمل من قلم المترجم إلى لسان المذيع، وأخذ يذيع كثيرًا من هذه الأبيات الجميلة في برامج شتَّى، ومضى يختار الشعر الجميل. وزادت دفاتره العشرة دفترين كبيرين.

يتمتَّع كاتبُنا بما يُطلق عليه الغريزة النمليَّة؛ مما جعله يمضي في لملمة الأبيات الجميلة من عشرات الكتب والدواوين. ولم يرتِّب الأشعار في هذا الكتاب بطريقة معينة، ولكنه التزم في الغالب الترتيب الذي في الدواوين، وصنع فهارس بالقوافي، وجعل لكل باب مقدمةً تطول أو تقصر، فهذا الكتاب ليس فقط عن الشعر القديم، بل هو عن عارف حِجَّاوي وعن تذوقه لهذا الشعر، وهو -في تلك المقدمات التي يكتبها- كتاب يُعنى بموضوع «الكتابة الحرة»، حرة بمعنيين كما يشرحهما في مقدمته: أولًا: أنها ليست مُقَيَّدةً بقيد الالتزام بالموضوع، وثانيًا: أنها نابذةٌ للرواسم، أي الكليشيهات. هذه الكتابة التي اصطنعها كاتبها، والتي يبشِّر بها تبشيرًا، هي الكتابة التي تشبه الكلام، ساعيًا عن وعي إلى أن يحدِّثك وكأنك جالس بجانبه، منصرفًا عن رصف الكلمات بمثل ما رصفها كثيرون قبله. ومقدماته لأبواب الكتاب مقصودة لذاتها.

وهو يعرض التراث الشعري القديم بطريقة جديدة شديدة الخصوصية؛ إذ يعرضه عرضًا متخففًا من الصرامة الأكاديمية المضحكة، ويعرضه مَفرَّقًا لا بالجملة، فصاحب الكتاب لم ينسخ لك القصيدة بغثِّها وسمينها، بل انتقى البديع الجميل من أبياتها، وسعى إلى إحكام الربط فيما بين الأبيات ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وكلما أخذ من شارحٍ قديم أو معاصر عبارةً -ولو كانت من كلمتين- أشار إليه. وهو لا يتناول موضوعه

بالتقديس، ولا بالتبجيل، ولا بلهجة المعلِّم الصارم؛ بل بكثيرٍ من العبث والأريحية. ولا يومئ إلى أنه إرثٌ متفوّق على إرث أقوام آخرين.

ومما تميز به شرحُ المؤلف في هذا الكتاب أنه نأى عن طريقة غيره من شروح الشعر قديمها وحديثها، فهي طريقة عتيقة، تناقش مسائل في اللغة، وتغضي في كثيرٍ من الأحيان عن بعض دقائق المعنى. ورغم ما استعان به مما تيسَّر من شروح القدماء، فهذا تفسير من الأصمعي، وذاك تعليق من ثعلب، وهذا شرح مستفيض من الأعلم الشنتمري، أو من صاحب **الأغاني** الذي كان يشرح بعض ما يورد من قديم الشعر؛ رغم هذا، فإنه لم يثقل كتابه بالمراجع والمصادر والحواشي، بل جعله سهلًا ممتعًا غير ممتنعٍ على قارئه ومن يروم خوض لجَّة الشعر العربي.

يؤرق كاتبنا سؤالُ الجدوى والفائدة من جمع هذا الشعر في الوقت الحاضر، ويخلص إلى أننا قد لا نحتاج إلى كتاب **أول الشعر** في بناء نهضتنا؛ لكننا لن نخلع ملابسنا، ولا جلدنا، ولن نريق دمنا. وسنعود لنتصالح مع ماضينا، لكن مع فهم حقيقي له. ولنا بالشعر الجاهلي والأموي صلة، وفي أعماقنا كثيرٌ من أحداث تاريخنا.

إن الشعر يصف الروح العربية والعقل العربي أحسن مما تصفه كتبُ المفكِّرين. ويُمَثِّل عارف لذلك بقصيدة عمرو بن كلثوم «إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ ... تخرُّ له الجبابر ساجدينا»، وأنها حتى لو كانت منحولة، أو كُتبت بعد الجاهلية بمائة سنة، فلا ضير. فهي تمثِّل في رأي الكاتب العصر الجاهلي وقيمه، والذي كتبها جعلها تعبِّر عن روح الجاهلية.

قد تختلف مع الكاتب في أحكامه عن بعض الشعراء أو المساجلات الثقافية في تاريخنا الأدبي، مثل وحدة القصيدة العربية أو كون الشعر الجاهلي منحولًا أم غير منحول، وغيرها من القضايا؛ لكنك ستستمتع بالرحلة معه في عالم الأدب وتراث الجاهلية والعصر الإسلامي والأموي، في أشعار العرب وتاريخهم وقيمهم وحياتهم التي لم يكتبوها تاريخًا بل كتبوها أدبًا.

ولا يخلو الكتاب من هجاء لشرَّاح دواوين الشعر، لكن الكتاب لا يفضح الأسماء، بل يندِّد بتلك الشروح. ومعظم الغضب كان منصبًّا على الأكاديميين المزيفين. ولم ينسَ الكاتبُ توجيه الثناء للمحقِّقين أو المجتهدين وخادمي التراث الأدبي، مثل: محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد محمد حسين، ووليد عرفات، وعبد الرحمن البرقوقي، وفخر الدين قباوة، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، وناصر الدين الأسد، وسيد بن علي المرصفي، وعبد الله العسيلان، وعبد العزيز الميمني، ومحمود شاكر، وشاكر الفحام، وحسن السندوبي، وأحمد شاكر، ومحمد علي طه الدرة، والمستشرق باول شفارتس، والمستشرق كارل بروكلمان، والمستشرق رودلف غاير، والمستشرق كارلوس يعقوب لايل، والمستشرق روكارت الألماني مترجم الحماسة إلى الألمانية. ويغيظه وهو يبحث في دواوين الشعراء القدامى أن كل ديوان منها اكتشفه وسهر عليه أول مرة ثم طبعه أحدُ المستشرقين.

وقد تصالح عارف مع عدم تجارية موضوع الكتاب أو اهتمام الناس به، فكتب في المقدمة: «ليبع هذا الكتاب مائة نسخة، ولتبق النُّسَخُ التسعمائة الأخرى في المخازن. قد عزمت، وقد توكلت على الله». وقد

أحسن الكاتب بتسجيله نصوص الكتاب على أسطوانة مرفقة مع الكتاب ليساعد القارئ على تذوق الشعر وقراءته قراءة صحيحة.

يلملـم الكاتـبُ أشـياءه فـي عمـر السـتين ويهدينا هـذا الكتـاب الذي احتـوى أبياتـه التـي أحبها ودوَّنها فـي دفتره، والكتاب حفل تأبين للشـعر العمودي بكل عصوره من **أول الشعر إلى تجدُّد الشعر ثم تألُّق الشعر** إلى العصر الحديث، وهو سجل حافل بإنجازات الشعر العمودي في تاريخنا الأدبـي، ومـن حـقِّ المؤلـف أن يشـمخ بهذا العمل الدسـم الـذي يحمل عنـوان: **الزبدة**، والشـكر للكاتب على مثابرته في جمـع مادة هذا الكتاب وشـرحها شـرحًا حقيقيًّـا. وثمـة رسـالة كامنـة فـي ثنايـا هذا الكتـاب: لا للتشدُّد، الدنيا حلوة بتنوُّعها.

ولعلـه أراد إفـادة من يريد أن يتخصَّص في الشـعر العربي، أو تسـهيل الشـعر على القارئ الهاوي، لكنَّ هناك سـببًا طريفًا نودُّ ذكره حتى لو كره النقـاد ذلك، وقد صـرَّح به الكاتب في لحظة مصارحـة في الكتاب، وهو إنمـا جمع هذه الأشـعار وراح يُشـكلها ويشـرحها لأنه رجـلٌ حُرَكة. فلا يجلـس فـي اجتمـاع إلا وبيده قلـم يكتب ويرسـم، ثم تمتلـئ الورقة بعد دقيقـة فيصنع منها سـفينة. ويكون في بيته معتـزلًا الناس، وربما لم يخرج منـه يوميـن أو ثلاثة أيام، فهذا حين يقـرأ وينقب تنقيبًا فهو بالأحرى رجل قلق لا يقرُّ له قرار.

من أحب أحلام اليقظة إلى نفس كاتبنا أن يسـكن ديرًا ليس فيه شـيءٌ مـن قلـق الحياة الحديثة وتوتُّرهـا، يعيش فيه وديعًا مسـالمًا، كما عبَّر عن هذا الأمر في إحدى صفحات الكتاب عند حديثه عن الحماسة. وأظن أن

عارف حِجَّاوي قد بنى هذا الدير في هذا الكتاب، وجعل من الشعر العربي مستراحًا من تسارع وتيرة الحياة، فقد أوقف ترنُّم الشعر تسارع دقات الحياة المعاصرة، وجعله يهدأ كراهب في صومعته بعيدًا عن الأخبار العاجلة! في الدنيا ما يشغل العاقل عن الشعر القديم. وحسبُ المتعلِّم أن يعرف قليلًا من خرافاتنا وأدبنا يكون له حبلًا سريًّا يصله بلغته وأمته. ولا حياة لشعب بغير خرافات.

آخر الشعر: رحلة النهاية للشعر العمودي في القرن العشرين

استعرضنا **أول الشعر** وهو المجلد الأول، ونستعرض هنا الجزء الخامس من موسوعة عارف حِجَّاوي التي انتقى فيها عيون الشعر العربي وشرحه شرحًا حقيقيًّا، هذه الموسوعة التي تصلح بأجزائها الخمسة أن تكون تاريخًا للنفس العربية مرويًّا بلسان الشعراء. ولا يتدخل عارف في الكتاب باختياراته وذوقه العالي وشرحه المميز وتعليقاته البديعة فقط، ولكنه يكتب كتابةً حرةً يصف فيها حياة الشاعر وعصره، كتابة مثل الإذاعة تتحدَّث مع من يقرؤها وتخاطبه.

هذا المجلد الأخير **آخر الشعر** هو الأقرب لعصرنا، فمعظم القصائد تتحدَّث عن القرن العشرين. نرى فيه إلياس فرحات يتحدَّث عن مشكلة المرأة في عصرنا، ونرى فيه القصائد الثمانمائة تؤرخ أجمل تأريخ لمشاعر العرب، واختيار عارف لها لأنها من أجمل الشعر ومختاراته من الشعر العمودي فحسب، فأما شعر التفعيلة فلم يختر شيئًا منه، ورغم أن لغة الشعراء قد أصابها الارتباك كما يشير حِجَّاوي؛ لأنهم يطمحون إلى أن تكون لهم فصاحة المتنبّي، فإن زمنهم يجبرهم على أن يقولوا أشياء

كثيرة لا تسعها لغة المتنبّي، وأن يعبّروا عن مشاعر لم يكن يشعر بها أحدٌ في زمن المتنبّي.

الأخطل الصغير

يبدأ الكتاب بمختاراتٍ من «الأخطل الصغير» بشارة الخوري الذي نسمع له اليوم شطر «جفنه علَّم الغزل»، وننتظر الشطر الثاني «ومن العلم ما قتل»، ونقول: الله! تلك المختارات الغارقة في وصف المرأة والتغنّي بجمالها والتي تحوَّل كثير منها إلى أغانٍ، وكان من سوء حظِّه أنه عاش طويلًا بعد أن خمدت جذوة الشعر في قلبه. وكان من حسن حظِّه أن فيروز ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش غنوا له عدَّة قصائد، فظلَّ في البال، وأثار حسد العديد من أقرانه. وهكذا نعرف بشارة الخوري من صوت فيروز وهي تغني «يا عاقد الحاجبين» وأغنية «قد أتاك يعتذر»، وصوت فريد وهو يغني «عِش أنت».

لقد غضب عارف حِجَّاوي على بشارة الخوري، ثم ارعوى وردَّد عبارة «الشاعر بجيِّده لا برديئه». وملحوظات عارف دقيقة، حتى إنه يصحِّح أخطاء المغنِّين في نطق القصائد، والتي ينبهنا عليها مثل شطر «قل لِلدُّجَى مَاتَ شَهيدَ الهوى» بالفتح، والذي يغنيه فريد الأطرش «شهيدُ» بالضمِّ. لم تمُت كلمات بشارة الخوري، فنحن نسمعها بصوت محمد عبد الوهاب وهو يغني «جفنه علَّم الغزل»، وكم أترنَّم بأبياته وهو يقول: «ونَشَدنا ولم نَزَل حُلُمَ الحبِّ والشَّباب.. حُلُمَ الزَّهرِ والنَّدَى.. حُلُمَ اللهوِ والشَّراب». وتجدر الإشارة إلى أن الخوري مدح النبي ﷺ.

الشاعر القروي

ينتقل عارف حِجّاوي بعد ذلك إلى رشيد سليم الخوري المعروف بالشاعر القروي، فيختار لنا أطايب شعره، ذلك الشاعر المهجري الأكثر محافظةً على سلامة اللغة وروح الشعر العربي العمودي، ينقل لنا عارف عبارة قالها القروي: «يكهربني الجمال، وأضحك للنكتة البكر ضحكة ذات جلاجل وأجراس». ويعلّق بقوله: «هذه روح شاعر يحبُّ القفشة البلاغية». والقروي شاعر غضوب يحبُّ الغزل ويسيل رقَّةً، ثم يغضب غضبةً مضريةً في مسائل السياسة، أليس هو القائل عن نهاية عهد السلطان عبد الحميد:

فسادٌ في الدَّوائرِ، واختلالٌ
وظُلم في المحاكمِ، والتِواءُ

وهو سعيد بثورة الشريف الحسين في خروجه على الدولة العثمانية، ويشبهه بهارون الرشيد:

عادَ الرَّشيدُ وعادَ باهِرُ عصرِهِ
سبحانَ مَن بَعَثَ الحُسَينَ لِنَشرِهِ

نرى في شعر رشيد سليم الخوري أحداث عصره، مثل حزنه على وعد بلفور فور صدوره، ومدحه ليوسف العظمة في معركة ميسلون التي اَستشهد فيها العظمة وهو يواجه المحتلَّ الفرنسي بقيادة هنري غورو، وهو يصفه بأنه معيدُ المجد الضائع، وتأبينه للمنفلوطي بقصيدته التي ألقاها في نادي حمص في ساو باولو في البرازيل، ومدحه لسلطان الأطرش عند دخوله السويداء لإنقاذ أسير.

عـاش سـليم الخوري حيـاةً صعبةً فـي البرازيل، فقد حمل «الكشـة»، وهي صندوق من الزنك يملؤونه بمختلف السلع، أو بسطات من الأقمشة تُعلَّـق علـى الكتـف ويتجوَّل بهـا في القرى. ويشـير حِجَّـاوي إلى رجوع القروي إلى بلاده في عام ١٩٥٨، وأنه أيَّد جمال عبد الناصر بقوة، وذلك أيام الوحدة بين مصر وسـورية. وظلَّ يقبض مرتبًا من الحكومة السـورية زمنًـا، وكانـت نهاية حياته في قرية بربـاره بلبنان. ويوضِّح عارف أنه ككل مـن هاجـر قبـل تقسـيم البلاد علـى يـد المسـتعمِر الأوروبي، لم يسـتطع القروي أن يفهـم أبدًا أن لبنان بلد وسورية بلد آخر.

إيليا أبو ماضي يبيع السجائر

ينتقل عارف حِجَّاوي ليغربل لنا ديوان **إيليا أبي ماضي** ويُهدينا زبدته، ويحكـي لنـا عـن حياته وهو يعمل في دكان يبيع السـجائر بالإسـكندرية، ويقرأ شعر شوقي وحافظ الذي كان يملأ الجرائد، ويتهكَّم حِجَّاوي على الأكاديميـن كعادتـه قائـلًا: «فمن زعـم أن إيليا أبا ماضـي كان قليل الحظِّ مـن الثقافـة، فهـو أكاديمي يقيـس الناس بمسـطرة جامعته التـي أخذ منها شهادته، رأى شاعرنا لا يحمل إعدادية ولا ثانوية فحكـم عليه. ولكن إيليا أبـا ماضـي عاش بين العاشـرة والعشـرين في بلـدٍ تنيره مجلـة **المقتطف**، ويعيش فيه شوقي وحافظ».

يمتعنـا عارف بحديثه عن الشـاعر وحياته، وتأتـي المختارات طريفةً، واختار لنا أيضًا إلياس فرحات الشـاعر المهجري، الذي كان أشـبه بشعلة جـرأة. وبسـبب هـذه الجـرأة كان أصحـاب المقـالات يمرون بـه بهدوء مرورهم بجانب سـور المقبرة، يذكرون الاسـم ثم يُغِذُّون السير للحديث

عـن مهجريٍّ آخر كما يصفه حِجَّـاوي، ويلفت انتباهنا إلى قصيدته «حياة مشـقات» فهـي قصيـدة مكتوبـة بالعـرق والجـوع، وقـد ضمَّنهـا خلاصة تجربته في الحياة؛ حيث أنفق فرحات أكثر من عشر سنين يطوف ببضاعته بين الولايات البرازيلية، وإلياس فرحات هو الذي قال للملك فيصل عند شعوره بالخوف من الطائفية:

طَبِّـب بِحِكمتِكَ الشَّـآمَ، فإنَّها
كادت تمـوتُ بِعِلَّـةِ الأديـانِ

في آخر الشعر مختاراتٌ من شعر مصطفى وهبي التل المشهور بعرار، ويسـميه عارف «الشـاعر الذي لم يسهر لقصيدة؛ فجاء شعره مفككًا، فإن رأيـت له قصيـدةً طويلةً فهي مرقَّعةُ الدراويش. وجـاءت قوافيه قلقة، فإن رأيت له قافية صادحة فهذا توفيق، لكن أبياته حارة»، وهكذا نخَل عارف شعر شاعر مُهمَل متصعلِك كعرار وأعطانا زبدته.

ومثلما فعل مع عرار، شاعر الأردن الأشهر، فعل مع غيره؛ فقد اختار لنا زبدة عمر أبي ريشة، وبدائع إبراهيم ناجي، وأبيات أبي القاسم الشابي، ومن الكويت اختار روائع فهد العسكر، ومن اليمن أمتعنا بالبردوني، ولـم ينـسَ بدوي الجبل، وقدَّم لنا إبراهيـم طوقان في حلَّة جديدة، وعرفنا إلى عبد الكريـم الكرمي (أبو سـلمى). إنها رحلةٌ ممتعةٌ تلـك التي أهداها لنا عارف حِجَّاوي.

الكاتب الساخط:

عبد الرحمن بدوي (١)

«بالصدفة أتيت إلى هذا العالم، وبالصدفة سأغادر هذا العالم»

عبد الرحمن بدوي

بهذه الكلمات استفتح بدوي سيرة حياته التي تبدأ بمولده في الرابع من فبراير/ شباط ١٩١٧، قبل اندلاع ثورة ١٩١٩ بعامين، تلك الثورة التي كان يقف من قادتها موقفًا نقديًّا لاذعًا.

طفل من القرية في عهد الملكية

يصحبنا عبد الرحمن بدوي في حياة القرية المصرية ويقصُّ علينا طرفًا من عادات قريته شرباص، ويحكي عن توزُّع أعيان الريف بين حزبَين متنافسَين: الوفد والأحرار الدستوريون. وكان بدوي ينتسب إلى أسرة من الأعيان، تتولَّى منصب العمدة في القرية. ومنذ بداية المذكرات يتضح اختلاف آراء بدوي عن الجوِّ العام الذي كان يكتنف تاريخ المثقفين المصريين؛ فعلى النقيض من موالاة نجيب محفوظ لحزب الوفد، كان بدوي يميل إلى حزب الأحرار الدستوريين، ولا يكتفي بذلك بل يدافع عن «شركة النيل الزراعية»، وهي إحدى الشركات الإقطاعية التي كان يرى أن لها دورًا كبيرًا في تحسين الزراعة في تلك الأنحاء،

وكان كلما وجد فرصةً لنقد ثورة يوليو/ تموز صبَّ عليها جامَّ غضبه، وانتقد قوانين الإصلاح الزراعي التي وزَّعت الأراضي على الفلاحين؛ إذ يرى بدوي أن والده وجدَّه قد حصلا على أراضيهم بتعبهم وجهدهم، ولا يجد مسوِّغًا لقوانين الإصلاح الزراعي التي قسَّمت هذه الأراضي على الفلاحين.

يتغزل بدوي في المنظر الطبيعي في شرباص، فما أجمل حقول الأرز في الصيف طوال النهار، وما أبدع نقيق الضفادع فيها إبَّان الليل كأنها تسابيح كورس مصحوب بنغمات الأرغن؛ هكذا قال، أما أنا فلم أكن أسمع نقيق الضفادع في طفولتي إلا أخذني الخوف، وكانت أجمل الساعات لديه ساعة الأصيل والغروب. وقد أورثته حياة القرية حبًّا للأراضي الزراعية، وميلًا إلى الوحدة، وإيثارًا للعزلة.

ويحكي بدوي عن أنماط الناس في القرية، وعن مولد الشيخ الشرباصي، وعن خرافات المتصوفة، كما يحكي عن طائفة الجوَّالين، وهم طائفة المدَّاحين الذين ينشدون المدائح النبوية، وكذلك شعراء الرَّبابة الذين يغنُّون الملاحم والقصص الشعبية مثل السيرة الهلالية، وكل هذه الطوائف كانت تبعث البهجة في رتابة الريف، وتضفي ألوانًا زاهية على الأرضية الكابية للقرية، وتبثُّ انفعالاتٍ وأحاسيسَ مرتعشةً في أفئدة الصبيان.

لايتكلَّف بدوي مداراة آرائه الصادمة والصريحة، فهو يتكلَّم عن الفلاحين بقسوة شديدة، فيقول: إن التعامل مع الفلاحين ينطوي على مزيجٍ من الأُلفة بحكم المعاشرة، ومن الاحتياط والريبة بسبب مكرهم

ودهائهـم، ويحكـي عن خُبث الفلاح ودهائه وتفنُّنه في السـرقة من مالك الأرض الزراعيـة، ويخلـص إلـى أن الفـلاح المصـري -بـل كل فلاحـي الدنيا- أمكرُ من أيِّ مالكٍ.

المراهقة وتحت ظلال الزيزفون

أثَّـرت رواية **تحت ظلال الزيزفون** التي ترجمها المنفلوطي في نفسـية الفتـى، وكان المنفلوطـي أديـبَ ذلـك العصـر، ثـم قرأ بـدوي **ماجدولين** فعرف اسـم الشـاعر الألماني جيته الذي سيصبح بعد ذلك أعظم الشعراء لـدى بدوي، وتـرك المنفلوطي أثره في وجدان الفتـى، وتعرَّف أيضًا إلى مقالات طه حسـين وأُعجب بها، وكذلك مقالات محمد حسـين هيكل، أما العقاد فلم يكن يشعر بعد قراءته إلا بالبرود والسأم وكان ينفر منه، أما طه حسـين فهو نهر منسـاب في إيقاعٍ عذب رقيق، وكذلك قرأ لجُبران في تلك المرحلة.

وبعـد أن تـرك قريته شـرباص ذهـب إلى مدينة فارسـكور التـي ينعتها بالـمدينـة السَّـمجة؛ لأن أهلها تجار، ثم يقـول: «إن فيهم كل ما في التجار مـن صفاتٍ من اسـتغلال، وكـزازة، وعدم وفاء وغش، ويذكر أن شـوارع هذه المدينة تغرق في الوحل القذر في فصل الشتاء».

وفي سبتمبر/ أيلول ١٩٢٩، التحق بدوي بالمدرسة السعيدية الثانوية في الجيزة، وفي هذه المدرسـة تعرَّف إلى الأسـتاذ حسـن جوهر مدرس الجغرافيا الذي يملك مكتبة قيمة، ومنها تعرَّف إلى كثير من الكتب القيمة مثـل: **نفـح الطيـب** للمقَّـري، و**شـرح سـقط الزند** لأبـي العـلاء المعري، و**الحماسة** لأبي تمام، و**منتخبات البارودي**.

وتعرف وهو في سنِّ الرابعة عشرة إلى بعض قصائد الشعر الإنجليزي، ثـم تعـرف إلى بعض الكتب فـي الأدب الألماني، فقـرأ **آلام ڤرتر** بترجمة أحمـد حسـن الزيـات، ولـم يرُقـه أسـلوب الزيـات الحافـل بالصَّنعـة والمحسِّنات البديعية، ثم قرأ **فاوست** لجيته بترجمة محمد عوض محمد، والعجيـب أنه يقلِّل من قيمـة الترجمات ويقرؤها قراءةً نقديةً بأثر رجعيّ؛ إذ يصفهـا بأنهـا ترجمـات رديئـة، ويذكـر أن هذا مـا دفعه إلـى تعلُّم اللغة الألمانية.

شـرع بـدوي فـي تعلُّـم اللغـة الألمانيـة بمدرسـة راهبـات القديـس شارل بورومييه في حي باب اللوق، فكان يهرب من المدرسة الثانوية في المساء ليحضر دروس اللغة الألمانية، وقد ضربه ناظر المدرسة ذات مرة ظلمًـا وعدوانًا، فكان لا ينسـى هذه الحادثة، وكلمـا حلَّ به ظلم تذكرها، واقتنع بسـفالة الإنسـان، وحماقة تصرفاته، وولعه الشـديد بالقسـوة على الأبريـاء، والخوف من الأقويـاء. أصبح بدوي يرى الدنيـا بعين الضحية، فاللؤم والخسة والنذالة هي الصفات المميزة للإنسان، طبعًا لا يحتاج أن يستثني نفسه، فهو الكاتب، أي المفارق لكل الصفات المدنَّسة.

جئت إلى هذا العالم لكي أعترض

يسـتطيع القـارئ فور مطالعتـه لفاتحة المذكرات أن يقـف على طبيعة بَـدوي المتمـردة السـاخطة، فهـو لا يحبُّ الوفـد ويناصر حـزب الأحرار الدسـتوريين، ويسـخر من سـعد زغلول ويتهمه بالعمالة، ويتهم النحاس والحكومـات الوفديـة بأفظـع التهم ويبرئ سـاحة الأحرار الدسـتوريين، ومـن اللافـت للنظـر أن بعـض الحجـج التـي سـاقها تفتقر إلى الأسـاس

العلمي، بل إنها تتسم بطابع شخصي فج، فإذا أراد أن ينقد سعد زغلول ذكر سيرة والد زوجته وعلاقته بالإنجليز، ثم ينقد محمد عبده ويقلّل من دوره وقيمته، ولا ينجو من حملة النقد والهجوم التي يشنها إلا الزعيم مصطفى كامل؛ لكنه لا يعجب بحال الحزب الوطني الذي تركه مصطفى كامل، ثم إذا ذُكرت ثورة يوليو/ تموز نقدها نقدًا عنيفًا؛ لأنها سلبت والده أملاكه من الأراضي الزراعية.

بدوي في ميونخ

وفي ثلاثينيات القرن العشرين وصل هتلر إلى الحكم في ألمانيا، ويقرأ الشاب المقبل على الجامعة كتاب **كفاحي**، ويقتنع بدعاوى الحزب النازي ويدافع عنه، ويرى أن هذه الأفكار هي السبيل الوحيد لطرد المستعمِر، ويستمر في دفاعه عن آراء هتلر والنازية من خلال القول بأن الحكومات التي سبقت الرايخ الثالث وحكومة هتلر تشكّلت من الأحزاب الضعيفة التي يسيطر عليها الشيوخ واليهود ودعاة الانحلال والفوضى.

ويدخل بدوي كلية الآداب مخالفًا رغبة والده في الدراسة في كلية تخريج الوزراء، أعني كلية الحقوق، فمعظم الورزاء تخرجوا في تلك الفترة فيها، ويبدأ في التعرف إلى محاضرات أستاذه مصطفى عبد الرازق وهو أحد الناجين القلّة الذين رحمهم بدوي من لسانه السليط ونقده الجارح، ويكفي أنه عندما كتب **موسوعة الفلسفة** وضع من العرب نفسه وأستاذه مصطفى عبد الرازق فقط!

في الكلية يُثني على أستاذه لالاند صاحب الموسوعات الشهيرة في الفلسفة وعلم النفس، ويعدُّ أن له فضلًا عليه، فهو الذي بثَّ النزعة العقلية في تفكيره، ووجَّهه إلى مناهج البحث العلمي. وحين أدرك طه حسين حذق بدوي في اللغتين الإيطالية والألمانية، ابتعثه إلى أوروبا على نفقة الجامعة، وهي بعثة لم يكن يُبتعث إليها إلَّا الخرِّيجون وأساتذة الجامعة، فيما كان بدوي طالبًا لم يتخرج بعدُ، لكنه طه حسين الذي لا تقف أمامه شكليات القوانين، فيرسل الفتى إلى أوروبا في يونيو/ حزيران ١٩٣٧.

في المذكرات نجد ولع بدوي بأثينا وحضارة اليونان، وهو محبٌّ للعمارة والمعابد والآثار، ويقف أمامها بخشوعٍ وتأثُّر ويكاد يبكي على أطلالها، ويقرأ شعر الأقدمين أمامها، ويزور روما ويتأثر أيضًا، ثمَّ نصِل معه إلى ميونخ.

يروي لنا بدوي من أنباء حظِّه الحسن عندما شاهد في ميونخ احتفالًا عظيمًا تحت عنوان: «ألفا سنة من الفن الألماني» حضره هتلر وألقى فيه خطابًا، ووقف بدوي على مسافة خمسين مترًا منه، ثم يتحوَّل إلى شاعر غنائيٍّ معجب بهتلر فيقول: «كانت خطبته حافلةً طويلةً، وكان قويَّ الصوت، جليل الأداء، يضغط بقوة على العبارات التي يريد توكيدها».

ويبدو أن نشوته بخطبة هتلر وحماسته دفعته إلى الإعجاب بإحدى الفتيات، وبدأت بينهم قصة حب سرعان ما انتهت بسفر الفتاة إلى الريف، فيكتب بدوي متحسرًا: «فيا لك من حب ما كان أقصر منك عمرًا»، وكتب قصيدة يناجيها بها. ولا ذكر للمرأة ولا الأنثى في المذكرات قبلِ سفر بدوي إلى ميونخ، ولم تلفت نظره فتاةٌ في مصر، وحتى أمه لا يتكلم

عنها. وظلَّ على تعلُّقه بتلك الفتاة، حتى إنه حزن لمَّا ضرب الحلفاءُ ميونخ، وخشي عليها، ورجا لو كان بجانبها يشاركها تلك المحنة.

يدافع بدوي عن النازية، ويشير إلى دور اليهود في حملة الدعاية المناهضة لألمانيا إبان عهد هتلر، ويؤكد أن اليهود لم يكونوا مضطهدين، وهو دفاع ساذج ينمُّ عن ضعف معرفته بتاريخ تلك الحقبة، فمن ذلك مثلًا أنه حين وجد كتب توماس مان وستيفان تسفايج ممنوعةً، سأل عنها أسرة يهودية، فجاءته بالكتب، فاستدل بذلك على أن الحكومة الألمانية لم تمنع هذه الكتب. ما أتعسَ سذاجة الفيلسوف الشامل. ثم يتهم اليهود اتهاماتٍ طويلة تسوِّغ عزلهم واضطهادهم، ولا يجد بدوي غضاضةً في ترديد مقولات النازية في تفضيل الجنس الآري، بل إنه أخذ يترجم أفكار النازية ويرسلها إلى القاهرة لتنشر في سلسلة مقالات لمجلة **مصر الفتاة** في صيف ١٩٣٨، وكان بدوي يميل إلى حركة «مصر الفتاة» لقربها من النازية والفاشية.

لم يُعف بدوي أحدًا من لسانه، بدايةً من فلاح قريته إلى الإنجليز المتكبِّرين وعميد الجامعة الحقود أحمد أمين هكذا وصفه، والعبارات العنصرية تتوزع في الكتاب على التجار والثوار. كنت أقرأ وأنزعج لولا إعجابي بصراحة بدوي وصدقه، إنه يكتب ما يقوله أحدهم في مجلسٍ خاصٍّ ويخاف أن يعلنه في ملأ من الناس.

وللحديث بقية ....

عبد الرحمن بدوي:
الفيلسوف الشامل (٢)

كتب بدوي سيرة حياته وهو جالس في المكتبة الوطنية في باريس، فكان لا يدع شاردة أو واردة إلا ذكرها. والحقُّ أن نمط سيرته توثيقيٌّ من الدرجة الأولى، فحتى حين زار كنيسة نوتردام وصفها لنا وصفًا شاملًا، ولعل في هذا فائدة إضافية بعد أن دمر الحريق شطرها. وعندما ذكر بعض التفاصيل التي تخصُّ المناصب التي تولَّاها لم يتردَّد في ذكر الأسماء صراحةً، مع شنِّ هجوم قوي على أصحابها، وتفسيري لذلك أنه نشر السيرة عام ٢٠٠٠ بعد أن غادر كل هؤلاء الأشخاص مناصبهم وغادر معظمهم الحياة. ويحلو لبدوي أن يصف الجامعة بعبارة طه حسين: «إنهم لا يعملون، ويؤذيهم أن يعمل الناس»، وبالطبع بدوي هو الناس هنا!

كلهم فاشلون وكنتُ المجتهد الوحيد

يعود بدوي إلى مصر بعد رحلته إلى أوروبا ويتخرج في الجامعة، ويقصُّ علينا أخبار صراعاته فيها؛ فهو يشكو أحمد أمين ويسبُّه ويتهمه بالحقد عليه وتعطيل رسالته للدكتوراه، ثم يأخذ هدنة ويسافر إلى بيروت للتدريس فيها. ولا تتوقف اعتراضاته على الحياة العلمية في بيروت، فثمة مؤامرة تدور حوله أينما ذهب: في بيروت يغضب عليه المسيحيون

الموازنـة، ثـم عندما يحكـي تضييقهم عليه يقول للقـارئ: إن التضييق لـم يكن من المسيحيين فقط بل من الشيوخ السُّنة أيضًا. إنها سيرة ذاتية تدور حول ضحية يغار منها الناس، وشـخصية لا تتوقف عن التحصيل العلمي والتأليف.

والحق أن الباحـث لا يكاد يجد مشقة في دراسة حياة بدوي ومواقفه؛ ففي سيرته الذاتية تفصيل لآرائه ليس في المجتمع المصري فقط بل حتى فـي لبنان. ثـم يزور بدوي سـوريا عشـية انقلاب حسـني الزعيم، فيصف أحوالهـا التـي لـم تعجبه، وينتقـل إلى منصب مستشـار ثقافـي لمصر في سويسرا، فيسرد علينا إنجازاته هناك، وما بذله من جهدٍ في منصبه الجديد، ويتحدَّث عن تقاعس بقية الدبلوماسيين عن أداء مهامهم. لا شفاعة عنده لمنصـب مهمٍّ، فحتـى وزير الخارجية محمود فـوزي جاهل ومعتوه على حـدِّ وصفـه. قلـت لنفسـي وأنـا أقـرأ: «لعـل الواقـع سـيئ هكـذا، ولعل الموظفين ضعفاء والوزراء سيئون والأساتذة الجامعيين لا يفقهون شيئًا»، ثـم عـدتُ وقلت: «فهل هناك من يمدحه بـدوي ليتبيَّن لنا الخيط الأبيض مـن الخيـط الأسـود؟ أم أننا نقـرأ فقط خيوطًا سـوداء لـكل الأماكن التي زارهـا وعـاش فيهـا؟» ويصـرح بـدوي بأنه فـي هـذا المحيـط الوبيل من اضطهـاده أو ظلمـه قـرَّر أن تكون قاعدة السـلوك فـي حياتـه: «امتلِئ ثقةً بنفسك وازدراءً للحاقدين»، وقاعدة مثل هذه تجعل أيَّ نقدٍ له نقدًا صادرًا عن حقد! لكنك تبتسم عندما يقول عن الدبلوماسيين: إنهم كانوا يتابعون الجرائـد ليعرفـوا حركة الترقيات؛ ففي يوم من الأيام طلب فتحي رضوان مـن أحـد السـفراء الجريـدة، فقال السـفير: ليس فيها شـيء مهـم! فقرأها فتحي رضوان ووجد خبر استقالة حسين سالم عضو مجلس قيادة الثورة.

وهنا يعلق بدوي قائلًا: «أي خبر مهم هو الترقيات فقط. وهذا الخبر، الذي كان بداية تفكُّك مجلس قيادة الثورة، هامشي في ذهن السفير».

الأسعار غالية، وسياسي حتى النخاع

يكمن تفرد سيرة بدوي في أنه لا يكتفي بذكر حاله في المجتمع الذي يعيش فيه، وإنما يسرد للقارئ حقيقة الأوضاع السياسية والاجتماعية وأحوال الناس كأنه يكتب بحثًا اجتماعيًّا، وينتقل من الخاص إلى العام انتقالًا بارعًا. وثمة معلومة ستبتسم كلما وجدته يكرِّرها في غير موضع، ألا وهي الأسعار؛ إذ يشغل بال فيلسوفنا تبدُّل الأسعار وغلاء المعيشة في العالم، فيقارن مثلًا بين أجرة الغرفة في باريس في عام كذا وكيف أصبحت أضعافًا مضاعفة في عام كذا، ويحكي عن أسعار الطعام وجودته وتوافره. إنها ملحوظات طريفة تجعلك تشعر أن هذا الفيلسوف مثلنا جميعًا تشغله هموم المال والرزق.

وخلافًا لكثير ممَّن اشتغل بالفلسفة والعلوم الإنسانية، كان بدوي يعشق السياسة ويحبُّ المشاركة فيها، يخرج من حزب «مصر الفتاة»، فيعيد مع ثلة من أصحابه إحياء الحزب الوطني الجديد الذي يفشل، فيعدِّد لنا أسباب فشله. ونراه يُعتقل بعد اغتيال أحمد ماهر، ثم يرتبط اسمُه في قوائم الأمن بـ «مصر الفتاة». وفي الفترة الناصرية لا نجد تلك الشجاعة، وإن كان حريصًا على إظهارها في الكتاب. لقد عرف سوء الأوضاع، لكنه عجز عن مواجهتها آنذاك، واكتفى بإثبات بعض العبارات الدالة على الشجاعة بأثر رجعي، إذا جاز التعبير. وهكذا لم يتواضع بدوي ليقصَّ علينا نبأ صمته أو مجاراته للأوضاع، بل يحاول إقناعنا

بمعارضته للنظام (الذي عمل فيه دبلوماسيًّا)، ويريد أن يثبت اختلافه عمن لجأ إلى التقية والمداراة. ترسل الحكومة المصرية رسالةً إلى السفارات في الخارج تطلب رأيها في الوحدة، فيسأله السفير، فيملي بدوي على السفير خطابًا يبين فيه أسباب رفض الوحدة مع سوريا. وليس المثقف مطالبًا بأن يكون معارضًا، لكنه لا يجوز أن يجور على التاريخ فيعتبر نفسه معارضًا وناقمًا وهو في الواقع دبلوماسي لسفارة بلده، فالإنكار القلبي أمرٌ لا يُعتَدُّ به في تاريخ السياسة.

شخصيات عرفتها

من يقرأ سيرة بدوي يَرَ شهاداتٍ عن شخصياتٍ كثيرة عاصرها: يخصِّص فصلًا عن علاقته بالقائد العسكري عزيز المصري. ولا ريب أن هذا الفصل يتناول تجربة هذا القائد تناولًا نقديًّا منذ معارضته العثمانيين إلى سجنه وإطلاق سراحه. ويذكر لنا مواقف تقلِّل من قيمة عبد الرحمن عزَّام، أستاذًا في الجامعة وأمينًا لجامعة الدول العربية. وعندما يرى لويس ماسينيون في بيروت يستيقظ عند الفجر لحضور القداس في الكنيسة لمدة عشرة أيام عندما كان يسكن معه في الفندق نفسه، يتعجَّب بدوي من سلوك هذا الكاتب العظيم وكيف يحرص هذا العقل المليء بِالعلم على أداء الطقوس الشكلية وهو في أصعب الظروف، ثم يقول: «ولله في خلقه شئون»، ونقولها نحن عن بدوي أيضًا الذي لا ينسى أن يعرفنا أن لويس ماسينيون قد غادر الغرفة دون أن يدفع الأجرة لصاحبة البنسيون التي حصَّلته من السفارة الفرنسية في بيروت.

ويصف لنا بدوي يونس بحري ذلك الشخص الذي عاش في برلين وباريس، وكان يحسن الكلام والقراءة ارتجالًا بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية، فضلًا عن طلاقته المميزة في العربية الفصحى. وكان بحري المذيع الأول في إذاعة برلين العربية، وكانت منصةً للدعاية الألمانية ضد الحلفاء، وكانت تعليقاته لاذعةً مستمدَّة من الجناس اللفظي والآيات القرآنية، وكان يتعمَّد الخطأ في ذكر أسماء الوزراء الإنجليز، ويقول عقب ذلك: ع«فوّا، لكن البقر تشابه علينا». ويصف بدوي توفيق الحكيم عندما يلتقيه في باريس في مواقف تقلّل من قيمته، وينعته بالكاتب الصبياني، ويصفه بأنه جاهلٌ تمامًا بباريس.

بدوي الكاتب ذو الشخصية القلقة

تجاوزت كتب بدوي مائة وعشرين كتابًا، ترى فيها تاريخه الفكري. كان كتابه نيتشه الذي صدر في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٩ باكورة إنتاجه، كَتبه بغية تقديم الفكر الأوروبي للقارئ العربي، وسيقدّم كتبًا أخرى من أجل تحقيق الغاية نفسها. ومن الملحوظات الطريفة التي يلفت بدوي نظرنا إليها ما ذكره من أن من الفئات التي أقبلت بشدَّة على قراءة كتابه فئة ضباط الجيش الذين كانوا ذوي تطلعاتٍ سياسية سافرة، ومنهم جمال عبد الناصر وأنور السادات كما صرَّحا بذلك. ولكن أشد هؤلاء الضباط حماسةً للكتاب كان الضابط البطل أحمد عبد العزيز الذي استشهد في فلسطين سنة ١٩٤٨، فقد أخبر بدوي أنه أوصى بأن يكتب على قبره عبارة قالها نيتشه ووردت في الكتاب: «لكي تجني من الوجود

أسمى ما فيه، عِش في خطر!»، وعندما قابل أحمد عبد العزيز بدوي ردَّد أمامه بحماسة جملًا كثيرة من الكتاب.

وعندي أن فضيلة بدوي الكبرى هي الجَلَد في البحث والكتابة والترجمة. نرى على رفوف المكتبة العربية ترجمته لـ **دون كيخوت** التي كتبها سرفانتس وترجمته لـ **فاوست** التي ألَّفها جوته، وكثيرًا من الدراسات والمؤلفات، ونراه في كتابه الكبير **موسوعة الفلسفة** يضع اسمه واسم أستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق بين الفلاسفة الذين ترجم لهم. ويشير الدكتور حسن حنفي في بحثه عن بدوي إلى أنه لا يحيل إلى أحدٍ من أقرانه في مؤلفاته عن الفلسفة وتاريخها، وكأنه أول من كتب في الميدان، ولا يحيل أو يشير إلى الترجمات العربية للنصوص الفلسفية، ويعتمد فقط على المراجع والمصادر الأجنبية. ونرى فيلسوفنا الشامل يشيد بمدرسة الآداب العليا في بيروت لدورها في تحقيق التعاون الثقافي الحر بين بلدان «البحر المتوسط»، دون تسميته العالم العربي.

وبعدُ، فإن أي محاولة لاختصار أحداث حياة عبد الرحمن بدوي من خلال سيرته الذاتية مآلها إلى الفشل لا محالة؛ نظرًا لطول حياة هذا الكاتب العملاق، ووفرة مؤلفاته، وكثرة التفاصيل التي تعرَّض لها في سيرته. عزاؤنا أننا أشرنا إلى بعض الأحداث التي تُظهر كوامن شخصيته، وغرابة أطواره، وسلاطة لسانه.

ياسر عرفات وجنون الجغرافيا

عندما شاهدتُ الوثائقي الجديد عن إدوارد سعيد من إنتاج «قناة ثمانية»، ورأيت عرفات وهو يقرأ في الأمم المتحدة خطابه الذي كتبه محمود درويش وراجع النص الإنجليزي له إدوارد سعيد، تحمَّست للتعرف إلى هذا الرجل والوقوف على ملامح شخصيته، فتناولت كتاب **ياسر عرفات وجنون الجغرافيا**، الذي يسجل فيه مؤلِّفه نبيل عمرو تلك الانطباعات التي تولَّدت لديه من خلال معايشته عرفات عن قرب، ومشاطرته كثيرًا من أيامه المجيدة والبائسة، فيما يمكن أن نصفه تبسيطًا بالحلو والمر.

كان نبيل عمرو وهو يتعامل مع عرفات يحاول دراسة الرجل بكل تفاصيله، وفي ذهنه الكتابة عنه في يوم من الأيام، ونراه يحاول أن يتجنَّب التمجيد والإدانة، ويجتهد في تصوير الرجل تصويرًا موضوعيًّا أمينًا، ثم يقول: «وعرفات كما هو بما يعجبنا أو لا يعجبنا؛ هو رجل مميز، وممتلئ بالمعاني والأبعاد». أما أولوية استحضار الوقائع في الكتاب، فهي للأحداث التي عاشها الكاتب بصورة مباشرة أو شارك فيها نوع مشاركة.

أول التعارف واحتجازٌ في شقة بيروت

كان أول تعارف بين نبيل عمرو وعرفات في القاهرة؛ حيث كان نبيل يعمل في إذاعة صوت فلسطين التي تبثُّ من العاصمة المصرية، وتقابلا

في شـقة أوديون التي يظهر فيها عرفات رجلًا عاديًا يرتدي بيجامة مقلَّمة من قماش الكاسـتور الشـعبي، ويجلس على سـريره حافيًا، وأمامه صينية عليها الفطير المشـلتت بالسـمن البلدي والقشـطة، والخبـز البلدي الذي كان يعدُّه أشهى خبز على وجه الأرض.

وكان عرفـات يسـتعد للقـاء وزراء الخارجيـة فـي الجامعـة العربيـة، فاستدعى نبيل عمرو ليكتب تعليقًا عن الدخول السوري في لبنان، وأراد أن يكون التعليق على تصرفات عبد الحليم خدام في الإذاعة، وطلب منه أن يعـرض عليه النصَّ قبل النشـر، وعندما اطلع عليـه تراجع عرفات عن رأيه، وقرأ نبيل برقيةً في الأخبار مفادها أن عرفات قد صافح عبد الحليم خدام وأن المشـكلة قد تُحل. وهنا كانت البداية، وكان الدرس المسـتفاد أن عرفات لا يهمه صحَّة الخبر من عدمه، وإنما كان يعنيه كيف سيخدمه الخبر.

انتقلـت الإذاعـة إلـى بيروت وسـافر المؤلف إلى هنـاك، وفي بيروت سيتمُّ التحفظ على نبيل عمرو في إحدى الشقق في بيروت، وسيجد نفسه محتجزًا بأمر القائد العام. ويدخل عليه نجم النجوم علي حسـن سـلامة، ويسأله المؤلف عن سبب الاحتجاز، فيرد بأنه لا يعرف، ويصل ماجد أبو شرار ليمطر أبا حسن بوابل من الشتائم وهو يقول: «هل تظنونه واحدًا من زعران بيروت؟ إنه كادر مسئول».

يتصـل ماجـد بعرفات ويسـأله: «مـاذا فعلـت بحبيبك نبيـل؟» فطلب عرفـات أن يأتـوا جميعًا إلى مكتبه، وكان قـرار اعتقال نائب مدير الإذاعة الـذي أمـر بـه عرفات بسـبب خطـأ إداريٍّ قام بـه نبيل في توجيـه خطاب

لعرفـات، وصـرخ عرفات في نبيـل قائلًا: «يخزيـك»، كان عرفات يقول: «لا أحـب التجـاوز، ولو سـمحتُ لكل واحـدٍ بأن يتجـاوز لانتهى النظام وضاع الضبط والربط، ولا يجوز أن نفقد الانضباط حتى لو كنَّا في ثورة».

يوم في حياة عرفات

يصـف لنـا نبيل عمرو كيف يبدأ يوم عرفات، فهـو يخلد إلى النوم بعد الثالثة صباحًا، وغالبًا ما كان يقول في اليوم التالي: «لم أنَم»، رغم المنوم. ويتنـاول فطوره عند التاسـعة، ويسـتقبل في صالون بيتـه بعض الحالات، ويتفقد الطلقات في مسـدس سـميث، ويضع الكوفية المرقطة حين يكون في برنامجه اسـتقبال شخصية رسمية رفيعة المستوى، وفي الشتاء يرتدي قبعـة الفـرو التـي حيـن يرتديها تصبح هنـاك فرصة للحديث عـن الاتحاد السـوفييتي، وعندمـا يملُّ من الأوراق التي أمامه يكـرِّر: «أف، الأوراق لا تنتهـي»، ويـردُّ أحد الجالسـين قائلًا: «مـا دام هناك ثورة، هنـاك ورق، الله يقويك يا ريس». وكان هنالك مختصون في توجيه الأسـئلة المريحة التي تجعل الرئيس يشـعر بالرضا، وهي أسـئلة من نوع: كم ساعة طرت؟ وكم ورقة توقع في اليوم؟ وكم معركة خضت؟ أما عبارة «الضربة التي لا تقتلنا تقوينا»، فهي مقولة كثيرة التداول عند عرفات تتناسب مع كثرة الهزائم.

لبنان الذي تحوَّل من ممر إلى مستقر

يشـرح لنـا نبيـل عمـرو شـعار عرفات وهـو في لبنـان: «لبنـان ممر لا مسـتقر»، لكـن صـدق هـذا الشـعار كان يتراجـع كلمـا جـفَّ الأسـمنت الفلسـطيني المسـلح المنتشـر فـي كل ثنايا البنـاء اللبناني. وأصبـح لبنان

مستقرًا لعدم إمكانية فتح ممر. وإذا كان زواج الفلسطيني أبي حسن من جورجينا رزق ملكة جمال العالم اللبنانية يُعَدُّ شأنًا شخصيًا، فقد بدا أنه تكريسٌ لواقع المقر على حساب شعار الممر. وكثيرًا ما سمع نبيل عمرو عرفات يردِّد حكاية مصرية، عنوانها: «شقة مصرية»، تقول الحكاية: «يعمل المصري في الكويت مثلًا، عاملًا أو مهندسًا أو مدرسًا، يسكن شقة تتناسب مع دخله، يظل يوفر ويشتري ويخزن، حتى تضيق الشقة بما فيها، ويسأل زائر: لماذا لم يعد في شقتكم أي فراغ؟ فيرد الساكن: كل ما تراه هو لشقة مصر». وهذه الحكاية تنطبق على الجهد العرفاتي المستميت، لتقوية وجوده في لبنان. لقد أسس دولة في لبنان دون وجود جغرافيا تخصه منتظرًا العودة لشقة فلسطين.

كان عرفات يعتقد أن إنجاز اليوم هو ألاَّ يُقتَل أحد، وفوجئ في إحدى الليالي بصراع بين أبي العباس وجماعة أحمد جبريل نتج عنه تفجير بناية في الفاكهاني في بيروت. فأخرج عرفات جبريل من بيروت إلى دمشق، وعلَّق الجلساء: «لعل ذلك يثمر فيه»، ويومها ضحك عرفات وقال بعاميته المصرية: «والله يا إخوانَّا ما افتكرش».

عرفات والبعثيان

اتفق التوأمان البعثيان السوري والعراقي في دورة من دورات المجلس الوطني بدمشق في عام ١٩٧٩، وصرح أحد الوزراء العراقيين قائلًا: «إن اتفاق دمشق وبغداد يعني العودة إلى الحل القومي للقضية الفلسطينية، وهذا أفضل ما حدث». وجُنَّ جنون عرفات من هذا التصريح الذي يُعَدُّ بمثابة سحب للبساط من تحت أقدامه، ومحاولة لتهميش دوره، وجال

بنظره في الحاضرين وقال: «هذا يا إخواننا إعلان صريح عن المؤامرة». ويشرح لنا المؤلف في الكتاب كيف خرج عرفات من هذه الكماشة ببراعة، وهو المتخصِّص في إيجاد نقطة وسط بين لا ونعم: «اللعم»، لطالما أحبها عرفات واستخدمها للمراوغة أو للإفلات من استحقاقاتٍ معينة. لقد كان لعرفات موهبةٌ في صنع الفوضى وإدارتها وتوظيف نتائجها لإحكام نفوذه؛ كان الرأس الصغير الأصلع، يحتوي على حاسوب ضخم، ينظِّم السيطرة المباشرة على الفوضى ويحوِّلها لفوائد.

الدخول إلى الجغرافيا الأردنية

يصحبنا الكتاب في تفاصيل نموِّ قوة عرفات في الأردن، وكيف كانت كارثة يونيو/ حزيران ١٩٦٧ فرصةً لكسر درع الملك الحسين، وإطالة رمح عرفات. لقد هيأت النكسة له ولفكرته الثورية مناخًا فريدًا، فبدأت سكِّينه الحادة بقطع قالب زبدة الهزيمة بلا معوقات، وكانت الظاهرة الفلسطينية تنطلق وتمتدُّ وتنتشر، ولا أحد يقوى على أن يقول: «لا» لمسيرتها. ونما جيش عرفات على أرض الأردن، ووُلدت مخاوف جديدة. أقام الثوار حواجز تفتيش في الطريق بين عمان والزرقاء، ولا تستثني نقاطُ التفتيش حُرَّاسَ القصور الملكيَّة. واقتيدت الطائرات التي اختطفتها الجبهة الشعبية من سماء أوروبا لتهبط إلى أرضٍ صحراوية في مدينة المفرق الأردنية، واستاء الملك الهاشمي، واستعادت الأجهزة الأردنية قدرتها على تطويق السلاح الفلسطيني في الأردن، وكانت ذروة العلاقة «أيلول الأسود»، ودعوة عبد الناصر لقمَّة عربية، يقرؤها نبيل عمرو على أنها كانت محاولة لإنقاذ عرفات من قبضة الملك الحسين. ويموت عبد الناصر عقب هذه القمَّة، فيرحل بموته أحد الداعمين لعرفات.

يستعرض الكتاب أيضًا علاقات عرفات بالسعودية وهواه المصري ومشاكله الكثيرة مع حافظ الأسد، ويتحدث عن الأمل الذي انتعش عام ١٩٧٩ حين اندلعت الثورة الإيرانية، وابتسامة الخميني لعرفات في قُم، ثم خيبة هذا الأمل. وتجدر الإشارة أيضًا إلى قصة دعوة عرفات للوفد الإيراني لحضور القمَّة العربية في تونس دون تنسيقٍ مع المضيف في تونس، ولعل هذا التصرف العفوي يعبِّر عن شخصية عرفات، تلك الشخصية الكاريزمية التي تقتات على حبِّ الناس والتبجيل. وعندما تعرضت بيروت للقصف وأحسَّ عرفات بوجوب الخروج منها، كان وجوده في أي مكانٍ مدعاة لقصف ذلك المكان، فكانت الناس تفر منه وتدير ظهرها له، وكان هذا يؤذيه فيردِّد: «الله يساعد الناس».

تقرأ الكتاب وتشعر أنه فسَّر لنا جانبًا من شخصية عرفات الملغزة، ولم يفسر لنا سائر جوانبها؛ ولهذا فإننا بحاجة إلى شهاداتٍ أخرى أشد وضوحًا لتكتمل الصورةُ التي نريد تكوينها عن هذا القائد، فعين الرضا التي كتب بها نبيل عمرو -وهو الذي جاور الزعيم- لم تستطع أن تحاسب عرفات تاريخيًّا أو أن تقيِّم تجربته. وفي الكتاب سيرة مستترة لنبيل عمرو في الكواليس وهو يقول مثلًا: «لم يصرح عرفات باسمي ككاتب خطب له، وإذا تمَّ سؤاله قال اسم شفيق الحوت مجاملة له لو كان حاضرًا».

وبعدُ، فالكتابُ شهادة، والشاهد شاهد عيان؛ ومن هنا تأتي قيمته، وإن ظلت شهادة رجل واحد في شخصية معقدة وفي قضية ظلت ردحًا من الزمن من أخطر قضايا الشرق الأوسط.

أحاديث برقاش:
هيكل يُبعث من جديد

«سـوف تكتب أنت وحدك قصّتنا، فما أظن أن العمر سـيصل بي إلى مرحلة الشيخوخة»

عبد الناصر لهيكل

قراءة ممتعضة وعزبة برقاش

لفت نظري عنوان كتاب أحاديث برقاش: هيكل بلا حواجز للصحفي عبـد الله السنّاوي. قرأت الفصل الأول ثم الثاني، ثـم تركتُ الكتاب وأنا ممتعـضٌ مـن المؤلـف. مللـتُ من السـيرة التبجيليـة. بدا لـي أن عبد الله السـنّاوي، لطول عشـرته لهيكل، قد تعلّم المدح الفخم، وافتقر إلى النقد الذاتي والقدرة على نقد تجارب الآخرين.

يتنـاول الكتاب قصة صعود الصحفي محمد حسـنين هيكل، فيتضمن أحاديث متفرّقة وذكريات ومعلومات تخصُّ علاقات الأستاذ - كما كان يُطلق عليه - بالزعماء، وهي قصة شائقة على أية حال.

في برقاش أقام هيكل منزله الريفي في عزبة بلغت مسـاحتها نحو ٢٥ فدانًـا. وفي هذا المنزل التقى الكثير من السياسـيين والزعماء، مثل ياسـر عرفات الذي التقى جمال عبد الناصر، وكان معه أبو إياد وفاروق القدومي

مـن قيـادات فتح. وهنـاك لخَّص جمـال عبد الناصر طلبه مـن فتح قائلًا: «أريد أن أسمع طلقة واحدة تدوي كل يوم في الأرض المحتلة».

وقـد تنوَّعـت شـخصيات الزائرين؛ فضمـت بعض السياسـيين، مثل جيفـارا، وكثيـرًا مـن الفنانين مثـل أم كلثوم وعبد الوهـاب وعبد الحليم حافـظ. وقـد تضايق عبد الناصر من طول مكوث هيكل في هذا المنزل، ولـم تكـن الاتصـالات أمرًا يسـيرًا آنـذاك، فطلب من وزيـر الاتصالات مصطفـى خليـل تركيـب خـط تليفـون يجعـل عبد الناصر يصـل لهيكل بسهولة في برقاش.

وقد أصاب البيتَ حريقٌ يوم فضِّ اعتصام رابعة، فاتهم هيكل الإخوان بتدبيره، وأُحرقت فيه مكتبته وكثير من الوثائق القيمة التي سبق أن طلبتها جامعةُ أكسفورد، وتُقَدَّر قيمتُها بثلاثة ملايين جنيه إسترليني، ولكن هيكل اعتذر عن عدم بيعها، غير أن حرائق برقاش أودت بها بعد ذلك.

والحـقُّ أنـك إذا قـرأت الكتـاب قـد يعجبـك أن ينقـل المؤلـف تفاصيـل لقـاء خاتمـي بهيـكل فـي عزبتـه ببرقـاش، أو قصته فـي بداية شـبابه وهو مراسـل حربـي في الحـرب العالمية الثانيـة لتغطية نزاعات منطقـة العلميـن، وكان هيكل يتخوف من أن تسـبِّب له علاقاته الدولية حرجًـا مـع مبارك في ذلك الوقت، ولا ريـب أن مبارك كان ينزعج من زيـارات الزعمـاء والقـادة لهيكل، حتـى إنه قال مازحًـا ذات مرة حين تكلـم عـن خـروج هيـكل للتلفزيـون: «ناقـص يضعـوا له أعـلام خلفه وهو يتحدَّث».

عبد الوهاب المسيري وهيكل

شخصية هيكل إشكالية، لا يمكن أن تختصرها في بُعدٍ واحدٍ؛ فمَن يطَّلع على مذكرات الدكتور عبد الوهاب المسيري **رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثمار** سيجد حديثًا للمسيري عن علاقته بمحمد حسنين هيكل، وسيعثر على جوانب لشخصية مختلفة لا تقتصر على تمجيد الحاكم.

نقرأ في المذكرات بداية تعرف المسيري بهيكل عن طريق أسامة الباز في الفترة التي عمل فيها هيكل وزيرًا للإرشاد -أي الإعلام حاليًا- في عهد عبد الناصر. في اللقاء الأول أخبره المسيري بأنه ليس ناصريًّا، فردَّ هيكل بأن هذا لا يهم، ثم تحدَّثا في شعر وولت ويتمان والحضارة الأمريكية والفلسفة، ثم عيَّنه هيكل في مكتب المستشارين بالوزارة. وقد نشأت علاقة ثقافية بين المسيري وهيكل، فكان هيكل يدعوه أسبوعيًّا إلى مكتبه؛ فيدخِّنان السيجار، ويجري الحديثُ بينهما عن الفلسفة والشعر. ومن المؤكد أن هذا اللقاء الأسبوعي قد رفع أسهم المسيري في الوزارة؛ لشدة قربه من الوزير هيكل. يقول المسيري: «وقد تحدَّدت علاقتي بالأستاذ هيكل منذ البداية حتى الآن، على أنها علاقة فكرية وشخصية عميقة تتجاوز الاعتبارات السياسية، ومنذ أن عرفت الأستاذ هيكل، كان من الكرم بحيث إنه يعطيني من وقته الكثير، فكان يقرأ معظم ما أكتب، ويحاورني فيه ويتحمَّس لبعضه ويتحفَّظ على البعض الآخر».

ويذكر المسيري إحدى وقائعه مع هيكل؛ ففي عام ١٩٧٣، دعاه هيكل للغداء في منزله في برقاش وتحدَّثا في كل شيء، إلى أن سأله

المسيري عن سرّ ارتباطه الشديد بعبد الناصر، وفجأةً انقلب الصحفي والسياسي إلى شاعر غنائيّ، فقد تدفقت منه الكلمات قصائد: كيف أن عبد الناصر هو المستقبل وهو التنمية المستقلة. ولعل هذا الوصف يؤكِّده ما ذكره السنَّاوي عن اقتراح هيكل مانشيتًا صحفيًا في ذكرى عبد الناصر؛ إذ اقترح عنوان: «وفي الليلة الظلماء يُفتَقد البدر».

انتقل المسيري بعد ذلك إلى التدريس في الجامعة، واهتمَّ بدراسة الصهيونية وكتب دراسة عن فلسفة التاريخ عند الصهاينة، وأعجب بها أسامة الباز واتفقا على أن يعرضاها على هيكل، وبالفعل قدَّما له الدراسة واتصل هيكل بالمسيري ودعاه إلى الأهرام، وعند اللقاء عرض عليه وظيفة في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام مسئولًا عن الفكر الصهيوني. قبِل المسيري العرض، فأرسله هيكل إلى الولايات المتحدة بعد أن وضع تحت تصرفه عدَّة آلاف من الدولارات (وكان مبلغًا ضخمًا آنذاك)، وطلب منه شراء ما يريد من كتب عن الصهيونية وإسرائيل لمكتبة المركز، وقضى المسيري ثلاثة أسابيع في الولايات المتحدة يتنقل بين المكتبات، يشتري الكتب، ويصور المقالات. وهكذا بدأ المسيري رحلته العلمية مع اليهود واليهودية والصهيونية.

انتقام الأرشيف

على عكس هذه الصورة الوردية لشخصية هيكل، يقدِّم فؤاد زكريا في كتابه **كم عمر الغضب؟ هيكل وأزمة العقل العربي** الذي كتبه بعد صدور كتاب هيكل عن السادات بعنوان: **خريف الغضب**. وفي الكتاب تأييدٌ لبعض ما ورد في كتاب هيكل، ونقدٌ لبعض أفكاره الأخرى، وفي هذا

الكتاب رفض فؤاد زكريا الاستقطاب الحادَّ حول الكتاب بين الناصريين والساداتيين؛ فالناصريون فرحوا بنقد هيكل للسادات، والساداتيون أغضبهم الكتاب.

يتساءل الدكتور فؤاد زكريا: «لو فرضنا أن أحد أفراد عصابة المافيا قد انشقَّ عن الجماعة وأفشى أسرارها للمحقِّق، فهل سيكون هذا المحقق ملزمًا إذا صدقه فيما أدلى به من معلومات، بأن يؤيده وينحاز إليه؟!»

هذا المثال ضربه فؤاد زكريا ليظهر موقفه من بعض ما جاء في كتاب هيكل، فهو يتفق معه على سوء العهد الساداتي، وعلى صحَّة ما جاء في كتاب هيكل، ولكنه -أي فؤاد زكريا- في الوقت ذاته لا يؤيد هيكل، ولا يشعر بتقدير كبير للبواعث التي دعته إلى تأليف كتابه.

ثم يتساءل فؤاد زكريا: «إذا كان عهد السادات مختلفًا عن عهد عبد الناصر، ألم يكن جوهر الحكم وأسلوب الإدارة هو ذاته لم يتغيَّر؟ أعني به الحكم الفردي الذي يؤمن بحقيقة واحدة من البداية إلى النهاية، ويقمع كل ما عداها. والأمر الذي يغفله هيكل أنه من المستحيل فصل النتيجة عن السبب، وأن الصورة تكون ناقصة نقصًا خطيرًا لو اكتفينا بمظهرها الأخير وتجاهلنا امتداداتها السابقة».

أما الخطأ الرئيس الثاني الذي يتهمه به فؤاد زكريا، فهو أنه استثنى نفسه تمامًا من اللوم وصبَّ اتهاماته كلها على غيره، وكأنه كان طوال الوقت مشاهدًا محايدًا، أو ناصحًا أمينًا لا يستمع إليه أحدٌ.

يقول فؤاد زكريا في نقد كتاب هيكل: «لقد بحثت طوال الصفحات التي قاربت الستمائة في كتاب هيكل، عن سطر واحد من النقد الذاتي،

فلم أجد، وكان أقصى ما قاله هيكل عن نفسه هو أنه تصور أن السادات سيفعل كذا وكذا، ولكن تصوراته لم تتحقَّق ... ومن يبحث عند هيكل عن كلمة واحدة تعبِّر عن تأنيب الضمير أو مراجعة النفس أو نقد الذات عن ممارسات غرست البذرة الأولى والأساسية للشجرة التي نمَت معوجَّة فيما بعد، سيكون بحثه قد ضاع هباءً».

يحلِّل فؤاد زكريا ببراعة سلاح هيكل الرهيب الذي امتلكه، ألا وهو «الأرشيف»؛ فمن خلال صلته الوثيقة بعبد الناصر، كانت الأسرار والوثائق الخطيرة تأتيه وحده دون غيره، وكان هو نفسه يحرص على تسجيل كل صغيرة وكبيرة تدور حوله.

ولم تكن البراعة الصحفية وحدها أو الذكاء الشخصي هما اللذان أتاحا لهيكل كل هذه الفرص، بل إن السبب -في رأي فؤاد زكريا- هو انعدام الديمقراطية وسيادة جوِّ التكتُّم والقرار الفردي المفاجئ. كل هذا جعل من الضروري أن يضيق نطاق المطلعين على الأسرار إلى أبعد حدٍّ، وهكذا اطلع هيكل على ما لم يكن متاحًا للآخرين، أو مطروحًا على الناس، وهداه ذكاؤه إلى أن يسجل ما يحدث أولًا بأول.

بل إن أحد المؤلفين الذين يستشهد بهم فؤاد زكريا يرجِّح أن أهمَّ أسباب المكانة الخاصَّة التي اكتسبها هيكل لدى عبد الناصر، منذ أول سنوات الثورة، أنه كان يزوِّد عبد الناصر بقدر هائل من المعلومات التي تتجمَّع لديه من قراءاته الواسعة التي كان عبد الناصر -وهو لا يزال ضابطًا حديث عهدٍ بالحكم- في أشد الحاجة إليها. وهكذا بدأ هيكل بالعطاء، وفيما بعد سددت له هذه الديون أضعافًا مضاعفة، عن طريق فتح خزائن الأسرار كلها له.

وعندما اتُّهم هيكل بأنه ما نشر كتاب **خريف الغضب** إلا بعد وفاة السادات، استنكر هيكل من يستخدمون فكرة موت الحاكم من أجل تبرئة الحكَّام وإبعادهم عن النقد، وقال: «ومع ذلك، فمن المصريين من يطالب بمصادرة حقنا في أن نناقشه، هل من المعقول أن يأتي كل حاكم ويفعل ما يشاء ثم يذهب فلا نناقشه في حياته، ولا نناقشه بعد مماته، أهذا معقول؟».

هذا كلام رائع بلا شكٍّ، ولكن هل طبَّقه هيكل، أم أنه تصالح مع من يتجاسر على فعله مع عبد الناصر؟ يقول في موضعٍ آخر: «لا أسمح لنفسي أن أقصَّ عليك ما قلتُه لعبد الناصر، ولو كان حيًّا واقتضت الظروف أن أروي الحديث كله لرويته، ولكنه لم يعد بيننا؛ ولهذا لا أستبيح لنفسي أن أدعي الشجاعة على غائب، ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين، الفئران كلها تعربد في غياب القطط، ولم يكن جمال عبد الناصر قطًّا، وإنما كان أسدًا مهيبًا شامخًا»، هنا تتضح لنا قدرة هيكل على التلاعب بالحجَّة وعكسها بحسب ما يقتضيه هواه.

وعندما تمادى هيكل في ذكر أثر تنشئة أنور السادات وتربيته وفقره في طفولته، وفي حياته فيما بعد وفي قراراته، ردَّ فؤاد زكريا بذكاء قائلًا: «كل ما أستطيع أن أقوله من تفسير لهذا القصور الشديد في التحليل، هو أن من اعتادوا الاقتراب الشديد من أفراد بعيدين عن الديمقراطية، ومن ألفوا رؤية أخطر القرارات تصدر بإرادة فردية مطلقة، لن يستطيعوا أن يخرجوا في تعليلاتهم وتفسيراتهم عن إطار الظروف الشخصية لأصحاب السلطان».

أضـف إلى ذلك أن هيكل تحاشـى الدخول مع مبـارك في أيٍّ صراع، وعندما أراد نشر ستة مقالاتٍ عن مبارك أرسل المقالات للرئاسة، فطلب منه أسامة الباز ألاَّ ينشرها، فوافق على الطلب.

الصحفي الأكثر حظًا

تمتَّـع هيـكل بعلاقـاتٍ شـخصية مـع كثيـرٍ من الزعمـاء، من أشـهرها صداقتـه مع فرانسـوا ميتـران رئيس فرنسـا، وفـي كتاب **أحاديـث برقاش** يحكي السنَّاوي عن لقاء هيكل بالملك سلمان بن عبد العزيز، وكان ذلك فـي سـردينيا قبل توليه الحكم، ويذكـر أن هيكل حين رأى الملك قال له: «الاختـلاف في الرأي لا يفسـد للـودِّ قضية»، فردَّ الملـك بلهجة مصرية: «هتقـول إيـه ولا إيـه». وفـي كتـاب السـنَّاوي حديـثٌ عـن علاقـة قديمة بالملك، وعلاقته بعبد الناصر، ولقائه مع مبارك الذي سـجَّل تفاصيله في كتابه **مبارك وزمانه: من المنصَّة إلى الميدان**.

كل هـذه العلاقـات الكثيـرة، وقربـه مـن أرشـيف الدولـة، وقربـه من الزعماء الغربيين؛ جعل السادات ينفعل ذات مرة ويقول في خطبة له في أثنـاء اعتقـالات سـبتمبر/ أيلـول ١٩٨٢ : «إن علاقـة هيكل بالمراسـلين الأجانب لن تحميه من المحاسبة»، ثم قال: «وهيكل عاش كفاية»؛ فخاف هيـكل مـن هذه العبارة واعتبرها نيَّةً من السـادات لقتلـه كما يذكر صلاح عيسى في كتابه **شخصيات لها العجب**.

وقبـل رحيـل هيـكل بثـلاث سـنواتٍ عرضت عليـه دار هاربـر كولينز (HarperCollins) البريطانية، التي تتولَّى نشر الطبعات الدولية من كتبه، أن

يكتب كتابًا جديدًا عن الربيع العربي مقابل مليون جنيه إسترليني، بيد أنه لم يكتب الكتاب رغم أنه شرع في جمع الوثائق وإجراء بعض اللقاءات التي تخصُّ هذه الفترة. ولعلي في النهاية أردِّد عبارة نجيب محفوظ: «في كل عصر نتساءل: أين هيكل ليقول لنا القول الفصل؟». لكني رددتُها بسخرية هذه المرة؛ لأن موجة الثورة والتغيير كانت أكبر من أن يدركها هيكل.

صلاح عيسى: مؤرخ الجريمة

«إلى مصر

قضائي الذي أعانقه

وقدري الذي أحتضنه

وأين يهرب المريد وشوقه قضاؤه وقلبه قدره».

صلاح عيسى

عرفتُ اسم صلاح عيسى من الدكتور محمد عناني المترجم القدير في المرة الوحيدة التي قابلتُه فيها، حيث تحدَّثت معه سريعًا عن ترجمته لكتاب **الاستشراق**، ثم حدَّثني عن آخر كتاب قرأه، وهو كتاب **رجال ريا وسكينة** لصلاح عيسى. تحدَّث عنه بإعجاب شديد قائلًا: لو كان الكتاب منشورًا بالإنجليزية في بريطانيا مثلًا، لتحدَّث الناس عنه وانتشر، لكنه بالعربية، فلم ينَل من الصدى ما يستحق.

مصري حتى النخاع

كره صلاح عيسى في طفولته ترومان وتشرشل، واحتقر مدرس الجغرافيا وبيفن وزير الخارجية البريطانية، وقرأ أرسين لوبين والمنفلوطي وطه حسين. وأما أول زيارة للتاريخ فقد كانت عندما قرأ كتابًا رديء الطباعة زخرفي الأسلوب عن قتل معاوية بن حديج لمحمد بن أبي بكر

الصدِّيق، قرأه على مسامع أمِّه الأميَّة فبكت. وعلى مشارف الصبا عاش شهور المدِّ الديمقراطي بين عامي (١٩٥٠ - ١٩٥٢)، وكان والده ليبراليًّا بالفطرة وفديَّ الهوى، وكان عمُّه من جيل الساخطين فانتمى إلى «مصر الفتاة». وفي بيت تدخل فيه صحف المعارضة، كره صلاح عيسى التاريخ إلى أن وقع في يده كتاب «أيام لها تاريخ» لأحمد بهاء الدين وتردَّد في قراءته، لكن التاريخ في ذلك الكتاب كان شيئًا آخر جعله يُفتن به.

صدرت الطبعة الأولى من كتابه **حكايات من وطن** عام ١٩٧٣، وظلَّ بين يونيو/ حزيران ١٩٧٢ ومارس/ آذار ١٩٧٥، يكتب يوميًّا في صحيفة **الجمهورية** زاوية بعنوان: «هوامش»، كانت تنويعة أخرى على نمط كتابه **حكايات من وطن**، حيث يلتقط ومضاتٍ تاريخية قصيرة ومكثفة، تبرق بسرعة لكنها لا تنطفئ قبل أن تضيء عقل من يقرؤها -بوعي- بكل دلالات عصرها. وقد آثر تسميتها **هوامش المقريزي**، وأعادت دار الكَرمة نشرها مؤخرًا.

ذات صباح من عام ١٩٧٧، فُصل صلاح عيسى من عمله في جريدة **الجمهورية**، وهو الفصل الذي استمرَّ عشر سنواتٍ كاملة؛ فأغراه قرار الفصل من العمل، والتحرُّر من قيود النشر في الصحف والمجلات، بالتجديد في كتابته وتوسيع تأملاته التاريخية من ومضاتٍ قصيرة إلى بحوثٍ طويلة. وقد بدأ هذه التجربة قبل ذلك عام ١٩٧٤ في كتابه **مغامرات إسرائيلية في قلب القاهرة** الذي يتناول فضيحة لافون الشهيرة في تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية الإسرائيلية. وقد خُطِّط لهذه العملية بحيث يقوم مجموعة من الشباب الإسرائيلي المدرَّب بتخريب

بعض المنشآت الأمريكية الموجودة في مصر؛ بهدف زعزعة الأمن المصري وتوتير الأوضاع بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية.

وفي عام ١٩٧٧، إبَّان الشهور التي كان هاربًا فيها من ملاحقة الشرطة بسبب اتهامه بالتحريض على مظاهرات ١٨ و١٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٧٧، كتب **البرنسيسة والأفندي**، وهو الكتاب الذي يتناول قصة الغرام الفاجع الذي جمع بين الأميرة فتحية أصغر شقيقات الملك فاروق آخر ملوك مصر، ورياض أفندي غالي السكرتير الثاني بالسفارة المصرية في مارسيليا آنذاك. واشترك مع الروائي جميل عطية في تأليف كتاب **أربعة وجوه لوعد باطل** عن وعد بلفور.

رجال ريا وسكينة: سيرة اجتماعية وسياسية

ريا وسكينة امرأتان قُبض عليهما بتهمة القتل والسرقة، وتناولت قصتهما بعض الأعمال السينمائية والمسلسلات الدرامية، وكانت قضيةً ملأت الأسماع وشغلت الناس في وقتها. كتب صلاح عيسى كتابًا ممتعًا عن هذه العصابة، مستعرضًا في خلال ذلك تاريخ مصر الاجتماعي والسياسي.

والواقع أن تأليف صلاح عيسى لكتاب يتناول قصة ريا وسكينة كان محض مصادفة؛ فذات يوم من عام ١٩٩٣، توجَّه إلى «المركز القومي للدراسات القضائية» للبحث في ملف قضية الحزب الشيوعي المصري الأول الذي تأسس في عشرينيات القرن المنصرم، ووقعت عينه في الفهرس على عنوان: «ملف الجناية نمرة ٣ لسنة ١٩٢٠ قسم شرطة اللبَّان المتَّهم فيها ريا وسكينة بنت همام وآخرون»، فثار فضوله ودوَّن

علـى ورقة رقم الميكروفيلم الذي صُوِّرت عليه أوراق القضية، وانشـغل بالبحث فيها.

وبعـد أسـبوعٍ فكَّـر في أن يشـغل نفسـه خلال فتـرة الانتظار التـي يتمُّ خلالها اسـتكمالُ تصوير ملف قضية الحزب الشـيوعي، بإلقاء نظرة على ملف «قضية ريا وسـكينة»، فطلب الميكروفيلم لكي يتصفَّحه، وهو يظنُّ أن الأمـر سيسـتغرق نصـف سـاعة، يلـمُّ فيهـا بمحتوياتـه. ولكنـه مـا كاد يسـتعرض محتويات القضية، حتى لفت انتباهه أن المحامي الذي انتُدب للدفاع عن ريا وسكينة أمام محكمة جنايات الإسكندرية هو أحمد أفندي المدني الذي ورد اسمه كثيرًا في وقائع قضية الحزب الشيوعي المصري؛ إذ كان أمينًا لصندوقه، ثم سكرتيرًا عامًّا له، واستبدَّ به الفضول لتتبُّع قصة ريـا وسـكينة من خـلال ملف القضية الـذي بلغ مجمـوع صفحاته ٢٢٠٠ صفحة من قطع الفولسكاب.

والحـقُّ أن هـذا الشـغف بالجرائـم لـم يكن أمـرًا جديـدًا على صلاح عيسـى؛ فقد نشـر عام ١٩٧٩ كتاب **أفيون وبنادق**، الذي يتناول فيه ظاهرة العنف الجنائي والسياسـي الذي ساد مصر خلال الأربعينيات في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وهو يترجم لسـيرة أشهر هؤلاء المجرمين محمد محمود منصور المشهور بـ «الخُط»، ونشر أيضًا أوراق قضية التحقيق مع الشاعر أحمد فؤاد نجم في كتاب بعنوان: **شاعر تكدير الأمن العام**.

ولـم تكن تلك القضية شـيئًا عابرًا في حياة المصريين؛ فقد انتقلت من أحاديـث السُـمَّار في عربـات الترام وفـي المقاهي والبـارات، إلى هؤلاء الجالسـين فـي القمَّة؛ حيث طلب عظمة السـلطان أحمد فـؤاد من رئيس

وزرائه ووزير داخليته، محمد توفيق نسيم باشا، أن يوافيه بتقرير شامل عن جريمة ابنتي علي همام ريا وسكينة، واستحثَّ رئيس الوزراء زميله أحمد ذو الفقار باشا وزير الحقانية على الإسراع بإنهاء التحقيق معهما، واستغلَّ ناشر مجهول اهتمامَ الناس الفائق بمعرفة صورتيهما، فطبع عشرات الآلاف منها، وخصَّصت صحف تلك الفترة زاويةً يوميةً ثابتةً في مكانٍ بارز لتلك الأنباء على امتداد شهرين كاملين.

وكان مفاجئًا لصلاح عيسى وهو يكرّر القراءة في ملفات القضية أن يكتشف حقيقتين: الأولى أن كل رجال ريا وسكينة كانوا ممَّن شاركوا في الحرب العالمية الأولى، ودعموا جهود الحلفاء بالخدمة في الخطوط الخلفية لميادين القتال، فيما عُرف بفيلق العمَّال المصريين الذي ضمَّ نحو مليون من الفلاحين المصريين، بينما كان سكَّان المدن يُساقون إلى ميادين القتال ليقوموا بمدِّ خطوط السكك الحديدية، وتمهيد الطرق، وحفر الخنادق، وغيرها من الأعمال المدنية المتعلِّقة بالمجهود الحربي. وكان بعضهم يُجبر على ذلك سخرةً، في حين كان آخرون ومنهم «رجال ريا وسكينة» يتطوعون لذلك؛ بغية الحصول على فرصة عمل في ظلِّ أجواء خيَّم عليها شبح المجاعة. أما الملحوظة الثانية فهي أن شبكة رجال ريا وسكينة كانت تنشط في مجال محدَّد، وهو تنظيم الدعارة السريَّة، وأن معظم ضحاياها كانوا من الداعرات اللواتي يبعن أجسادهنَّ، لكي يجدن القوت في ظلِّ شبح المجاعة.

لطيفة الزيات وريا وسكينة

كانت ريا وسكينة هما أول من تعرفت إليهم لطيفة الزيات -أستاذ الأدب الإنجليزي والروائية المعروفة- من صور الشر؛ فقد وُلدت -كما

يذكر صلاح عيسى في الكتاب- بعد إعدامهما بعامين، ولم تتعرف إليهما إلا بعد ذلك بثمانية أعوام، إلا أن ذلك لا ينفي الأهمية التاريخية لأقوالها؛ إذ هي نموذج لتلك الرؤية الأسطورية، التي اغتالت الحقيقة وحوَّلت الجريمة إلى رمزٍ للشرِّ المطلق.

تقول لطيفة الزيات: «تعرفت على الشر أول ما تعرفت بصورة غير مباشرة، أحالها خيال أمي وخيالي إلى صورة مباشرة، وأنا طفلة في الثامنة من عمري، حكت لي أمي عصرًا، وكانت بارعة الخيال وبارعة القدرة على الحكي، قصة أعتى قاتلتين في مصر، ريا وسكينة. وأوردت أمي طقوس القتل بالتفصيل وكأنها تتمثلها: اختيار الضحية، اصطحابها إلى البيت، خنقها، تمزيق جثتها إلى أجزاء، حرق الأجزاء في الفرن الكبير، ودفوف الزار التي كانت تغطي على أصوات الاستغاثة حتى لا تصل إلى نقطة البوليس أمام دار ريا وسكينة، وأكَّدت أمي بالطبع في نهاية الحكاية أن الجريمة لا تفيد، وأن الأمر قد انتهى بإعدام ريا وسكينة».

ويذكر صلاح عيسى في سياق التعليق على ذلك أن هذا نموذج واحد لتلك المبالغات الخيالية التي تضيف للتاريخ ما لم يحدث فيه، فلم يكن القتل يتمُّ بمصاحبة دفوف وزار تغطي على أصوات الاستغاثة، ولم يكن بواسطة الخنق؛ إذ لم يعثر الطبيبان الشرعيان (سيدني سميث، وعبد الحميد عمار) على أية كسور في العظام اللامية، وهي عظام الرقبة التي يدلُّ كسرها على أن الخنق هو سبب الوفاة، ورجَّحا في تقريرهما أن القتل قد تمَّ بطريقة كتم الأنفاس، ولم يكن هناك تمزيقٌ للجثث، وحتى الحرق لم يحدث، بل أُضيف كنموذجٍ لتلك الرغبة في ترميز ريا وسكينة وإضافة كل ما هو جريمة إلى صحيفة حالتهما الجنائية.

مأساة مدام فهمي: مصر في العشرينيات

اشــتريتُ نســخةً من كتاب **مأساة مدام فهمي: حكايات من دفتر الوطن** من محطة رمســيس في القاهرة، ولم يحملني على شــرائه إلا أن المؤلف هو صلاح عيســى، أما العنوان فهو لا يدلُّ على المحتوى، ويحتوي فقط على صورة بالأبيض والأسود لسيدة تبدو غربية. لكن الكتاب كان مفأجاة سارة.

فهــو أيضًــا تحقيق في جريمة بقلم صحفي/ مؤرخ أو فنان يعرف كيف يقـصُّ حكايـة ممتعـة، وينقـل لـك أجـواء التاريـخ والأحداث السياسـية والاجتماعيـة لتعيش أجـواء الفترة. وعندما قرأت الكتـاب إذا به يتحدَّث عـن جريمـة قتـل حدثـت من سيدة فرنسـية لزوجهـا المصـري، ويصف التاريخ السياسي لطبقة الباشا القتيل. وفي أثناء هذا الوصف يلمُّ بالتاريخ الاجتماعـي لمصر، فهـذه الجريمة حدثت بعد خمس سـنواتٍ من انتهاء الحـرب العالميـة الأولى ومرور أربع سـنواتٍ على ثورة ١٩١٩، ويصف صلاح عيسـى أجواء مصر خلال تلك الفترة بأنها كانت تبعث على القلق والخوف؛ لأن كل شـيء كان لا يزال في كفَّة الميزان، فقد مرت سـنواتٌ على تصريح ٢٨ فبراير/ شباط ١٩٢٢ الهزيل، الذي أعطى مصر استقلالًا ذاتيًـا شـكليًا، ويسـتكمل الكتاب الوصـف والتحقيق فـي تاريخ مصر في تلك الفترة.

قـرأتُ الكتـاب وأنا معجـبٌ بهذا السـرد التاريخي الذي يشـبه الكتابة السـينمائية، فثمـة مشـاهد ووصـف مفصـل لأبطـال الحـدث التاريخـي، وبحث في تفاصيل الأرشيف التاريخي عن عاداتهم الشخصية مما يقربهم

مـن القـارئ. أتذكر عندما وصف سـفر سـعد زغلـول من منفـاه في جبل طارق إلى «إكس ليبان» بفرنسا للعلاج بالمياه المعدنية. وهكذا قدَّم قراءةً - عـن طريـق جريمـة - لحياة مصـر في العشـرينيات، مفصِّـلًا نمط حياة الطبقـة العليـا وأنمـاط نفقاتهـا وحيـاة الصالات فـي القاهرة، ونـوع الفن المنتشر في تلك الفترة. يغوص صلاح عيسى في الدراسات، وأحيانًا في الجرائـد القديمة، ليقدِّم نصًّا ممتعًا، ومن خلال النص تقرأ تاريخًا مكتوبًا كتابةً فنيَّةً ممتعة.

لـم تكن هذه المرة إلا فاتحةً أخرى للحماس لقراءة كتابه **شـخصيات لها العجب** الذي تناول شـخصياتٍ سياسية وأدبية في استعراض تاريخيٍّ وأدبـيٍّ ممتـع. وأتمنَّـى من القـارئ أن يجرب هذا النمط مـن الكتب التي قدَّمها صلاح عيسى، فهي نصوصٌ ذات قيمة فنيَّة عالية.

هوامش على متون صلاح عيسى

لـم يكن صلاح عيسـى صحفيًّـا يهتمُّ بقصته فقط، ولكنه أحيانًا شـاهد عيـان علـى أحداثٍ معاصـرة ومؤرخ قديـر، فهو يقول: «هـذه الحكايات ليس فيها سـطر واحد من الخيال، أو عبارة واحدة لا تسـتند إلى مرجع أو مصدر، سـواء أكان وثيقة، أو مذكـرات أو أبحاثًا، فهو تاريخ يخضع لكل شـروط حرفـة التأريـخ، حتى إنني كنت أبحـث أيامًا عن حالـة الجوِّ يوم وقوع حادثة، أو عن وصف أحد أبطالي، أما الجديد في كتابتي فهو إعادة تخليق الحادثة اعتمادًا على الدراما الطبيعية في وقائع التاريخ، وذلك هو جانب الأدب فيه، وهو جانب لا يلغي علميته كتاريخ».

هـذا الشـرح الـذي قدَّمه صلاح عيسـى لمنهجه في الكتابـة يقِفُنا على طبيعـة مـا يكتـب؛ فهـي نصـوصٌ تاريخيـةٌ مبثـوث فيهـا الحيـاة والأدب والدرامـا، وبالطبـع جعلتهـا هـذه الطريقة نصوصًـا ممتعـة، لكنها فقدت التوثيـق الذي صرح الكاتب بأنه حذفـه لتكون موادُّ كتبه قريبةً من القارئ ولا ينشـغل بالهوامش والمراجع. على أن الحذف جعلنا نخسـر هوامشَ قيمةً من مراجع ومصادر لمن يريد التوسُّع، أو مناقشة سرد صلاح عيسى لما يورده من قصصٍ ورواياتٍ.

الملحوظة الثانية على كتابات صلاح عيسى: أن من يقرأ هذه النصوص التـي اهتمَّـت بالتأريـخ لمصر سياسـيًّا واجتماعيًّـا يتبيَّن لـه أن هناك خلقًا «لمصـر تاريخية ضاربة القدم في التاريخ»، وهذه النزعة القومية في قراءة تاريـخ مصـر، سـتظهر لنـا سـرديات أخـرى تعارضهـا وتقـرأ الأحـداث التاريخية قراءةً مغايرةً، ففي كتابه **رجال مرج دابق** الذي صدر عام ١٩٨٣ يـؤرخ لدخول العثمانيين البلاد العربية، ويصف الكتاب قائلًا: «إنه يروي قصة الخونة الثلاثة الذين سـلَّموا الوطن العربي للسـلطان العثماني سليم الأول». هكـذا تتمُّ قراءة ضم البـلاد العربية بوصفها خيانة، رغم أن مصر لـم يكن يحكمها أبناؤها المصريون، فالمماليك لـم يكونوا مصريين، لكنه الانسـياق وراء سـردية تهاجـم كل مـا يتعلَّـق بالعثمانيين وتُعلي من شـأن النزعة القومية.

القسم الثالث

تنويعات من السّير والمذكرات

سومرست موم: عصارة الأيام

«في هذا الكتاب سأحاول أن أعرض آرائي حول الموضوعات التي حظيت بالنصيب الأوفر من اهتمامي خلال سني حياتي، ولكن النتائج التي توصلتُ إليها كانت مبعثرةً في دماغي كحطام سفينة مفكَّكة في بحر لا يستقر موجُهُ، وبدا لي أنني لو رتبتُ هذه الأفكار على نحوٍ ما، لاستطعتُ أن أدرك قيمتها الحقيقية وأتوصل إلى نوعٍ من الربط بينها»

سومرست موم، عصارة الأيام

يوضِّح هذا الاقتباسُ الغايةَ من سيرة سومرست موم، التي أسماها **الخلاصة**، واختار لها المترجم العربي عنوانًا أدبيًا فأسماها **عصارة الأيام**، وهي السيرة التي كتبها بعد أن تجاوز الستين من عمره، بعد تأجيله المتكرِّر لهذا العمل، ففي الشباب تمتدُّ السنوات أمام العين متطاولة حتى يصعب على الشاب أن يدرك أنها ستنقضي يومًا ما، وفي منتصف العمر يسهل اختلاق المعاذير لتأجيل الأعمال، ولكن لا بدَّ من أن يأتي يوم ونحسب للموت حسابًا، وبنظرة في جريدة **التايمز** وعمود الوفيات وجد موم أن سنَّ الستين سنٌّ غير صغير إلى درجة بعيدة، وخاف أن يدهمه شبح الموت قبل أن يكتب الكتاب/ الوصية.

في هذا الكتاب يفارق الكاتبُ عادته الطويلة وراحته في التحدُّث من خلال المخلوقات الأدبية والفنية إلى الحديث الذاتي الخاص، فجاء الكتاب قطعة فنيَّة تنضمُّ لأعمال موم الروائية والقصصية، فهو تعبير عن

خبرته وملابسـات حياته بقلم رشيق وصور بديعة، حرص مترجمه حسام الخطيب -هذا المترجم القدير- على أن ينقلها بأمانة وحرفية عالية، وأن يحافظ على حيوية النصّ وقُربه من القارئ.

كان موم مولعًا في شبابه بالقراءة في الميتافيزيقا؛ إذ وجد فيها انتعاشًا لروحـه، كما يفيد الجسـم من حمَّام الصباح، علـى حدِّ تعبيره. وموم ينفر من اللهجـة الوعظيـة أو الخطابيـة؛ فقـد ورث داء الشـكِّ، ولـم يكن لديه يقيـنُ الوعـاظ. وممـا يميِّز طريقته أنـه لا ينعزل ليكتب، بـل يعيش الحياة الحقيقيـة للنـاس، ويجد في هـذه الحياة مـادةً لما يكتب، أو مـادةً للتأمُّل والتفكير، فهو يقول: «إن الغرض من الحياة هو ممارسة الحياة وكفى».

ويميز سـردَ موم حالةُ الألفة التي تنشـأ بينه وبيـن القارئ، فكأنهما في مقهـى هـادئ يحكي فيه موم ذكريات عجوز رأى كثيـرًا من ألوان الحياة، ومـوم يبـدو أنـه يعتـذر عـن نسيانه للعديد مـن الذكريـات المهمَّـة، ففي الصفحـة الأولـى من المذكـرات يندم على عـدم تسـجيله ليومياته بعدما أصـاب مـن نجاح بوصفه كاتبًا مسـرحيًا. وفي هذه الفتـرة، نعِم بمصاحبة الحـكَّام والساسـة المبرزيـن فـي المجتمـع، لكنـه وجـد أمرهـم عجيبًـا، فحديثهـم أبعـد مـا يكـون عـن العذوبـة، وذكاؤهـم قلَّمـا يكـون متوقدًا، ومعلوماتهم العامَّة وثقافتهم دون الوسط بكثير.

فما سِرُّ قيادتهم للناس؟ السـرُّ في ذلك يرجع إلى قدرتهم على سلب عقـول الجماهيـر فـي المجتمعـات الديمقراطيـة، لا لذكائهـم ولا قـوة تفكيرهم. وهو يفتش في هذه السيرة عن بعض الدوافع، فيعجب للحماسة التي يبديها الناس لمقابلة المشـهورين فـي عصرنا للتصوير معهم، ويرى أن فـي هـذا الحـرص شـعورًا بالنقـص، ويجـد صعوبـةً في تصويـر حياة

المشهورين في أعمال فنيَّة وأدبيَّة؛ لأنهم يحرصون على وضع أقنعة تخفي حقيقة أنفسهم أمام الجمهور، فهذه المخلوقات فريدة حتى أنها لا تصلح قاعدةً للعمل الفني؛ لأنه يستحيل إضفاء الواقعية عليها. وهو يجد في الشخصيات العادية مادةً ثريةً للكتابة الأدبية، فعامَّة الناس لم يتعرضوا لعيون الجماهير، فلا يخطر لهم أن هناك ما يجب أن يخفوه، وهم يكشفون تصرفاتهم الغريبة؛ لأنه لم يخطر لهم يومًا أنهم غريبون.

وهذا الرأي يذكِّرنا بعبارة بيجوفيتش عن الفنِّ عندما قال: «المعنى النهائي للفنِّ أن يكتشف الخصوصية الإنسانية في من أساءت إليهم الحياة، وأن يكتشف النُّبل الإنساني عند أناس صغار منسيين في خضم الحياة».

والحقُّ أن صراحة سومرست موم تأسر القارئ، فهو لا يتواضع ذلك التواضع الكاذب، بل يقول: «عليَّ أن أكتب كما لو كنتُ رجلًا ذا شأن، وأنا كذلك عند نفسي، مع أنني لا أنسى أنني إنسانٌ غير ذي خطر أبدًا، وهو حكم يمليه المنطق السليم، وما كان للعالم أن يصيبه تغيُّر كبير لو أنني لم أوجد». وكذلك ثمة لفتات جميلة عن حياة الإنسان والمجتمع.

ينقل لنا سومرست موم أفكاره الخاصَّة بمفهوم التمتُّع بالحياة، فهو يرى أن وضع تصميم للحياة قد يجعلنا عُرضة للقضاء على البداهة، أو يجعلنا نعيش في المستقبل أكثر مما ينبغي. كما يحكي معاناته مع تلك العادة في التفكير فيما هو خارج اللحظة الراهنة، فيقول: إنه ما من مرة عبر فيها من ميدان «بيكاديلّي» في قسمه الجنوبي، إلا فكَّر فيما يجري في شماله، محاولًا أن يقبض على اللحظة الراهنة بكل السُّبل، لكن هيهات!

ويعبِّر كاتبنا عن عدم ندمه على أخطائه، بل يعد لها الفضل في تعليمه التسامح مع الآخرين، مع التحفظ في نشرها على الناس، كما فيما يُسمَّى الاعترافات، فهناك شئون كثيرة خاصَّة به يرغب في أن تظلَّ خاصَّة، وما من أحدٍ يقول الحقيقة كاملة عن نفسه، فما يمنع الناس من رؤية الأمور بغير زاويتهم الخاصَّة، ما هو إلا نقص في الخيال. وعندما اشتغل موم بالطب ورأى معاناة الناس، انتبه إلى أن خرافة كون المعاناة والفقر تعلِّم الإنسان الصبر كما يحلو لسينما الأغنياء تصوير الفقراء في عصرنا، ما هي إلا وهم؛ فالمعاناة لم ترفعهم فوق الرجال بل خفضتهم، وكتب يومئذ أن المرء لا يتعلَّم الجلد والصبر عن طريق معاناته الخاصَّة، بل من معاناة الآخرين.

ورث موم الخطَّ الرئيس في حياته من العصر الفيكتوري؛ إذ كان الناس يصرون على وضع خطَّة للحياة يوجِّهون خطاها على هديها، كانوا يحبون الأشياء المرسومة المرتَّبة، ويكرهون التشتُّت والسَّير على الهوى؛ ومن هنا حدَّد موم هدفه في بداية حياته بأنه يريد أن يصير كاتبًا، يحترف الكتابة، لكنه واجه مشكلة في إعلان هذا الحلم أو الأمنية، فلم يجد طريقًا إلا احتراف الطب، وسيضطر لترك الطب بعد ذلك ليتفرغ للكتابة، لكنه أفاد من خبرة ممارسة الطب في كتابته الأدبية والفنية بعد ذلك، فهو يرى أن أفضل تدريب للكاتب هو قضاء بضع سنواتٍ في ممارسة الطب؛ لِما يفتحه هذا العالم من تبصُّر بطبيعة الإنسان عاريًا من الأقنعة.

وفي شهادة موم عن تجربته مع الكتابة ملاحظُ لطيفة؛ فلم يخطر له إلا وهو على أعتاب العقد السادس من عمره أن الكتابة فنٌّ لطيف يُكتسب

بعرق الجبين، وهو يفكّر في أن رأسماله الأصلي في شبابه كان ضئيلًا قبل أن يغذّيه بالاكتساب الفكري والتدريب.

وفي بداية حياته كتب كتابًا عن الأندلس بعنوان: **أرض العذراء المباركة**، وفي نهاية عمره يشعر بسخافة هذا الكتاب؛ «لأن المؤلف كان إنسانًا آخر نسيته تمامًا»، على حدّ قوله، ولا يعدُّه إلا تمرينًا على الأسلوب، بسبب بلاغته المتكلَّفة، وعدم وضوح شخصيته فيه، وبسبب النعوت الغنائية الكثيرة.

وقصة موم مع الكتابة قصةُ تدريب طويل، وممارسة يصف فيها بعض كتبه بالجمود والكتابة المستهجنة، ولا يخجل أن يحكي مراحل تطوُّر كتابته، بل إن موم لجأ إلى تنويع الفنون التي كتب بها، فمن الرواية إلى القصة إلى المسرح، إلى السيرة الذاتية، وقد أكمل موم كتابته بالتخلُّص من الكتابة المثقلة بالزخارف اللفظية والنعوت، ووجد في فنِّ القصة برقية طويلة مسهبة، حُذفت منها -رغبةً في التوفير- كل كلمة لا يؤثر حذفها في وضوح المعنى.

الوضوح أول صفة للكتابة في رأيه، فهو لا يطيق أولئك الكتّاب الذين يطلبون من القارئ أن يبذل جهدًا ليفهم معانيهم، ويرى في بعض كتابات الفلاسفة الكبار في جمعهم بين العمق والوضوح دليلًا على صحّة طريقته، كما يوضِّح أن غموض الكتّاب يرجع إلى الإهمال. ولموم عبارة جميلة يقول فيها: «وفي أغلب الأحوال يكتب الناس بغموض؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم قطُّ مشقّة تعلُّم الكتابة الواضحة».

وعلى القارئ ألاَّ ينخدع بجمال الجرس الموسيقي في الكتابة، فيتجاهل البحث عن المعاني، بسبب طغيان الكلمات، وليحذر الكاتب من الكتابة بأسلوب فخم عن الأمور التافهة، وهو يرى أن الكتابة ببساطة تحتاج إلى جهدٍ ونظام قاسٍ.

ولقد خفتت الكتابة التراجيدية بسبب المرح وانتشار السخرية وقوة الاحتمال وخشونة المشاعر، كل هذه الأمور قلَّلت وهج التراجيديات والنغمة الرومانسية الغنائية للقارئ المعاصر، فالعالم أصبح مكانًا للعيش أكثر راحةً، والنثر الجيد في اعتقاده ينبغي أن يكون كلباس الرجل الأنيق ؛ مناسبًا ولكن غير متكلف، وعلى الكاتب أن يكون ذا حسٍّ مرهف أكثر من مزاج قارئه ليشعر بمواضع الضيق قبل أن يشعر بها القارئ، وبذلك يجمع موم في فكرته عن الكتابة بين الوضوح والبساطة وعدم التكلُّف والحرص على الجرس الموسيقي، مع طابع الحيوية. والكتابة الجيدة ينبغي أن تبدو كأنها بنت مصادفة سعيدة، وهو يسأل الكاتبة «كوليت» التي تبدو كأنها لم تبذل أدنى جهد في الكتابة، فتقول له: إنها تقضي «صباحًا كاملًا في كتابة صفحة واحدة».

أما عن قيمة الثقافة لديه، فتكمُن في تأثيرها في الشخصية، وهي لا تساوي شيئًا ما لم تَسمُ بالشخصية وتمدها بالقوة. إن فائدتها مرتبطةٌ بالحياة، وهدفها الخير لا الجمال، ولا يرى قيمة في قراءة ألف كتاب ما يفوق فلاحة ألف حقل، أو إصلاح سيارة، وهو يرى في المثقفين سخفًا عندما يعتقدون أن معرفتهم وحدها هي ذات الشأن، فالحقُّ والخير والجمال ليس يحتكرها القراء المنغمسون في المكتبات أو المتردِّدون على المتاحف.

إن سومرست موم كاتب يتمتَّع بعين الروائي والقاص، فحين كان يرى عظمـاء الأرض مترفِّعين في مجالسـهم، كان يفكِّر هـل يتاح لهم في هذه اللحظـات أن يذكـروا كيف يملأ عقولهم فراغ وحدتهـم؟ وهل يزعجهم -يومًا ما- التفكير في الأسرار التي تنطوي عليها نفوسهم المتأبِّية؟

وقد هاله تناقض الإنسـان في دوافعه في الحياة والعيش -رغم ذلك- في انسـجام عجيب، وكثيرًا ما سـأل نفسه: «كيف توجد في الإنسان نفسه صفاتٌ لا يجمعها أيُّ جامع؟».

إنـه شـغوفٌ بالبحث فـي المناخ الإنسـاني، ويكتب ذلـك بلغة جميلة بعيدًا عن أشـواك الوعظ، أو النبرة التعليمية، بل بألفة الصديق. لن أنصح القارئ بشـيء فـي النهاية، إلا بأن يجد فرصةً لمقابلة سومرسـت موم في عصـارة أيامـه، فلو لم يجد الفائدة، سـيجد المتعة الجميلة في الحكي مع رجل تجاوز الستين.

كراتشكوفسكي:

الغريب الروسي عاشق المخطوطات العربية

تعرَّف المترجم الراحل محمد منير موسى إلى تراث الكاتب الروسي إغناطيوس كراتشكوفسكي (١٨٨٣ - ١٩٥١) في أثناء عمله في التدريس بجامعات طاجيكستان في الاتحاد السوفييتي، وقدَّم لنا ترجمةً رائقةً لذكريات هذا المستشرق الشهير إلى اللغة العربية.

يحكي لنا كراتشكوفسكي قصةَ ولعِه بالمخطوطات العربية منذ دخوله المكتبة في بطرسبرج ومساعدة خازن المخطوطات له، وكيف شعر بجلال فارق الزمن وهو يمسك برقٍّ عمره ألف عام، ويشرح لنا بعضًا من قصص تلك المخطوطات، وأنه يكاد يتغزل في المخطوطات وتعلُّقه بها، وأنها تحيطه في ليالي السهاد ووقت المرض وحين يصاب بالحمَّى، وتقترب منه بتواضعٍ وهي خائفة تسأله في استحياء: ألم تنسنا؟ ألن تبتعد عنَّا؟ أتذكر كيف أعدتنا إلى الحياة؟ وبعضها على مخطوطة صفراء يحمل حروفًا كوفية، وبعضها على كتابة بطيئة لرهبان سيناء، وبعضها نُسخ فاخرة من الورق الشمعي جُلبت من مكتبات سلاطين المماليك، ونُسخ أخرى فقيرة متواضعة.

نراه يتصفح مخطوطًا للإنجيل باللغة العربية وعليه اسم القيصر ألكسندر نيقولايفيتش، ومع التقصي الذي قام به عَلِم أن هذا المخطوط إهداء من رزق الله حسُّون، وهو قومي هاجر إلى روسيا. ولقد اعترتني

الريبة في رزق الله حسون بعد ذكر الكاتب أنه صديقٌ للمستشرق إدوارد هنري بالمر الذي قتله البدو وكان جاسوسًا.

ثم نراه يقرأ عند بروكلمان في كتابه **تاريخ الأدب العربي** أن كمال الدين ابن العديم مؤلف **بغية الطلب في تاريخ حلب** له مخطوطة في مكتبة بطرسبرج، فيسرع إلى أمين المخطوطات يسأله عنها وهو يشعر بالغَيرة أن يعرف بروكلمان الألماني ما لديهم في روسيا من مخطوطات، لكنه يجد بروكلمان مخطئًا في ذكر المخطوطة، وأنه خلَط بين كمال الدين، وهو خطاط، وكمال الدين المؤرخ الحلبي المشهور، ويعود مستشرقنا إلى بيته وفي نفسه شيء من الحسرة؛ لأنه لم يحظَ برؤية خطٍّ هذا المؤرخ، إلى أن يجد كتابةً بخطٍّ كمال الدين نفسه في مكتبة ليدن، كتبها في بغداد عام ١٢٥٧م، أي قبل عام من تدمير هولاكو لدار السلام.

ويشير كراتشكوفسكي إلى اكتشافه خطأ في فهارس أحد الكتب التي صنفت أحد المخطوطات على أنها منسوبةٌ للتبريزي، لكنه بعد قراءة النص تبين له أن الرسالة لأبي العلاء المعري نفسه حافظ عليها تلميذه، وهكذا قاده تصحيح هذا الخطأ إلى صاحبه أبي العلاء المعري الذي يصفه بأنه منحه السرور والمتعة في طريق الحياة، والذي صاحبته مؤلفاتُه في القاهرة وليدن وعلى شاطيء البحر الأسود.

يسافر كراتشكوفسكي إلى بيروت ليتعلَّم التحدُّث بالعربية، ولا تسعفه الفصحى، فيسكن قرية لبنانية ليتعوَّد على لغة حديث الناس، ويشعر أهل القرية بالفضول من هذا الموسكوبي -نسبة إلى موسكو- الذي يعيش بينهم، ويحاولون دعوته والحديث معه، لكنه يشتري ولا يبيع، ويتَّسم طبعه

بالانطواء وحبِّ العزلة، ومن جديد شعر بالتعطُّش إلى الكتب، فهو يشعر بالحرية مع الكتب أكثر مما يشعر بها مع الناس. ثم ذهب مستشرقنا إلى جامعة القديس يوسف، ووجد في جماعتها العلمية صحبة، فهناك العديد من المستشرقين مثل المؤرخ لامنس، وروزنفال باحث اللهجات العربية، وهناك لويس شيخو الذي يسير بسرعة وعلى وجهه علامات البشاشة وفي يده مجلته المشرق.

وفي الطابق الأعلى من مبنى جامعة القديس يوسف، كان كراتشكوفسكي يقضي الساعات وراء طاولة صغيرة من الثامنة صباحًا إلى الثامنة مساءً، واضعًا قدميه على مقعد خشبيٍّ؛ إذ إن الأرض كان بلاطها من الحجر، وقد قضى هناك شتاءين، وهو يطالع المخطوطات.

وفي بيروت تعرف إلى أدب المهجر، وتعرف إلى أمين الريحاني وكذلك محمد كُرد علي قبل أن يكونا مشهورين ومعروفين، وكان يلتقي من يأتي من المستشرقين لبيروت، مثل نالِّينو الذي جمعته به صداقة، وعندما زار مصر والتقى جورجي زيدان وتكلَّم أمامه باللهجة السورية ترقرقت الدموع في عيني جورجي من شعوره بالحنين إلى وطنه. نراه مقتنعًا بالأفكار القومية التي تدعو إلى الانفصال عن العثمانيين، فهكذا سمع من كثير من العرب، وكان ينشر في الصحف بتوقيع «الغريب الروسي».

ثم زار المكتبة الخديوية في القاهرة، وحدَّثنا عن مهنة انقرضت، هي مهنة ناسخي المخطوطات، الذين ارتابوا منه في البداية وظنوا أنه يريد منافستهم في عملهم إلى أن أوضح لهم أنه باحثٌ فقط ولا يعمل في

النسـخ، وقـد انقضـى زمـان هـذه المهنـة بعـد ظهـور ماكينـات التصويـر الضوئـي. ثـم يـزور مكتبـة الأزهـر ويطالع مـا فيها مـن مخطوطـات. أما المكتبة الثالثة في القاهرة، فهي مكتبة أحمد تيمور باشـا، لكنه لم يسـتطع زيارتها بسبب سفر تيمور باشا خارج مصر، لكن الرسائل لم تنقطع بينهما خصوصًـا لنشـر **رسـالة الملائكة** للمعـري. وهكذا كان الغريب الروسـي يتجـول حتى يصل إلى المكتبـة الخالدية في القدس، والمكتبة المتربولية المارونيـة فـي حلـب، مثـل النحلـة التـي لا تمـلُّ شـمَّ زهـور المكتبـات والمطبوعات.

وفي الإسكندرية وجد مخطوطةً فيها شعر سلامة بن جندل، فنسَخها، وسـافر إلى بيروت، وهناك اكتشـف أن لويس شيخو سينشر ديوان سلامة بـن جندل، فسـأله: «مـن مخطوطة الإسـكندرية؟» فقال شـيخو: «بل من مخطوطـة إسـطنبول»، فأخـرج له كراتشكوفسـكي نسـخة مـن مخطوطة الإسـكندرية، وقابل شـيخو بين النسـختين وأفاد منها، وأخذ شيخو يفتح المخطوطة ويقول: «شيء عجيب».

وأما ذكاؤه في الحصول على المخطوطات فمن شواهده أنه حاول أن يطَّلع على مخطوطات البطريرك غريغوريوس الرابع في دمشـق، وعندما أخذ يماطل في مشـاركته، قال له كراتشكوفسـكي: إنه سـيعود لموسـكو ولـن يكونـوا مرتاحيـن عندمـا يقـول لهـم: إنـه رأى مخطوطـات الجامع الأزهـر، وجامعـة القديـس يوسـف فـي بيـروت، ومجموعات الأسـقفية المارونية في حلب، أما في دمشـق فإن البطريرك صديق روسـيا لم يطلعه علـى المخطوطـات، وعندهـا أبلغـه البطريـرك بإمكانيـه الاطـلاع علـى المخطوطـات، لكن البطريرك الماكر سـافر في اليـوم التالي، مما أغضب

مستشرقنا وسافر إلى موسكو. ومن عجائب القدر أن البطريرك زار موسكو لحضور أحد احتفالات القيصر، وهناك أهدى مكتبة القيصر أربعين مخطوطةً، كثير منها مهتم بالأدب المسيحي. واستطاع المستشرق الاطلاع على هذه المخطوطات بعد جهدٍ في الحصول على إذنٍ بدخول مكتبة القيصر عندما تكون العائلة خارج بطرسبرج، وفي هذه المخطوطات وجد كراتشكوفسكي كثيرًا من المخطوطات التي تعب في البحث عنها.

وكان كراتشكوفسكي أول من اكتشف مخطوطة كتاب **المنازل والديار** للأمير أسامة بن منقذ، وهو كذلك من ترجم كتاب **كليلة ودمنة** إلى الروسية، وترجم أيضًا **الأيام**؛ السيرة الذاتية لطه حسين، وأشرف على ترجمة وطباعة **ألف ليلة وليلة** إلى اللغة الروسية، وعلى ترجمة القرآن الكريم.

لن تملَّ من حكايات الكاتب، فهو يحكي قصص المخطوطات بشغفٍ يقِفُك على أسرار تلك المهنة. كتب مستشرقنا هذا الكتاب **مع المخطوطات العربية** في موسكو وضواحيها، حيث انتقل لها بعد إصابته بمرضٍ عضال وقت حصار لينينجراد، وكانت ذاكرته هي المعين الذي يستقي منه، حيث كانت مكتبته بعيدةً عنه. وقد نبَّهنا في مقدمة الكتاب أن بعض الناس قد يرون في حديثه فيضًا من العاطفة والرومانتيكية، إلا أنه لا يخاف هذا اللوم: فهكذا عاش في عمله، وهكذا كانت ذكرياته. وعلى مقبرته وضع شطر بيت لأبي العتاهية: «الموت بابٌ وكل الناس داخله».

مارمدوك بكثال: سيرة مسلم بريطاني

«إنجليزي حتى النخاع، من مقاطعة إيست آنغليا»

أمامي كتاب السفير البريطاني السابق في سوريا، السيد بيتر كلارك، المعنون: **مارمدوك بكثال: مسلم بريطاني**، ترجمة الدكتور أحمد بن يحيى الغامدي. وهو أول كتاب من نوعه يصدر بالعربية ويتناول حياة الأديب والمترجم مارمدوك بكثال مترجم القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية.

أديب وكاتب منسيٌّ

لنبدأ الرحلة مع هذا الكاتب والأديب المنسي. وهو نسيان يمكن فهم أسبابه من أبناء وطنه؛ ذلك أنه خالفهم في الديانة وأعلن إسلامه، فضلًا عن مخالفته سياسة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، في فترة صراعها الاستعماري إبَّان الحرب العالمية الأولى، مع مجاهرته بهذه المعارضة. لكن نسيانه على الضفة الأخرى من المتوسط بين المسلمين لا يمكن تفسيره إلا بحالة الإهمال والتردي الثقافي التي تجعل من العناية بالنبلاء أصحاب الأيادي البيضاء على تراث المسلمين وثقافتهم مهمَّة لا يهتمُّ بها عموم المسلمين، فالتنكُّر للذات والشعور بالنقص قد جعلا جهود هؤلاء الرواد منسيةً، ولا عذر لأمَّة تتجاهل هدايا المصلحين وتحتفي بالتافهين وتقدِّرهم، بالإضافة إلى أن بكثال لم يكن له شيخ ولا تلاميذ، ولعل هذا ما يفسر إلى حدٍّ ما السبب في إهمال ذكره.

إنجليزي حتى النخاع

وُلد مرمدوك وليام بكثال في مدينة كيمبريدج تِرَس قرب لندن في الرابع من إبريل/ نيسان عام ١٨٧٥، وكان والده قسًّا. وكانت حياته وآثاره موضوعَ كتاب عن سيرته كتبته السيدة آن فريمانتل عام ١٩٣٨ بعنوان: **العدو الوفي**.

كان بكثال روائيًّا قال عنه إي. إم. فورستر عام ١٩٢١: إنه «الروائي المعاصر الوحيد الذي يفهم الشرق الأدنى»، وبالإضافة إلى كتاباته القصصية، فقد كرَّس وقته بعد اعتناقه الإسلام عام ١٩١٧ للكتابة والحديث عن هذا الدين. وفي عام ١٩١٩، أصبح إمامًا بالوكالة للجالية المسلمة في لندن لعدَّة أشهر، وواعظًا وكاتبًا لبعض الكتيبات عن الإسلام. وقد قضى آخر خمسة عشر عامًا من عمره في الهند، وكانت المحاضرات التي ألقاها في مدراس عن «الجانب الثقافي للإسلام» قد أُعيدت طباعتها في نيودلهي عام ١٩٨١. وقد نُشرت ترجمته لمعاني القرآن الكريم لأول مرة في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٠.

عالم الشرق السحري

يذكر بكثال عن شبابه أنه كان يعدُّ نفسه «فاشلًا تمامًا ومحبطًا جدًّا». وبعد فشله الدراسي، قبِل بكثال بالخيار الممعن في روح المغامرة، وهو الذهاب إلى فلسطين، فشرع يهيئ قلبه لرومانسية الشرق: «شمس المشرق، وأشجار النخيل، والجِمال، ورمال الصحراء». وتجدر الإشارة إلى أن والدته كانت ترجو أن يتعلَّم اللغات الشرقية ليلتحق بوزارة

الخارجيـة. عاش بكثال في فلسـطين وبـدأ التعرف إلى عالـم الشـرق عن قـرب، وفي القـدس أحبَّ العرب وارتدى الملابـس المحليَّة، وكان يرى أن أهل القدس سعداء حقًّا، هكذا عبَّر عن حالتهم. ثـم تجوَّل بعد ذلك في بيروت والأردن بصحبة أحد الأدلَّاء، ثم زار دمشق «مدينة القلوب الدافئة وآداب السلوك الراقيـة»، كما وصفهـا في إحدى قصصـه القصيرة، وفي دمشق بدأ يفكِّر في اعتناق الإسلام.

هكـذا خـرج بكثال مـن بريطانيا شـاعرًا بالإحباط والفشـل، وعاد بعد سـنتين مـن التجـوال فـي القـدس وحلـب ودمشـق وبيـروت والقاهـرة وإسـطنبول شـاعرًا ليـس بهويتـه المميزة فحسـب، بل بالسـرور والبهجة أيضًـا، متعلمًـا اللغـة العربيـة، وقريبًا من عالـم الشـرق. وقد أهـداه معلِّمه قسطنطين كتاب **ألف ليلة وليلة**، وأُغرم بالبحث عن ظلال هذه الحكايات فـي الواقع، وسـيصبح هـذا المخزون مـن الذكريات مادةً لأربـع رواياتٍ ولكثير من القصص القصيرة.

صديق اللورد كرومر ومحبُّ الأتراك المندفع

زار بكثـال القاهـرة بعد ذلك والتقى اللورد كرومر. وكان معجبًا بعمل كرومـر، ومدركًا لميوله الاسـتبدادية، وقد وصفـه وصفًا عجيبًا بأنه رحيم وقويـم. لـم يكن يحبُّ الحكم الدسـتوري، ولـم يكن قـد تعاطف بعدُ مع الشـعوب التي تقع تحت نِير الاحتلال. وكان يميل في آرائه السياسية إلى التعـاون مع الدولة العثمانيـة، وصرح بذلك لكرومر الذي لم يعارضه في هذه الفكرة. ثـم جاء بعد ذلك كتشنر، الذي يمكن وصفه بالغشيم «يضرب بالمدفعيـة فراشـات» هكـذا وصفـه. وكان ذا هـوى اسـتعماريٍّ، فقد أيَّد

تصرفات الإنجليز في حادثة دنشواي. ثم سافر بعد ذلك إلى تركيا، وتابع الأوضاع السياسية فيها عن قرب، وذلك عام ١٩٠٨. وقد أبدى إعجابه بالمسلمين الأتراك، ولم تكن انطباعاته طيبةً عن مسيحييها. ثم أصبح مسيسًا ومحبًّا للأتراك ومدافعًا عن سياسة الدولة العثمانية، ولم يكن قد تحول للإسلام بعدُ، لكنه لم يكن يرى في الدولة العثمانية رجلًا مريضًا، بل صديقًا يمكن كسبه.

معركة أدبية مع أرنولد توينبي الشاب

كتب الشاب أرنولد توينبي (كان توينبي آنذاك لا يزال شابًّا صغيرًا قبل أن يصير لاحقًا مؤرخًا ذائع الصيت) كتيّبًا في ذلك الخريف عن الفظائع التي ارتكبت ضد الأرمن؛ فكتب بكثال عن هذا الكتيّب في مجلة (*The New Age*) في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩١٥. ومرةً أخرى لم ينفِ بكثال حقيقة الفظائع (المرتكبة ضد الأرمن)، لكنه وجَّه الانتباه من الخصوص إلى العموم. وقد أشار توينبي إلى إهانة بعض الفتيات الأرمن قائلًا: «هؤلاء الفتيات هنَّ نساء مسيحيات، متحضِّرات ولطيفات كنساء غرب أوروبا، وقد تمَّ بيعهنَّ إلى المهانة».

وفي المقابل وجَّه بكثال سؤالًا: «ماذا يعني توينبي بذلك؟ هل يعني أن الفتيات والنساء القرويات الأرمن متحضِّرات وراقيات مثل السيدات الإنجليزيات من الطبقات الثريَّة، أو كفتيات ونساء قرية «سَفُك»، أو مثل العجائز المشاكسات في حي الفقراء في لندن، أم كعاهرات لندن وباريس؟ هذه العبارة لا داعي لها، وهي تبدو لي مؤسفة؛ لأنها تنطوي على إثارة التعصُّب الديني؛ حيث إنها مبنيَّةٌ على فرضية متعصِّبة خاطئة،

مفادها أن المسيحيون أفضلُ من حيث الجوهر من المحمَّديين [المسلمين]، وأن حياتهم أكثر استحقاقًا. تلك الفرضية، المترسخة في ذهنية الأجنبي، سواء كان مبشِّرًا أم مندوبًا لحكومة أجنبية، هي أساس كل المشكلات في شرق الأناضول، الذي فيه أقليَّة مسيحية نشأت على عدِّ نفسها أكثر أهمية من الأغلبية المحمَّدية، وتمَّ تحريضها على العصيان وممارسة الفوضى والثورة على أساس تصوُّر أن المسيحيين يجب أن يحكموا المحمَّديين، كونهم أسمى في جوهرهم».

وقد نظرت الدوائر الرسمية إلى بكثال في أثناء الحرب على أنه يشكِّل خطرًا أمنيًا. وكانت مواهبه كلغويٍّ بارعٍ في اللغات، واعتباره مرجعًا عن سوريا وفلسطين ومصر، ستتيح توظيفه؛ إلا أن سُمعته كـ «محبٍّ مندفع للأتراك» حرمته من الحصول على وظيفة في المكتب العربي في القاهرة، ونال الوظيفة عوضًا عنه تي. إي. لورنس المشهور بلورنس العرب.

بكثال والإسلام وتحول درامي يليق بأديب

أعلن بكثال إسلامه عام ١٩١٧. والحقُّ أنه كان قبل إسلامه يبدو متمسِّكًا بكنيسة إنجلترا، بل ملتزمًا بشعائرها وطقوسها؛ فقد كان والده وجدُّه لأبيه كاهنين، وكانت اثنتان من أخواته لأبيه راهبتين في جنوب إفريقيا. وقد زار بكثال المشرق أول مرة من خلال اتصالاتٍ بالكنيسة. لكنه لم يكن معجبًا بالجالية الأوروبية المسيحية في فلسطين؛ ذلك أنه وجدهم متكبِّرين وطائفيين. وبحلول الحرب العالمية الأولى، رأى أن المبشِّرين يشكلون تهديدًا مضلِّلًا، وهم بغطرستهم الروحية وحماقتهم السياسية يُبعدون المسيحيين من رعايا الإمبراطورية العثمانية عنها، وبهذا

يفتُّـون فـي عضد الإمبراطورية نفسـها. «الأمر برمَّته يبـدو لي، كما بدا لي دائمًا، أمرًا فاحشًا على نحوٍ لا يُحتمل».

وخلال العامين اللذين قضاهما بكثال في فلسطين وسوريا، رُغِّب في اعتناق الإسـلام. لكن شـيخ العلماء بالجامع الأموي بدمشـق صَرَفه عن اعتناقه؛ إذ نصحه قائلًا: «انتظر إلى أن يكبر سنُّك، وتعود إلى بلدك. أنت هنا وحيدٌ بيننا، كما أبناؤنا بين المسـيحيين. الله يعلم كيف يكون شعوري عندما يتعامل معلِّم مسيحيٌّ مع ابني بغير طريقتي هذه التي أعاملك بها».

فـي الصيف والخريف ألقى بكثال سلسـلة محاضرات عن «الإسـلام والتقـدُّم» أمـام الجمعيـة الأدبية الإسـلامية فـي نوتينغ هيل غـرب لندن. وخـلال المحاضـرة الأخيـرة من هذه السلسـلة فـي ٢٩ نوفمبر/ تشـرين الثاني ١٩١٧، أعلن بكثال إسلامه على الملأ. وكانت قاعة المحاضرات مكتظةً بالحضور. وقد نافح بالحجَّة والبيان عن الإسـلام على أسـاس أنه الديـن الوحيـد المتجـدِّد. وأضـاف أن الأديـان الأخـرى غيـرُ مؤهَّلـة في ادعائها أن عقائدها تشـجِّع على التجديد. وكان يقتبس من القرآن الكريم بالعربية كثيرًا.

وبحسـب كلام أحد الحاضرين: «شدَّ بكثال مستمعيه من البداية حتى النهاية كما لو كان معه سِحر؛ نظرًا لسعة اطلاعه، وتفكيره العميق، وأخيرًا بسبب إيمانه الحقيقي والراسخ الذي نبعت منه تلك الكلمات مبيِّنة عظمة الإسلام وخيريته. الطريقة التي ختم بها هذا الكلام الرائع لا تزال تتحرَّك فـي داخلـي. كانـت يـداه مقبوضتيـن إلى صـدره، وتعلـو وجهه السـكينةُ والرضـا وهـو يتلو الدعـوات المشـهورة في أواخر سـورة البقـرة. حينما

جلس، شعر كل واحدٍ من المستمعين أنهم عاشوا خلال تلك الساعة القصيرة أروع وقت في حياتهم رجلًا كان أو امرأة».

وقد اتخذ بكثال اسم محمَّد، وأصبح أحد أعمدة الجالية المسلمة في بريطانيا.

رحلة إلى الهند

في عام ١٩٢٠، كان بكثال في حاجة إلى المال والوظيفة والأمان. وكانت صحيفة بومباي كرونيكل بحاجة إلى رئيس تحرير، فأبحر إلى الهند في شهر سبتمبر/ أيلول من عام ١٩٢٠. وقد أصبحت الهند مأوىً له مدَّة خمسة عشر عامًا، قضى منها أربعة أعوام في بومباي، أما السنوات اللاحقة من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٥ فقد استقرَّ به المقام في حيدر آباد.

وبينما كان بكثال مشغولًا بصحيفته، كان لديه متسعٌ من الوقت للانهماك في الأنشطة السياسية والدينية. وخلال عام ١٩٢١، كان غاندي يبني جسورًا بين الجاليتين الهندوسية والمسلمة، وقد اقترب منه بكثال خلال هذا العام، وأخذ يتعلَّم اللغة الأردية حتى أتقنها وتحدَّث بها بطلاقة بعد ذلك، وفي الهند تشجَّع على الإقدام على ترجمة القرآن الكريم.

رأي الأزهر في ترجمته وزيارته لمصر

بحلول عام ١٩٢٧، كان بكثال منشغلًا غاية الانشغال بترجمة القرآن الكريم، وقد أراد أن يضمن مصادقة أعلى هيئة علمية في العالم الإسلامي،

وهـي هيئة علماء الأزهر فـي القاهرة، على عمله؛ ففي عام ١٩٢٨، التقى في لندن اللورد لويد، المندوب السامي لبريطانيا في مصر آنذاك (وحاكم بومباي سابقًا)، ورتَّب معه مسألة زيارته لمصر واستشارة علماء الأزهر.

ظل بكثال في مصر ثلاثة أشـهر، بدءًا من شـهر نوفمبر/ تشـرين الثاني عـام ١٩٢٩، ومُنِح خطـاب تعريف ليقدِّمه إلى الشـيخ مصطفى المراغي شـيخ الأزهـر. وكان لـدى بكثال صديقـان مهمَّان في مصـر: أحدهما هو فـؤاد سـليم الحجـازي، الذي كان سـفيرًا لتركيا في سويسـرا خـلال فترة الحـرب وكان أحـد معـارف بكثـال القدامـى. والثانـي هو محمـد أحمد الغمراوي، وهو كيميائي يعمل بجامعة القاهرة، وله معرفة واسعة بالأدب العربي القديم.

وفـي أثنـاء رحلـة بكثـال إلـى مصـر، التقـى العديد مـن كبـار الكتَّاب المصريين آنذاك. وقد استضاف الكاتب أحمد لطفي السيد اجتماعًا ضمَّ أربعـةً مـن علمـاء الأزهر أُسـندت إليهـم مراجعة ترجمة بكثـال. وأعرب الشـيخ رشـيد رضا عن دعمه لهذه الترجمة. إلا أن طه حسين أخبر بكثال أن الملـك فـؤاد -ملك مصر- «متأثر على نحوٍ ما بفكرة أن ترجمة معاني القرآن الكريم خطيئة»، وأنه قد يفصل من الأزهر أيَّ عالـم يسـاند بكثال. وجد بكثال طه حسـين مُتعِبًا وعائقًا، وأكثر من ذلك، بل إن طه طلب منه مقابلة الملك فؤاد لاستصدار فتوى تسمح بالترجمة، فأشار بكثال بهدوء إِلى أن لديه فتوى من الهند، وأما بالنسبة لرعاية الملك للترجمة، فقد أفاد أن لديه الدعم الكامل من نظام المُلك بحيدر آباد.

وقـد كتـب الشـيخ محمـد شـاكر مقالـةً نـدَّد فيهـا ببكثـال وترجمتـه والمتعاونين معه، ومما جاء في هذه المقالة أنه كان من الأجدر بالمترجم

أن يصرف جهده إلى ترجمة **تفسير الطبري**. ولم يكن من المستغرب أن يستاء بكثال من هذه الموقف، وأن يتهم المصريين بأن آراء معظمهم تدل على تزمت وضيق أفق.

إلا أن إجادة بكثال للغة العربية قد واجهت بعض الطعون؛ ففي عام ١٩٨٠، أصدر محمد أسد - خليفة بكثال في رئاسة تحرير مجلة **الثقافة الإسلامية** - ترجمةً جديدةً لمعاني القرآن الكريم؛ إذ لم يكن أسد راضيًا عن ترجمة بكثال، وشعر أن «معرفته باللغة العربية كانت محدودة».

وتشتمل المراجعات والكتابات العربية على حديث ونقد لأهم أعمال بكثال، وهو ترجمته للقرآن الكريم، وفي كتاب بيتر كلارك تحليلٌ لأهم القصص التي ألَّفها، وأبرز الروايات التي كتبها، والتي لم يُترجم أيٌّ منها إلى اللغة العربية.

ومعظم هذه القصص أمثلة دالة على قدرة بكثال على عرض العالم من وجهة نظر الإنسان الشرقي. وقد حدثت كل هذه القصص لجيلٍ ما قبل ١٩١٤، ومعظمها تتناول موضوع التغيرات الاجتماعية التي حدثت في سوريا وفلسطين ومصر وتركيا خلال هذه السنوات، أو موضوع دور الأجانب وعلاقاتهم بشعوب هذه البلدان.

وقد قدَّم الكاتب بيتر كلارك عرضًا شائقًا في فصلين لقصص بكثال وكتاباته الأدبية، يستحقُّ القراءة، فهو شهادة روائية عن عالم الحرب العالمية الأولى في المشرق العربي.

جندي الإيمان المجهول

لم يكن بكثال يهاب الموت. وفي عام ١٩١٩، ألقى موعظةً عن سورة يس وتلاها بحضرة شخصٍ على فراش الموت. قال عن الموت: «أنا أيضًا سأقف بين يدي ذلك الديَّان اليوم، غدًا، أو بعد بضع سنين. بقي القليل لي على أية حال، مقارنةً مع كل اللحظات النفيسة التي عشتُها، وتلك الأخرى التي أضعتُها». في أحد الأيام من شهر مايو/ أيار، أصابته وعكة بعد طعام الغداء. وفي صباح اليوم التالي أخذ قسطًا من الراحة بعد الإفطار، ثم نهض ولكنه سقط على الأرض، حيث وافته المنيَّة في الساعة الحادية عشرة يوم ١٩ مايو/ أيار من عام ١٩٣٦ متأثرًا بانسدادٍ في الشريان التاجي.

إن سيرة بكثال هي سيرة رحالة مغامر قادم من بلاد بعيدة، لشمس ألف ليلة وليلة، متمرِّد على ديانة قومه، ومسلم صادق وخادم للإسلام بإخلاص، وآراؤه السياسية محيرة، لكنه كان يحاول أن يكون له رأي شخصيٌّ ومستقل. سيرة بكثال هي سيرة نبيل من نبلاء المسلمين، تتشابه قصته مع قصة خلفه محمد أسد في كثيرٍ من التفاصيل، حتى في توليه رئاسة تحرير المجلة ذاتها في الهند، أو في افتتانه بالشرق غير الرومانسي.

رحم الله محمَّد بكثال.

ڤولتير أو «العقل ملكًا»:
قصة القرن الثامن عشر

لفت نظري عنوان هذا الكتاب **ڤولتير أو العقل ملكًا**. فلما قرأته، تبيَّن لي أنه سيرة شاملة لحياة ڤولتير؛ حيث يصحبنا مؤلِّفه جان أوريو لنغوص في حياته. ويمتاز الكتاب بغزارة الحوادث، وتتبُّع تقلبات شخصية ڤولتير وتناقضاتها؛ تقلبات قد تسبِّب للقارئ الدوار. ففهم هذه الشخصية يحتاج إلى بعض الوقت للإلمام بأحداث حياتها. ترى تاريخه الشخصي مرآةَ لعصره. لقد كرس جان أوريو عدَّة أعوام لدراسته، واختار هذا الموضوع بدافع المتعة، ولرغبته في أن يعايش الرجل الأذكى، والأفضل تهذيبًا في عيون محبيه، والأكثر قحةً في عيون أعدائه، على أنه في غمرة هذه التفاصيل قد تتبَّع نصيحة ڤولتير الذي قال: «سِرُّ التسبُّب بالملل هو أن تقول كل شيء». فبدا للكاتب أنه ما من من شيء ڤولتيريٍّ كمثل درء الملل عن القارئ. والحقُّ أن القارئ لا يملُّ الكتاب، فهو مترجَم بلغة «عبود كاسوحة» البليغة، والكتاب درسٌ في جزالة اللغة ورصانة العبارة وعذوبتها، ولا نبالغ.

ولد ڤولتير على سرير كاتب عدل في عام ١٦٩٤، وعندما كان عمره عامًا واحدًا اكتمل بناء قصر فرساي. اعتقدوا أنه وُلد ميتًا، وسنراه يقول لاحقًا: «وُلدت قتيلًا». لكنه سيظل «كذلك» حتى الرابعة والثمانين. يذكِّرنا عارف حِجَّاوي في أحد مقالاته بهؤلاء الذين يولدون ضعفاء

معتلّين ويخنقون الثمانين والتسعين، مثل ڤولتير ومثل المعري الذي وُلد ضئيلًا ثم مات في السادسة والثمانين، وكذلك سومرست موم الذي ماتت أمُّه وهو طفل وأُصيب بالسُّلّ وعاش ٩١ سنةً، وكذلك كان جميل صدقي الزهاوي.

فقد ڤولتير أمَّه وهو في العاشرة، ونراه يتبجَّح بإنكار جدوده، فهم ليسوا على درجة من الشهرة، وهو لا يذكرهم إلا باستهانة، رغم أن الكاتب يخبرنا أن ڤولتير مدينٌ بكثيرٍ من السمات والشيم لتلك العائلة، ووالده هو أول واحد من عائلة أُرويِه - التي كان منها ذات سنة دبَّاغ استأجر مكانًا لغسل الجلود - يتسنَّمَ مهنة سامية، ويصل إلى طبقة النبلاء.

سنشهد ڤولتير في أعماق مخدعه يضبط حساباته، فكأنه صورةٌ لأبيه، الأب الذي لم يكن ڤولتير راغبًا في أن يشابهه. فالبراجوزية والمهن التجارية الوضيعة إذا قورنت بوضع النبلاء تثير سخطَ ڤولتير، أما الأرستقراطية فهي وسطه الحقيقي، لكنه يغفل شيئًا واحدًا: لئن فتحت الأرستقراطية الفرنسية أبوابها له، فإنه مدينٌ بذلك لأبيه. صحيح أن موهبته جعلته يتبوَّأ منزلة رفيعة، لكنه تبوأها بفضل كرامة الاسم الذي يحمله.

ويصحبنا الكتاب لمعرفة تاريخ العائلة: أخته مارغريت، وأخوه أرمان التقيّ الذي أحدث تناقضًا مع ڤولتير المهرطِق. وكانت خيبة أمل أبيهم كبيرةً حتى إنه يقول: «لي ولدان أحمقان: واحد من قلَّة التقوى، والآخر من شدَّة التقوى». وقد ورث أرمان جُلَّ ميراث أبيه، ولم يكن على وفاقٍ مع أخيه ڤولتير. وكان من أعظم أسباب غمّه أن يموت بلا خلفٍ وهو يفكِّر في أن ممتلكاته سوف تؤول إلى أخيه الكافر!

انضمَّ ڤولتير إلى مدرسة يديرها اليسوعيون، وهناك تحديدًا تعلَّم ذلك الشكل السامي من الذكاء والفن الذي يسمونه «الذوق». وفي المدرسة عرف نصوص الأدب الكلاسيكي، واللغة التي سيكتب بها روايته كانديد تعلمها في هذه المدرسة. ويخبرنا المؤلف بعبارة بديعة عن مواهب ڤولتير، فهو لم يكتسبها إلا بعد صقل طويل للذكاء عن طريق مطالعة الروائع الأدبية. وكان زمانُ المدرسة زمانَ سعادة في نظر ڤولتير، فهو يحبُّ الاجتهاد ويروقه تلقي المدح من معلِّميه، وظلَّ طوال حياته يلهج بالعرفان لمدرِّسيه، واشتهر في المدرسة بسبب مهارته في نظم الأشعار.

نراه يغادر المدرسة ويندمج مع المستهترين بالعقائد، ويشعر بأنه وُلد سيدًا عظيمًا وزنديقًا. ومن هنا ب' ت كلمته المذهلة التي توجَّه بها إلى أحد الأمراء في أثناء عشاء كان الجميع في أثنائه يتنافسون فطنةً وجرأة؛ إذ قال: «كلنا هنا أمراء أو شعراء»، كلمة قيلت في حضرة أمير من الأسرة المالكة؛ إذ يرى ڤولتير أن الأمير والشاعر سيَّان، فالشاعر لا علاقة له بالناس العاديين، وهو مماثل للأمراء.

وحين قرَّر ڤولتير أن يكون أديبًا، وقع النبأ وقع الصاعقة على عائلته، وردَّ عليه أبوه قائلًا: «إنها حال رجل يريد أن يكون عديم النفع في المجتمع، وأن يتحمَّل أهله أعباء الإنفاق عليه، ويرغب في أن يموت جوعًا». فانضمَّ إلى مدرسة الحقوق، لكنه لم يتكيف معها، وعدَّها مستودعَ أعلاف، ولا عجب فشخصية ڤولتير لا ترضى إلا بصحبة النبلاء أو الأمراء، وهو في حاجة إلى أماكن مزدانة بالزخارف ليبتهج فتتفتَّح قريحته. ولا يسعى ڤولتير إلى الانضمام إلى النبلاء فقط، بل يريد أن يكون ندًّا للملوك.

خاف عليه أبوه من حرفة الأدب؛ لأنها كانت مهنةً على قدرٍ غير قليل من الوضاعة في ذلك العصر، لكن ڤولتير من أوائل من سيصنعون للأدباء مكانةً اجتماعية مرموقة. ابن عائلة يقطع الأواصر بينه وبين وسطه البرجوازي ليكون فنانًا. ورغم محاولة ڤولتير أن يكون فنانًا، فإننا نراه في أعوام شبابه خفيفًا، أو قُل مندمجًا في التفاهة الاجتماعية، وتصدر عنه كلمات جميلة، أو قصائد غزلية، لكنها تتلاشى تلاشي العطور الخفيفة التي تفوح من الدوقات. على أنه كان متألقًا حسن القيافة حين يمشي، يتكلَّم مثل الأمراء، ويتمتَّع بكياسة فطرية، فنحن في عصر الصالونات، وطلاوة الحديث تؤهلك لمصاحبة علية القوم، فهم ينتشون بالحديث الذكي انتشاءهم بكؤوس النبيذ.

وفي عام ١٧١٥، توفي الملك لويس الرابع عشر أعظم ملوك فرنسا وأشهرهم، والملقب بالملك الشمس. وكان أديبنا في الحادية والعشرين من العمر، وبوفاة الملك تنفَّست أوروبا البروتستانتية وفرنسا الكاثوليكية الصعداء؛ حيث كان موته خاتمة مُلك ونهاية عصر؛ مُلك اتصل اثنتين وسبعين سنةً، وعصر بدأ بأمجاد الانتصارات الحربية، وبهاء الروائع الأدبية، وفخامة فن الباروك، وإرهاق الشعب وإفقاره. وتطلَّع الجميع في أمل وشكٍّ إلى الحكومة التي ستخلف الملك المهيب الذي راح غير مبكيٍّ عليه، وظهر وصيُّ العرش الذي سيخوض مع ڤولتير صراعًا جديدًا، وتدفَّق نهرُ الانحلال الذي كان يجري في السِّرِّ، ليتدفق تدفقًا مباغتًا في العلن وسط المجتمع. وينتشر الإلحاد في كل مكان، وتتراخى الأخلاق دفعة واحدة، أي أن الناس باتوا يفعلون علانيةً من دون رياء ما

كانوا يرتكبونه في الخفاء. ويكتب ڤولتير المسرحيات ويدخل هذا العالم الخفي من كواليس الممثلين والفنانين.

نـرى ڤولتيـر يقترب من طبقات من النبـلاء المارقين، لكن جان أوريو يحاول أن يوضِّح لنا اختلاف شـخصيته عنهم؛ فهو لا يمانع في أن يكون ماجنًـا، لكنـه ليـس داعرًا، ويقبـل أن يكون كافرًا، لا سـافلًا، وهو يلامس الفسق لكن وهو يرتدي قفَّازات، إنهم ماجنون أرستقراطيون، لكنه مثقفٌ ذو عقيـدة مارقة، وهؤلاء النبلاء يمارسـون الإلحاد، ولكنهم ليسـوا على خلافٍ مع الكنيسة ويحصلون على دخولهم ومناصبهم منها. وأما ڤولتير فـكان يريـد حمـل الإلحـاد إلـى المجال العـام، وهـو ينـوي الدخول في مناقشـاتٍ وجدالات، وهو الآن يدخل منتصف العشـرينيات ولا يستطيع المجاهرة بهذه الآراء، لكنه يخالط تلك الطبقة ويقرأ على أبنائها مسرحيته أوديب، ويوجهون له النقد، فيصغي وينقِّح ما كتب، ويُفيد من النقاشـات على موائد العشاء. وهو يتقن فنَّ الإطراء ومدح من يعامله بلطف، ويؤمن أن المرء يجب أن يتعلَّم، لكن في جوٍّ من المرح، فالمعرفة الحزينة معرفةٌ ميتةٌ، والذكاء في نظر ڤولتير فرحٌ.

نتوقَّـف عنـد منتصـف العشـرينيات من شـبابه ونتخيله عذب اللسـان يجلـس أمـام الدوقـات والنبـلاء ويقـرأ مسـرحياته، لا يسـكر ڤولتيـر من الخمـر، بـل من الصحبـة الرقيقة فـي القصـور وعلى ضفاف نهـر اللوار، فالشـعر والمسـرح وحفلات رقـص الباليه هي أجـواؤه الاجتماعية، لكنه شـديد الملل وينتقل من مدينة إلى أخرى، ويقول عن نفسـه: «لستُ مهيئًا للإقامة طويلًا في المكان نفسه». ولسوف يجوب في حياته المديدة كثيرًا من الطرقات. موطنه الحقيقي هو المنفى، أو بالأحرى التنقل والحركة.

سنوات الطفولة والشباب الباكر هي الأساس في حياة الإنسان، وقد امتاز الكتابُ الذي نعرض له بالتعمُّق في استعراض هذه السنوات. فأما ڤولتير العظيم فسيرته معروفة، وعلاقته النديَّة مع ملك بروسيا فريدريش الأكبر التي تراوحت بين الرضا والغضب كانت من أحداث القرن الثامن عشر الثقافية الموحية، ولعلنا نزور القرن الثامن عشر في الفصل القادم من خلال بوابة العشق والحب في حياته.

ڤولتير وعشيقاته

أديـنُ بفكـرة هـذا المقال لكتـاب **المرأة في حيـاة نابليون** لكريسـتوفر هيبـرت، فنحن نرى مدخلًا مختلفًا لقراءة شـخصية نابليـون، وهو المرأة والحب في حياته. وفي سـيرة جان أوريو **ڤولتير أو العقل ملكًا** نرى حياة ڤولتير بكل تفاصيلها من الطفولة إلى الشيخوخة.

يتتبَّع الكتاب تاريخ ڤولتير كله حتى تاريخه العاطفي، فلماذا لا نبحث فيه عن قصص عشق هذا المفكِّر التنويري المهم؟ يقدِّم جان أوريو سيرةً رائعةً لحياة ڤولتير، يكتبها بقلم الشـغف، ويقول لنا: «إن ڤولتير يسـحرك في كل شـيء: في الخير وفي الشـر، وفيه معايـب لا تُحصى». ولقد قصَّ علينا قصة حياة ڤولتير بكل احترام، تاركًا مكانًا لتلك العيوب، ويستشـهد بعبارة أحد أصدقائه: «كان رجلًا عظيمًا جدًّا إلى حدِّ أني نسـيتُ عيوبه»، ويسـعنا أن ننسـى عيوب ڤولتير، لكن كي ننساها ينصحنا بأنه لا بدَّ من أن نعرفهـا أولًا. وهـذا الكتـاب أمـاط اللثـام عنهـا بـكل عناية كمـا أبان عن فضائلـه، تـاركًا للقارئ إشـباع رغبته منها أو نسـيانها. وسـيرة ڤولتير جزء مهمٌّ من قصة القرن الثامن عشـر، ألم يُعنون ول ديورانت أحد مجلداته بـ «عصر ڤولتير»؟ وعندما نتحدَّث عن علاقاته، نرى جزءًا من فسيفساء هذا العصر في أهوائه وميوله.

ڤولتير المراهق

في مراهقته كلَّفته سيدة رفيعة المقام بأن يصحِّح أشعارها، وهو ما زال طالبًا في المدرسة اليسوعية. وكان تصحيح أشعار هذه السيدة أحبَّ إليه من التحدُّث إلى القضاة والعمل في المحاكم، وقد حصل من هذه السيدة على مائة ليرة نظير التحرير اللغوي، فماذا فعل بمرتبه الأول؟ اشترى عربة عتيقة، واستأجر خيولًا وخدمًا، وتجوَّل وهو محاط بذلك الطاقم طوال يوم كامل في باريس، إنه يمثِّل دور سيد كبير. وفي اليوم التالي، باع الخيول الهزيلة والعربة. وتبدأ مساعي الأب القلق لتمكين ابنه من الحصول على وظيفة، ويتهرب الابن من أيِّ محاولة للتوظُّف في سلك القضاء.

ويعلِّق المؤلف جان أوريو بأن بعض الآباء الذين يتمرَّد عليهم أبناؤهم لا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم حقًّا آباء لأولئك الأشخاص الاستثنائيين الذين لا يشبهونهم. وهكذا رفض ڤولتير الوظيفة التي سعى فيها والده قائلًا: «قولوا لأبي سأعرف كيف أُقيم لنفسي اعتبارًا». ويصف الكاتب العبارة بأنها عنفوان رجل عصامي، أو لعلها تمرُّدٌ مبكِّر.

الحب الأول في لاهاي

ضاق الأب بڤولتير، وطلب نقله إلى أي مدينة أخرى، فذهب إلى مدينة كان، فكانت النتيجة بلا طائل، فقد انبهرت به سيدة اسمها دوسفيل وصارا يُشاهَدان متلازمين في كل مكان: في القصور الريفية، وقصور كان الجميلة. ثم عاد إلى باريس، لكن والده طلب منه السفر إلى لاهاي سريعًا ليبعده عن الأرستقراطية الباريسية، وفي لاهاي تمتَّع بألف موضوع من

المفاجآت والتسالي وقصص الهزل والعشق، فأما السفارة التي يفترض أنه أصبح يعمل بها فنادرًا ما شوهد يتردَّد إليها. يسرد لنا الكاتب قصة عشقه فتاةً تُدعى بمبميت في أكثر من عشر صفحاتٍ، ويحلِّل قصة حب ڤولتير وعشيقته. وهذه طريقة المؤلف في الكتاب كله، يسرد قصصًا تفصيلية تصل إلى درجة تحليل خطابات غزل ڤولتير وقراءة شخصيته خلال تلك الفترة. ورغم سلاسة لغة الكتاب وجماله، يجب أن يتمتَّع قارئه بالصبر وتحمُّل التفاصيل الدقيقة، فهي قِطع أُحجيات يرصفها المؤلف بعناية ليرسم صورة ڤولتير في كل مرحلة صغيرة عاشها.

وعلى الرغم من أن ڤولتير كتب لحبيبته: «لم يوجد حبٌّ يعدل حبي؛ لأنه لم يوجد إنسان أجدر بالحبِّ منك»، فإن قصة العشق انتهت سريعًا. ويوضِّح لنا الكاتب أن ڤولتير مشبوب العاطفة، لكن العواطف الكبرى التي تستهلك حياته هي عواطف المجد والحرية في أشكالها كافةً، فهو لا يقاتل من أجل عشيقاته، إلا أنه سوف يشنُّ في سبيل مجده والحرية حربًا على المجتمع كلِّه.

من عند دوقة إلى قصر نبيل، ومن الصالونات في القصور إلى مقر رئيس أحد الأديرة، ومن مكتب كاتب العدل إلى السفارة، وفي لحظة يسقط ذلك الأنيق بسبب زلات لسانه وهجائه لوصيِّ العرش فيقبض عليه ويزج به في سجن الباستيل. تؤنسه أشعار هوميروس وكتابات فرجيل في السجن، وكان الترياق في الزنزانة هو الكتابة، فكتب قصيدته «لا هنرياد» التي سوف تقرؤها أوروبا كلها. ودام اعتقاله أحد عشر شهرًا، ويعود للحياة العامة بطريقة استعراضية، فهو يرتِّب تمثيل مسرحيته أوديب التي كتبها.

ڤولتير والدوقة

كان الماريشـال الـدوق دو فيـلار يقيم في قصر فـو، وكان لديه زوجة حسـناء تتميَّز بالذكاء المهيمن على كل حفلات الاسـتقبال، ولـم تكن في سـني شـبابها الأول، لكنهـا كانـت غايةً في النـداوة، وكانـت بداية تعرف ڤولتيـر إلـى هذه الأسـرة في حفل مسـرحيته أوديـب، وقد هنَّأ المارشـال ڤولتير على نجاح المسـرحية قائلًا: «الأمَّـة مدينة لك بكثير من العرفان»، فكان ردُّ الشـاب الشـاعر على الجنرال المتقاعد: «كانت ستدين لي بأكثر من ذلك، يا سيدي، لو كنت أجيد الكتابة، مثلما تجيد أنت القتال»، شعر المارشـال بالزهـو ولـم يكـن حبُّـه لـلأدب نابعًا من كونـه يفقه فيـه، لكن رجـالات الأدب يجيـدون إعـادة النفـخ فـي أبـواق الشـهرة، ومنـذ كـفَّ المارشال عن سماع دويِّ المدافع، ما عاد يروقه سماع شيء مثل الإشادة بمآثره.

يُقبل ڤولتير على «المارشـالة» لدى أدنى إشارة، فهي تفتنه، وهي على درجة من الأناقة والذكاء قلَّ مثيلهما. يقول عنها هينو المعاصر لها: «إنها مليحـة الوجـه، ذات جاذبيـة وكياسـة لا تشـاهدان إلا فـي الحاشـيات الملكيَّة»، وقع ڤولتير في الخديعة وتعلَّق بها، وكان راغبًا في الاقتناع بأنها تعطـف عليـه، وأن الحيـاء يمنعهـا مـن التعبير عـن هذا العطـف. وعندما اِكتشف أنها غير مهتمَّة، وأنه يسعى وراء عشقٍ جارف، ثارت ثائرته؛ لكن لمـاذا كانـت حريصـة عليه فـي بلاطها؟ لم يكـن قلبه هو المطمـع، إن ما يروقها في ڤولتير هو اضطرام فكره لا اضطرام قلبه، وكانت تعشـق أقواله وأساليبه وهيئته وعبثه وأشعاره ورسائله، وتجعله يضيِّع كثيرًا من الوقت.

لكنـه وعى الأمر وحاول الهروب من هـذه العلاقة، وقال في ذلك: «إنني أرتدي الآن معطف فيلسوف، ولن أتخلّى عنه مقابل أي شيء في العالم»، يسخر الكاتب منه قائلًا: «إنما يرتدي المعطف بعد أن انهمر المطر الغزير عليه».

والجامـع المشـترك في كثيرٍ من هذه العلاقات أن أصحابها يسـكنون القصور، ويعيشون في وسط باذخ، وسط تلك الزخارف من عهد الوصاية بعـد موت لويس الرابع عشـر، إنه سِـحر البذخ، ومـا أبدعته الحضارة من جمال، ومن عيش رغيد، ومن ظرف في الفكر، ومن أساليب وملابس أو وسـائل الراحـة، ولا يتنفس كاتبنـا إلا تحـت سـقوفٍ مطليـة، ولا ينطـق بالمُلـح والنـوادر إلا وهـو فـي الملابـس الحريريـة، وهو ينظـر في عيون النساء المزدانات بالألماس بكل عفوية، فالبذخ من طبعه.

ظهور الرفيقة إميلي

في زقاقٍ ضيقٍ وفي حيٍّ قبيحٍ في باريس يسـكن بطلنا ڤولتير، يريد أن يُحـدث بقيثارتـه ضجيجًا يجعل ضجيج النواقيـس لا يؤثر فيه، وفي أحد الأيـام زارتـه عربة فاخـرة، ونزل عدَّة ضيـوف تبدو عليهـم مظاهر النعمة وأمـارات الثـراء، ليـزوروا ذلك الشـاعر، ومـن ضمن ذلك الوفد السـيدة إميلـي دو شـاتليه التـي كانـت من أكثـر نسـاء زمانها علمًـا ورقَّـةً وظرفًا، وحـدث توافـق شـبه معجز بيـن امرأة عالـمة وشـاعر مشـاكس، كانت في السـابعة والعشـرين لـدى ظهورهـا عند بوابـة منزله، وكانـت متزوجةً من الماركيز دو شاتليه.

لـم تكـن فـورات عشـق ڤولتير تتعـارض مع نشـاطه وهمَّتـه، فقد كان يكتب أوبرا آنذاك، وكان قادرًا على تصميم رقصات باليه، ويسعى لتزويج بعـض أفراد النبـلاء، ويمارس كل هذا مع عشـقه الجديـد، وكانت إميلي مولعـةً بالرياضيات وتعكـف عليها بهوى جنونيٍّ، ويقرِّر ڤولتير أن يذهب إلـى منطقـة منعزلـة تُدعى سـيري ليجدِّد قصـرًا على نفقته يسـتضيف فيه إميلي ويكون مستقرًّا له ولعائلتها، وولد «نشيد العذراء» من تأليف ڤولتير بين بقايا الجصِّ وقطع البناء، ووسـط وقع المطارق وصرير المناشـير في القصر الجديد، وفي هذا العام المضطرب (عام ١٧٣٤)، يكتب تراجيديا، وثمانية أناشيد ملحمية، ويخوض علاقة عاطفية، ويرمِّم قصرًا ريفيًّا.

فـي هذه الأيـام وخلال زيارة خاطفـة لباريس، أحس فولتيـر بتغيُّر في أجواء الصالونات الباريسية، فلم يعد الناس يتحدثون في الشعر والأدب، بل تبدو الأبيات موضع استخفاف، فالكلام بات يتناول الفيزياء والهندسة، إن ڤولتير لمذهول، وهو يشـعر بالقلق من أن يفقد بريقه الأدبي وحضوره في عصر المثلثات والنظريات العلمية. وهو يخاف على حبيبته إميلي من شـغفها بأسـتاذ الهندسـة الباهـر، ويشـرح لنا جـان أوريو شـخصية إميلي بقولـه: «كانـت إميلي نارًا متوقدة، وينبغي لهـا أن تلتهب متأجِّجة، بوجود ڤولتيـر أو بعـدم وجوده، ولو كان ڤولتير فـي متناول يدها لما فضَّلت عليه أحـدًا سـواه، أمـا وأن الهندسـة هـي خبزهـا اليومي، فإن أسـتاذ الهندسـة أضحى كذلك عشـيقها»، ولـم يقوَ ڤولتير على تحمُّل تلك الحماقة، لكنه عاد إليها وتغافل عن هذه الزلَّة.

تمَّ بناء القصر في سيري، وجعله ڤولتير معبدًا مكرسًا للحبِّ والصداقة والنقاشـات الفكرية، وكان القصر يسـتقبل عددًا من الزائرين؛ لأن الناس

المتميزين كانوا ينعطفون -عن طيب خاطر- ليزوروا ذينك الناسكين في القصر الريفي، كانت تجربة مختلفة عن عادات المجتمع الأرستقراطي الباريسي وتقاليده. كان المسافرون يتكلَّمون عن القصر كأنه هروبٌ إلى الصحراء، ويتساءلون كيف يقوى ڤولتير وإميلي على العيش بعيدًا عن ظلِّ كاتدرائية نوتردام؟ أليس هواء الغابات والأراضي البور، هواء العزلة ذاك، المرهوب الجانب، قاتلًا لأبناء المجتمع الأرستقراطي، الذين يعيشون تحت الثريات، مثل قطع الألماس واللآلئ؟

بعد سنتين صار عليه أن يرتحل من جديد، وأفاق من هذا الحلم الجميل، فهناك خطر جديد يتهدَّده ويتهدَّد إميلي أكثر منه كثيرًا، فها هم أبناء عمومة الماركيز زوج إميلي، يعلنون أنه من غير الملائم أن تعيش زوجة ابن عمهم مع ڤولتير تحت سقف قصر واحد، في حين أن زوجها يقاتل مع الملك على بعد مائتي فرسخ! في هذه اللحظة يفكِّر ڤولتير في التوجُّه إلى الأمير فريدريك ولي عهد بروسيا، الذي تربطه به مراسلات تظارف، وفي لحظة قلقٍ من والد الأمير فريدريك ڤيلهلم قرَّر العدول عن هذا القرار والسفر إلى هولندا.

كانت شهرة ڤولتير تتصاعد، وكانوا يعرضون مسرحياته في المدن التي يمرُّ بها، ويرسل له الأمير فريدريك الهدايا، ويكتب وليُّ العهد لڤولتير أنه لو زار فرنسا فستكون أول زياراته له وليس للبلاط الفرنسي، بل يرسل له سفيرًا يغريه بالقدوم إليه، ويقدِّم منزله في لندن كبيت لجوء. إن فريدريك يعرف أنه لكي يوافق ڤولتير على القدوم إليه يجب أن يُقنع عشيقته السيدة إميلي التي تتمسَّك بصديقها ولا تريده أن يذهب إلى

بروسيا، وكل رسالة من فريديريك تجعل الخليلة إميلي تمضي ليلة لا تعرف فيها عيناها للنوم طعمًا.

يصل فريديريك إلى سدَّة الحكم، وتتواصل الرسائل بينه وبين ڤولتير، ويشعر ڤولتير أن إميلي تحرمه من صداقته مع هذا الملك الفيلسوف. في هذا الوقت، كتب مسرحيته المعنونة: **محمَّد**، ولم يكن هناك شبه بينها وبين النبيِّ محمَّد ﷺ، اللهمَّ إلا في عنوان المسرحية، وظلَّ ڤولتير يزوره المرض كل فترة، ويعتقد أنه ميتٌ لا محالة، وينمي ثروته عن طريق إقراض المال لكبار القوم. ويحاول ڤولتير العودة إلى بلاط فرساي، ولا يجد هذه الحظوة، ويتندَّر على نفسه قائلًا: «لم أعد أتمتَّع بصحَّة رجال البلاط». وهذا صحيح، فهو يصاب بالمغص ثلاثة أيام في الأسبوع.

لقد ظلَّ ڤولتير مولهًا بحبِّ إميلي، ربما بسبب سمو روحها، أو ذكائها الذي جعلها جديرةً به، وكانت تشاركه الكثير من أيامه، وقد غفر لها عنادها وثوراتها الغاضبة الصاخبة، وحتى عدم وفائها في بعض الأحيان، كانت باختصار عبئًا رائعًا، وكانت تحمل له أفراح الصداقة، ومباهج الحبِّ، واستطاع بفضلها أن يتذوَّق أشكال القلق والمنازعات كافةً، وأن ينتشي بالمصالحات المسكرة، ولقد منحته إميلي كلَّ شيء، عدا الشعور بالسأم.

برلين أو الخيار الأسوأ

لنتخيَّل ڤولتير من ركام هذه القصص العاطفية التي يمتلئ بها الكتاب، إنه شابٌّ طويل ونحيل، لا لحم فيه ولا أرداف كما وصف نفسه، ولعله لذلك كان يثب من مضيفة إلى أخرى بخفَّة ورشاقة، ويجد الترحيب في

الطبقـة العليـا بسـبب بلاغته الشـعرية، كان يمثِّـل دور زير النسـاء، بديهته حاضـرة وهجـوه مؤلـم، ألـم يقل للملك فيليـب عندما اختزل نصف أعداد الخيول الملكيَّة: «كان خيرًا لجلالته أن يطرد نصف الحمير الذين يزحمون بلاط سموِّه»، ينظم الشعر وهو سقيم، ويعالج الأمور الفلسفية وهو سليم، ويجري حساباته المالية في كل وقت، ونراه يفشل في الحصول على مقعدٍ في الأكاديمية الفرنسـية فتثور ثائرتـه. ولئن ملأ ذلك الإخفاق قلب ڤولتير بالمـرارة، فـإن فريدريك قد فُتن به، وكان ذلك يخدم مصالحه، فكتب إلى ڤولتيـر: «تغلَّب على نفسـك بـازدراء أمَّة تتنكَّر لكتاباتـك، وتعالَ إلى بلادٍ يحبك الناس فيها، بلاد خالية من التعصُّب». كلام مغرٍ لشخص مثل ڤولتير يحـبُّ أن يكون صديقًا للملوك. يتخلَّى ڤولتيـر عن إميلي، ويقرِّر الذهاب إلى بلاط فريدريك، لكنه يحتال للحصول على إذنٍ من قصر فرساي، فهو يرى نفسه خادمًا لفرنسا، وليس منشقًّا في هذه المرحلة، ولا يريد قطع كل خطـوط الودِّ مع البلاد، ويصل ڤولتيـر إلى فريدريك ولا يعطيه الملك أيَّ ميزة سياسية ويتسلَّى بالنقاش معه.

نتـرك ڤولتيـر الآن في بروسـيا مغتربًـا كما اعتاد ذلـك. لقد حاولت أن أصل في حديثي إلى سرير الموت وڤولتير يرقد عليه، وأن أقصَّ حياته من مدخـل قصـص الحـب؛ لكـن تفاصيـل الرجـل وحياتـه كثيـرة. نتركه في بروسـيا وتتمَّـة قصص عشـقه الكثيـرة موجودة فـي هذا الكتـاب الضخم لجان أوريو، وارتباط ذلك بقصة القرن الثامن عشـر. نتركه الآن في قصر فريدريك الذي يسميه «سليمان الشمال» على سبيل التبجيل. ونرى إميلي دامعـة العينين، وباريس تسـخر مـن حزنها، وفي سـبيل إرجاعه ضاعفت المساعي لعرض مسرحية له، فهي تعلم حبَّه للمسرح. ولئن أحبَّ ڤولتير

إنجلترا، فقد أحسَّ فيها بالسأم، أما في ألمانيا (ذلك الجزء منها الذي كان يسمَّى بروسيا) فقد كان يشعر بالراحة. وإميلي تغار من الملك الذي خطف عشيقها، لقد أسكره البلاط إلى حدٍّ منعه من الكتابة طوال شهر باستثناء بطاقة من أربعة أسطر لحبيبته، وفي الوقت ذاته كان ڤولتير يبعث قصيدة غزلية إلى أولريكه التي ستصير ملكة السويد.

أناتول فرانس في مباذله

صعدت من فم أناتول فرانس زفراتٌ خفيفة سُمعت في أثنائها لفظة، هي من أحنِّ ما ينطق به إنسان، وهو يقول: «يا أماه!» وغادر الحياة، وبموته أصبح من حقِّ تلميذه ورفيقه جان جاك بروسون أن ينشر كتابه عنه، فقد اتفق أناتول فرانس معه ألاَّ ينشر هذا الكتاب في حياته.

ويُعَد كتاب جان جاك بروسون سيرةً لأناتول فرانس، لكنها ذكرياتٌ من أقوال فرانس في مباذله، أي في حياته اليومية وحواراته؛ حيث يصطحبنا بروسون منذ أن طلب أناتول فرانس مؤازرًا في تأليف كتابه، أي باحثًا ليساعده في البحث التاريخي لشخصية جان دارك، حيث كان يكتب عنها في تلك الفترة، ويصل جان ذلك الفتى القروي إلى بيت أناتول فرانس ويصف لنا البيت والأثاث واللوحات وحياة الكاتب.

يُطلعنا جان جاك بروسون على أسئلة أناتول فرانس له في أول لقاء: هل أنت معتق؟ ولم يفهم معنى الكلمة، فسأله ماذا يقصد؟ كان مقصود أناتول فرانس ما موقفك من الدين والعقائد الدينية، وأخذ أناتول فرانس يشرح أن الإنسان يولد مؤمنًا أو غير مؤمن كما يولد مصابًا بمرضٍ من الأمراض. ثم يحكي لنا في لقاء آخر كيف غضب فرانس من مناداة تلميذه له: «يا مُعلِّم»، وأنه كان يطلب منه أن يوافيه في الصباح الباكر للعمل؛ لأن الفجر هو أحبُّ حبيب إلى آلهة الشعر، ويدخل جان البيت ويصف نزق خادمة أناتول فرانس جوزفين وطول لسانها وحِلم أناتول فرانس عليها

إلا في مرة وصفته بكلمة السهو، فغضب وأخذ يردِّد: سهوان سهوان، هل تعلمين يا أسلط النساء معنى هذه الكلمة؟ السهو أو الغفلة تأتي من خفَّة في العقل، فأنا لست ساهيًا ولكنني مشدوه، وما زال في الطريق يقرِّر درسًا لغويًّا عن أوجه الاختلاف بين سهوان ومشدوه، فهو مشغول بالحياة الداخلية أحيانًا حتى أنه لا ينتبه إلى ما حوله وهذا ليس سهوًا، فالسهوان يمر ببصره على كل شيء فلا يميز شيئًا.

ويحدثنا عن طبيعة يومه، ومكتبته، والتحف التي يقتنيها، ومناكفات فترة الغداء مع أحد الضيوف. ويخرجان للتنزه، فيرى أناتول فرانس أسرة صغيرة ومعها طفل، فيتحدث معه عن شقاوات الأطفال في نثر رائع بديع ولغة آسرة. إنها خواطر في شئون الأدب والحياة والطرائف، ترى فيها أناتول فرانس وهو يسير ويأكل ويناقش ويجادل، وكيف يخاطب الناس ويحدِّثهم، وما هي الألقاب التي يضفيها عليهم.

ينقل لنا جان جاك بروسون أجواء مجلس أناتول فرانس، فعندما يغصُّ الاجتماع بكثيرٍ من السيدات يتدفَّق فرانس كالبحر ويتحدَّث عن الحبِّ والألم والغلمة، وفي لقاء آخر يسأله أحدهم: «لماذا ترتاح الكنيسة إلى التقشُّف وقهر النفس؟ ولماذا تكره المسيحية اللذَّات؟» وعندما يحضر كلمنصو رئيس الوزراء الفرنسي المجلسَ يتناول أناتول فرانس قصصًا سياسيةً، وفي لقاء آخر بعد تغلُّب اليابان على روسيا، يخوِّف من الخطر الأصفر ومن الصين.

أَثر روسُّو

نرى أناتول فرانس ينثر آراءه وهو في صحبة أحد الأدباء عند زيارة قصر فرساي، فيتوقف متحدِّثًا عن أثر جان جاك روسُّو في الأدب؛ إذ

يقول: «إن ما عمله روبسبير بتقاليد المملكة لا يحسب شيئًا في جانب ما خربه هذا الفلاح الصغير روسُّو من أبنية الأدب. فإن غارة الكتابة القصصية كانت أشدَّ هولًا من كل صرخات الثوار، لا بل إن النظام الاجتماعي بعد الانقلاب (يريد الثورة الفرنسية) بقي كما هو تقريبًا، أما نظام الأدب فقد انحلَّت أوضاعه؛ لأن روسُّو بسط أمامنا عيوبه ونقائصه الشخصية، وطفق يحدثنا بنفسه عن نفسه. وهذا الجفاء البرّي الذي أخذه روسُّو من منبته القروي صار هو الطريقة المتبعة في كل أوروبا».

ضريبة المدنية

في الكتاب قصصٌ وحواراتٌ من نقاشات أناتول فرانس، فعندما تثار مسألة المدنية والتقدُّم يثور أناتول فرانس ويتحدَّث عن أثر المدنية والرقي في ضعف قوة الصبر والجلد على النوائب، ثم يقول للحضور: «إن المدنية لا تساعد على الأمل ولا على تحمُّل المصائب»، ثم يقارن بين المعاصرين والأجداد قائلًا: «لقد كانت لديهم وسائلُ مدهشة لاستجلاب المنافع ودرء المضار، وبلاسم يضمّدون بها جراحات الدهر، ولم يكن الأمل والوقار قد فارقا هذه الدنيا؛ لأنهم علموا أن الحياة الدنيا وإن كانت مشوبةً بالأكدار، فإن وراءها حياة سرور أبديَّة، فكان النكد عندهم علامةً على الاصطفاء، والموت مجازًا من دار الظلمة إلى ساحة النور»، ثم يذكر عبارة رقيقة: «كانوا إذا شخصوا بأبصارهم في الصلاة يوقنون بأن بصرًا آخر من العلي ملاقٍ بصرهم».

ويتكلَّم أناتول فرانس عن أثر العلم في زوال السحر عن العالم، وعن عالَمٍ حديثٍ ليس للدين فيه دور في بثّ الأمل والطمأنينة في النفوس،

وفـي الكتـاب نـراه فـي صـورة مفكّـر متشـائم وحانـق ومحـب للمناكفة والمعارضة للآراء السائدة.

حوارات شيقة

سـيرة أناتول فرانس ممتعة، فهو أحد أعضاء الأكاديمية الفرنسـية التي التحـق بهـا خلفًـا لفردينانـد ديليسـبس مهندس قنـاة السـويس، ولـم يكن يذهـب للأكاديميـة إلا نادرًا بسـبب الجفوة بينـه وبين أعضـاء الأكاديمية لمناصرته قضية درايفوس.

ولا نجد في الكتابة وحدةً موضوعية أو تأريخًا لحياة أناتول فرانس أو سـيرة مفصَّلة له، بل شـذرات من آرائه وأفكاره، فترى أحدهم يسـأله عن معنى السعادة أو سِر شهرة بعض الأدباء، وهناك أسئلة عن لذَّة الفكر وهل هـي لـذَّة فعـلًا، وإجابـات أناتـول فرانس تنعشـنا؛ لأنهـا ليسـت تقليديةً، وتدخلنـا فـي خـدر لذيذ مـن التفكير فـي هذه الأسـئلة والنقاشـات. وقد اسـتوقفني نقـاشٌ له يتناول أثر التفكير فـي كل تفاصيل الحياة، وأن الفهم والاطـلاع مرضـان بل انحـلال في تركيب الطبـع. ثم يقـول: «إن نابليون وقيصـر ويسـوع لـم يكونوا ممَّن يطيلون الفكـرة، وبهذا أمكنهم أن يريدوا ويعملـوا ويملكـوا، لقـد كانـوا أقوياء فتولـوا المـدن والأرواح، ولو أنهم أعملـوا عقولهـم فـي الفكر بـدلًا مـن العمل، لكتبـوا هم أيضًـا مجلدات ضخمة». إنه نقاشٌ عن إشكالية التفكير والعمل في الحياة.

شكيب أرسلان مترجمًا

يختـار شـكيب أرسـلان أن ينقـل هـذا الكتاب إلـى العربية؛ لأنـه يعدُّ أناتـول فرانـس آيـةَ فرنسـا الحديثة فـي فنِّ الإنشـاء، ويريـد أن يقول: «إن

أناتـول فرانـس، ذلـك الكاتـب الشـغوف بالنظريـات الماديـة وصاحـب الموقـف المضـاد للعقائـد الدينيـة الذي يصل إلـى الإلحاد، لكـن عندما تتعلق المسـألة بالحفاظ على رصانة اللغـة تراه «أعضَّ الكتَّاب بالنَّواجِذ» على النسق الفرنسي القديم، فهو حفيد راسين في الأسلوب والذي عاش قبلـه بنحـو مـن مائتيـن وخمسـين سـنةً». فالترجمة رسـالة يريد شـكيب أرسـلان أن يقررهـا فـي سياق معـارك التحديـث العربية، وحتـى لو كان الكاتـب صاحـب نظريـات مارقة مثـل فرانس، لكن لا داعـي للتفريط في اللغة.

يختار شـكيب أرسـلان لغـة عالية فـي الترجمة، ويلجـأ أحيانًا لغريب الألفـاظ، وفـي عباراتـه جزالة عربيـة، وأحيانًا نراه يسـتخدم عبـاراتٍ من القـرآن أو من التـراث الأدبي العربي، فيقول مثلًا: «لم يذق أناتول فرانس لُماظًا من السرور إلا في أيام صباه». من يستخدم كلمة لماظ هذه الأيام؟ وعندما يتكلَّم عن عظماء اللغة الفرنسية يقول: «أثمرت أحسن شماريخها بكتابات رابيليه»، أما الشماريخ الآن فهي الألعاب النارية. وعندما يصف حُسـن حـظِّ أناتـول فرانس يقول: «لقد خـرج له القِـدح المُعلَّى في أزلام الحظـوظ». وعندمـا يصـف البـارات ومحـالِّ الخمـور يسـميها: «بيـوت الزراجين»، والزراجين هي الخمور. وعندما يصف الخادم بالهدوء يقول عنه: «غلام سـاكن الطير عبل الجسم سـاجي العينين»، والفونوغراف هو «الحاكي»، وجهاز عرض الصور هو «صندوق المرائي».

وينبهنا شـكيب أرسـلان إلى أنه لم يسـتطع الترجمة الحرفية للكتاب؛ نظـرًا لمـا ورد فيه من المجـون الكثير، ويحدِّد لنـا الصفحات المحذوفة، ويذكـر أن هنـاك فصلًا بعنوان: «الهيجان والغلمـة» تركنا ترجمته؛ لأنه لا

يليق، وصفحة كذا لم نترجمها؛ لأنها أشياء تأباها الفضيلة والعفاف، والكتاب قد يقع في أيدي الأحداث والعذارى. أما فصل «العفَّة» ففيه ما لا يصحُّ نشره بقلمنا، هكذا سوَّغ تركه له. وأما صفحة كذا إلى كذا فهي قصة لا تُروى ولا بالمعاريض، أما الفصل الآخر ففيه ما فيه، وهناك فصل متزايد الخلاعة. وهكذا يذكر شكيب كل مواضع الحذف ويذكر أنها صفحاتٌ فيها مجون لم يجد ما يسوِّغ نقله إلى العربية. وقد ذكَّرني صنيعُ شكيب أرسلان بانصراف عادل زعيتر - رحمه الله- عن ترجمة اعترافات روسُّو؛ لأنه وجدها لا تليق. ويسوِّغ لنا شكيب أرسلان كثرة المجون في النص الأصلي للكتاب؛ فيذكر أنها كانت أحاديث تبذُّل، وكلمات كان يرميها أناتول فرانس على عواهنها لا لتنشر، بل ليسرِّي بها عن نفسه، لكن بروسون التقط هذه الممازحات والنكات ونشرها. ولعل من يدرس فنَّ الترجمة يجب أن يذكر تجربة شكيب أرسلان، سواء تجربته على مستوى اللغة أو رؤيته لقضية حذف بعض النصوص من الكتاب المترجم. وقد ترجم شكيب أرسلان الكتاب في مرسين عام ١٩٢٥ في ثلاثة أشهر لا غير.

والخلاصة أن أناتول فرانس في حديثه كان أشبه بثريًا تشعُّ أنوارها من كل جهة، أو شلَّال يرشق الأخبار والشواهد رشقًا، بحيث يخرج السامع من عنده مخبولًا مندهشًا، والكتاب يطلعنا على شواهد من هذه الأنوار، رغم التهذيب. وليته حافظ على الأصل المُترجَم، حتى نقف على حقيقة الرجل، وحتى تستحق الترجمة عنوانها **أناتول فرانس في مباذله**.

صور أدبية:
جوركي متحدثًا عن تولستوي وتشيخوف

تولستوي: سمكة المحيط وزوجته صوفيا

يستهل جوركي الحديث عن ليو تولستوي بقوله: «من الواضح أن الفكرة التي تلحُّ على تدمير راحة باله أكثر من غيرها هي فكرة الله... وتولستوي لا يتحدَّث عن هذا الشعور بقدر ما يحب وإن كان يفكِّر فيه بلا انقطاع»، ثم يصف لنا يدي تولستوي بأنهما: «عجيبتان وقبيحتان، وتشوههما عروق متورمة، ويده تشبه يد ليونارد دافنشي، ويحرك أصابعه ويثنيها بالتدريج ويبسطها بينما ينطق بكلماتٍ رائعة لها وزنها»، ثم إن تولستوي يخصُّ أحدهم بحنانٍ يوشك أن يكون أنثويًا، ويخصُّ تشيخوف بمشاعر الأبوَّة.

وينقل لنا جوركي خواطر تولستوي وهو يستمع لعزف الموسيقى، يقول تولستوي: «الموسيقى تبلِّد العقل». ويشبِّه لنا تولستوي بهؤلاء الحجَّاج الذين يذرعون الأرض وعصيهم الغليظة في أيديهم، وطوال حياتهم يقطعون آلاف الأميال من دير إلى دير. وينقل لنا أجواء أمسياته مع تولستوي وهو يقول: «الرومانسية هي الخوف من النظر إلى الحقيقة في عينها». أما رأيه في الفرنسيين، فهو أنهم يعبدون اللذَّة وحياة الروح لا تهمّهم كحياة الجسد، وأهم شيء عند الرجل الفرنسي المرأة. وعندما

يجادلـه أحد مريديه يبتسـم تولسـتوي له قائـلًا: «أنت اليوم شـكس كفتاة نضجت للزواج ولا خطيب لها».

يتخيَّل مكسيم جوركي تولستوي سمكةً، لكنه سمكة محيط، وما كان ليسـبح أبدًا في البحار الداخلية. ويبرع جوركي في تفسـير رغبة تولستوي فـي التعـرف إليه؛ إذ يقـول: لقد اهتمَّ بـي اهتمامَ عالـم الإثنوغرافيا (علم طبائع الشعوب وعاداتها). فقد كان جوركي عضوًا في «قبيلة»، لا يعرفها تولسـتوي ولا يعرف عنها إلا القليل. إنه يقرِّب لنا صورة تولسـتوي ذلك العجـوز المغـرم بالحديث عن النسـاء مثـل روائي فرنسـي، لكنه يتحدَّث عنهنَّ بخشونة الفلاح الروسي، إنه يشاكس تشيخوف ويسأله: «هل كنت فاجرًا في شـبابك؟» ويتلعثم تشـيخوف ويبتسـم في وداعة الحَمَل، ويشدُّ لحيته الصغيرة، وينتهز تولستوي الفرصة ليحكي عن مغامراته في شبابه.

لقد برع جوركي في وصف لوحاتٍ تقرِّب لنا أجواء تفكير تولستوي، فهـو جالـس علـى مقعـدٍ حجريٍّ تحـت أشـجار السـرو، متغضنًـا صغير الحجم، أشـيب، يسـمع لطائر حسون يغنِّي، ثم يناقش جوركي عن الغيرة قائـلًا: «هنـاك لحظات يقـول فيها الرجل للمرأة عن نفسـه أكثر مما ينبغي لها أن تعرف، وبعدها ينسى أنه قال لها، أما هي فتتذكَّر دائمًا».

وهل هناك مدح أجمل من أن يقول تولسـتوي لجوركي: «أنت تروي الأشـياء روايـةً جيـدةً بكلماتـك أنت، وفـي اقتنـاعٍ لا بحذلقـة الكُتْبيين». ومواضيـع الأحاديث المحبَّبة إلى تولسـتوي هي: الله، والفلاح، والمرأة. أمـا الأدب فهو لا يتحدَّث عنه إلا نادرًا، وهو يجلس لمناقشـة تشـيخوف عن اعترافات جان جاك روسُّو.

تولستوي في حياته اليومية هو ذلك الرجل الذي يحبُّ لعب الورق، ويلعبه بشغف متهالك ويهتاج أحيانًا وهو يلعب. لقد تحدَّث تولستوي إلى جوركي مرارًا وطويلًا، وكانا يتبادلان الزيارة، وقد قرأ جوركي كتبه، وقرأ على تولستوي بعض ما كَتبه، وهو يراه يستحقُّ وصف العبقرية، ويصفه بأنه باهر.

ثم يكتب جوركي فصلًا بديعًا يدافع فيه عن صوفيا زوجة تولستوي، ويحاول أن يردَّ عنها ما أُشيع عنها من مساوئ، هذا رغم أنها لم تكن تحبه، وكانت تعدُّه هو ومعظم المحيطين به ذبابًا وبعوضًا أو طفيلياتٍ. وهذا الفصل جدير بأن يُدرَّس للصحفيين ومَن يعمل في مهنة الإعلام وكل المهن التي تختلط فيها النميمة بالخبر، فهو درس في النبل وتقدير أدوار الناس. وفيه ردٌّ صارم على ضَعَة الكثيرين الذين جعلوا من حياتها هدفًا للذم والتبخيس، وهو يخبرنا أنها امرأةٌ عاشت خمسين سنةً شاقة مع فنان عظيم قلق، وكانت صديقته الحقيقية طيلة حياته، وكانت تساعده مساعدةً فعَّالة في عمله، ثم غلبها على أمرها إرهاقٌ شنيعٌ. هذه حقيقة يمكن فهمها.

تشيخوف: حياة رجل نبيل

لا أستطيع أن ألخص كلَّ فصول الكتاب الجميل، لكن الفصل الذي كتبه جوركي عن أنطون تشيخوف جميلٌ، وفيه رهافة الفنان، وكان اختيارًا موفقًا من دار رادوغا الروسية أن تنشر ذلك الفصل في مقدمة الأعمال الكاملة لتشيخوف. يحكي لنا جوركي عن زيارته لبيت تشيخوف وأمنيته أن يبني مصحَّةً لمعلِّمي القرية المرضى، بناءً مليئًا بالنور، فيه نوافذ واسعة

وأسقف عالية، ثم يخجل من الحديث عن أحلامه. ويشرح لنا جوركي أن هذا أسلوب تشيخوف: يتحدَّث لحظة في حرارة وفي جدٍّ وإخلاص، ثم يضحك من نفسه ومن كلماته في اللحظة التالية، ووراء ضحكته الرقيقة الآسية تستطيع أن تحسَّ بالشكِّ الذكيِّ لرجل يعرف قيمة الكلمات وقيمة الأحلام، وكان في ضحكته ظلٌّ من تواضعه الجذاب ومن رقَّة وجدانه أيضًا.

ويشاركنا في جلسة أتى فيها أحد الزوار إلى بيت تشيخوف، حيث أتى المعلِّم إلى الكاتب الشهير وهو يرتعش داخل ملابسه كأنه ذاهبٌ إلى لقاء أحد رؤسائه، منتفخًا كالديك الرومي وهو حازمٌ أمره على أن يُري تشيخوف أنه يساوي شيئًا. تلك كانت كلمات الرجل سمعها جوركي، ثم ذكر أنه يشعر الآن وهو منصرف من بيت تشيخوف أنه يفارق صديقًا عزيزًا طيبًا يفهم كل شيء، وهو يحمل فكرة ثمينة، وهي أن العظماء أبسطُ من سائر الناس وأكثر فهمًا، هكذا يستمر جوركي في تقريب حياة تشيخوف لنا بقصصه وحكاياته عنه حتى نحبه.

ثم يخبرنا أن كلَّ امرئ كان يشعر في مجلس تشيخوف برغبة غير واعية في أن يكون أبسط وأصدق وعلى سجيته، وأن تشيخوف لم يكن يحِبُّ الحديث عن الموضوعات العالية، بل يحبُّ الأحاديث التي يتسلَّى بها الروس من قلوبهم البسيطة، وأن تشيخوف كان يحبُّ البساطة، وأن له طريقته الخاصَّة في جعل الآخرين بسطاء، ثم يكتب عبارةً غايةً في الإحكام عن تشيخوف؛ يقول جوركي: «كان تشيخوف يتقن فنَّ هتك

الأقنعة عن وجه السوقيَّة في كل مكان، وهو فنٌّ لا يتفوَّق فيه غير رجل مطالبه من الحياة رفيعة، فنٌّ ينبع من رغبته الملحَّة في أن يرى البساطة والجمال والاتساق في الإنسان». إنه تشيخوف الذي شبَّه النقاد بذباب الخيل. لقد كان قاضيًا قاسيًا، عديم الرحمة بالسوقية والابتذال وعدم الصدق.

ويستمر الكتاب على هذا المنوال؛ فيشتمل على قصص وصور أدبية لشخصياتٍ روسية مشفوعة بالحديث عن أجواء عصرها الأدبي، مع ترجمة بديعة لألفريد فرج.

أنفاسي الأخيرة:
مذكرات لويس بونويل

هـذه هي القراءة الثانية لمذكرات المخرج لويس بونويل التي صدرت عن وزارة الثقافة السورية بترجمة رائعة لمروان حداد، قرأتُها أول مرة وأنا فـي سـنوات الجامعـة، ثم أعـدتُ قراءتهـا مستشـعرًا المتعة نفسـها. تبدأ المذكـرات بحديثٍ عـن الذاكرة في حياة الإنسـان، ويحكي بونويل قصةً مؤثـرةً عن والدته التي فقدت ذاكرتها، فكانت تطلب المجلة منه لتقرأها، ثـم يأخـذ المجلـة ويقدِّمها لهـا فتقرأها بنفس الشـغف والاهتمـام، وهي المجلة نفسـها التي قرأتها قبل أيام. فهو يشـعر بالقلق والضيق من ضعف ذاكرته؛ ولذلك يبادر بالكتابة عن حياته. إن حياةً بلا ذاكرة ليسـت بحياة؛ فالذاكرة هي تماسُكنا، وعقلنا، وحركتنا، وشعورنا، ومن دونها لسنا شيئًا، والكتاب هو عبارة عن الذكريات.

قرية من العصور الوسطى

وُلد لويس بونويل عام ١٩٠٠ في قرية كالاندا في إسبانيا، وهو يحكي لنـا أن ظـلال حياة العصور الوسـطى ظلَّـت في قريته إلى مـا قبل الحرب العالمية الأولى، فقد كانت قريةً ومجتمعًا منعزلًا وساكنًا. الفوارق الطبقية واضحة جليَّة؛ إذ تخضع الطبقة العاملة للسـادة الإقطاعيين، وكانت هناك أجراس الكنيسة التي تدقُّ عند موت أحدهم وفي القداسات والصلوات،

ولـم يكن للغرباء وجود في هذه القرية الوادعة، ولـم تشـهَد القرية سـيارةً واحـدةً حتـى عـام ١٩١٩، وشـاعت فـي القريـة بعـض الخرافـات عـن معجزات القديسين.

كانت أسرة بونويل تتناول العشاء في حديقة البرج ثم تعود آخر الليل، حيـاة كسـولة، لا يتهدَّدهـا شـيء. لقـد كانوا آخـر ممثِّلين للنظـام القديم، فهنـاك ندرة للمبـادلات التجارية، وإطاعة تامَّة لدورات الحياة، وسـكون للفكـر. كانـت مَعاصِـر الزيـت هـي الصناعة الوحيـدة في هـذه المناطق، وكانـت المواد الأخـرى مثل الأقمشـة والصناعات المعدنيـة تصلهم من الخارج، ويتعيَّش المجتمع على الزراعة، وثمة حرفٌ يدوية تشبع حاجات الناس.

ولعل وصف بونويل لقريته يذكِّرنا بحديث سـتيفان تسـڤايج عن عالم الأمن قبل الحرب العالمية الأولى في ڤيينا، فالعالم في وجدان الناس قبل الحـرب العظمى مترامي الأطراف، ويهـزه العديد من الأحداث، لكن لم يكـن الجميـع يتأثر بهـا، وقلَّما تثيـر اهتمامهم، فالأخبـار لا تصل إلا بعد مـرور وقـتٍ طويـل من انقضـاء الحدث. فـي المراهقـة درس بونويل في مـدارس اليسـوعيين، ومـن خـلال الكتب زاد مجـال اطلاعه، واكتشـف سبنسـر وروسُّـو وحتى ماركس، أمـا قراءته لـ **أصل الأنـواع** لداروين فقد بهرته، وأتت على ما بقي من إيمانه.

مدَريد: المدينة الجامعية (١٩١٧ - ١٩٢٥)

ينتقـل لويس بونويل إلى مدريد للدراسـة فـي المدينة الجامعية، حيث تتاح له الفرصة لرؤية العديد من الأدباء وعقد أواصر الصداقة مع الفنانين.

وكانـت إسـبانيا آنذاك تعيـش فترة هادئة نسبيًّا. كان الحـدث الكبير ثورة عبد الكريـم الخطابـي فـي بلاد المغـرب، وكذلك الإخفـاق الكبير الذي عانت منه القوات الإسـبانية في «أنوال» ١٩٢١. تعرَّف بونويل إلى شقيق عبد الكريم الخطابي في مدريد، وكان هذا سببًا في أن الإسبان رغبوا في إيفاده إلى مهمَّة في المغرب لكنه أبى، وانضمَّ للجيش عامًا كاملًا.

وخلال ليالي المناوبة، تعرَّف إلى أمر جديد عليه، وهو «الحسد»، فقد كان الجنود خلال فترات الحراسـة ينامون بألبستهم، بل حتى بأسلحتهم، وتصيبهـم حشـرات البـقّ ويعانون من البرد، أما في الغرفـة المجاورة فقد كان ضبـاط الصـف يلعبـون الـورق، إلـى جـوار مدفأتهـم الكبيـرة، وهم يتناولـون كأسًـا بعد آخر من النبيذ الجيـد. وكان أكثر ما يرغب فيه بونويل خلال تلك اللحظات هو أن يكون ضابط صفٍّ ويتمتَّع بالدفء، ومن بين الخطايا السـبع يكره بونويل الحسـد بشـكل حقيقيٍّ، فالحسد هو الخطيئة الوحيـدة التـي تدفعنـا -بشـكل لا يمكـن تفاديه- إلـى أن نتمنَّـى الموت لشخصٍ آخر تجعلنا سعادتُه تعساء.

فـي هـذه السـنوات تعـرَّف بونويـل إلـى رفائيل ألبرتـي، وإلى الشـاعر فيديريكو غارثيا لوركا، وإلى الرسام سلفادور دالي. ويصف بونويل لوركا بأنه لامع ولطيف، مع ميل واضح للأناقة، وأنه كان ذا جاذبية ومغناطيسية لا يمكن لأحدٍ مقاومتُهما. قَدِمَ لوركا إلى مدريد للدراسـة، ثم انخرط في الحياة الأدبية. وعلى الرغم من تناقض شـخصيتيهما، فقد نشـأت صداقة بيـن بونويـل الأرغونـي الفظّ ولـوركا الأندلسـي الصافي، وقـد أمضيا معًا سـاعاتٍ كثيـرة، وأفـاد بونويل مـن صداقة لـوركا في التعرف إلى الشـعر،

خاصةً الشعر الإسباني، وعرَّفه لوركا بكثير من الكتب، ويحكي لنا بونويل أن لوركا لم يكن مؤمنًا، إلا أنه تربَّى على مفهوم فنيٍّ عميقٍ للدين.

أما الصديق الآخر فقد كان الرسام السريالي سلفادور دالي، وكانوا يدعونه في المدينة الجامعية بالرسام التشيكوسلوفاكي للسخرية منه، وذات صباح كان بونويل يمر أمام غرفة دالي وكان الباب مفتوحًا، ورأى بونويل لوحةً بحجم كبير وأعجبته أيَّما إعجاب، وفي الحال ذهب إلى لوركا وغيره فقال لهم: «الرسام التشيكوسلوفاكي يعمل على إنجاز لوحة جميلة جدًّا».

في الكتاب وصفٌ لشخصية دالي، فهو فتى خجول، ذو صوتٍ أجش وعميق، وشعر طويل قصَّره فيما بعد. كان لديه ذوق غريب في الملابس، وكان يعطي الانطباع بأنه يفعل ذلك بدافع الإثارة أو لفت الأنظار، لكن بونويل يذكر أنه كان يفعل ذلك بكل بساطة؛ لأن ذلك يروق له، ويتعرض لشتائم الناس في الشارع بسبب مظهره الغريب.

كتب دالي الشعر وشارك لويس بونويل في كتابة سيناريو فيلمه كلب أندلسي. وفي إحدى المرات، كان على دالي أن يتقدَّم للامتحان في كلية الفنون الجميلة، وجلس أمام هيئة الامتحان الشفهي وصرخ: «لا أعترف لأيٍّ من الجالسين هنا بالحقِّ في امتحاني، أنا ذاهب». إلا أن صداقة بونويل ودالي قد ضعفت بعد ارتباط دالي بغالا، وأصبح عاشقًا لرائحة الدولار.

حصل بونويل على إجازة في الفلسفة، وعاش حياة صاخبة قضاها في النزهات والسُّكر والأدب بصحبة لوركا ودالي، وكان يودُّ الرحيل عن مدريد، لكنه انتظر الفرصة التي لاحت بوفاة والده عام ١٩٢٥.

باريس (١٩٢٥ - ١٩٢٩)

اندهش بونويل من الحياة في باريس، اندهش من تبادل القبلات في الشارع، هذا التصرف الذي كان يُفصِح عن هوة بعيدة ما بين فرنسا وإسبانيا، وكذلك إمكانية أن يعيش رجل وامرأة معًا دون زواج. وكانت باريس العاصمة الفنية للعالم، جمعت خمسة وأربعين ألف رسام ... وهو رقم مدهش بلا ريب.

وفي أحد الأستوديوهات تعرف بونويل إلى بيكاسو الذي طبقت شهرته الآفاق، وبدا لبونويل أن بيكاسو بارد وأنانيٌّ، ويعلِّق بونويل أنه لا يحبُّ لوحة «غيرنيكا» ولا تعجبه على الإطلاق، على الرغم من أنه ساعد على تعليقها. ينفِّره كلُّ ما يتعلَّق بها، سواء الأسعار الفلكية لأعمال بيكاسو، أو التسييس على حساب الفن، وقد مزح بونويل مع أحد أصدقائه فذكر أنه يتمنَّى لو يفجِّر الغيرنيكا، لكنه أصبح مسنًّا ولا يستطيع ذلك.

يسرد بونويل قصصه سردًا جميلًا وبخفَّة ظل تجعلك تبتسم وأحيانًا تضحك من روحه اللطيفة. يخصِّص فصلًا عن الحانات، فهي المكان الذي قضى فيه ساعاتٍ حلوة، ولا يتخيَّل الحياة من دونها، ولا تتماثل الحانة لديه مع المقهى، والمقهى عنده ثرثرة، ولقاءٌ بالقادمين والذاهبين والصخب النسائي، أما الحانة فهي مكان مناسب للتأمُّل والعزلة. ولا

يكتفـي لويـس بونويـل بسـرد تجاربـه مـع الحانـات، ولكنه يتحـدَّث عن تجربته مع التدخين والتبغ وعن الرغبة والحبِّ في مذكراته الصريحة.

يحكـي لنا قصة فكرة «بار طلقة المدفع» التي خطرت له في نيويورك، خـلال الأربعينيـات، حيـث كان صديقًـا لخـوان نيغريـن، نجـل رئيـس الحكومة الجمهورية، ولزوجته الممثلة روستيا ديات؛ إذ ذات يوم خطرت لهم فكرة إنشـاء بار باسـم «طلقة المدفع»، تكون أسـعاره مرتفعةً بشـكل مذهل، أغلى بار في العالم، لا تُقدَّم فيه إلا المشروبات الفاخرة، المنتقاة بعناية فائقة غير معتادة، والمستجلبة من شتى أرجاء العالم.

يجـب أن يكـون بـارًا حميمًـا، مريحًا جـدًّا، ذا ذوقٍ رفيـع، وبالطبع لا يجوز أن يزيد عدد طاولاته على العشـر؛ وعلى الباب لكي تكون التسمية متطابقـة، سـيوضع مدفـع قديم، بفتيـل بارد وبارود أسـود، يطلـق في أية سـاعة من النهار أو الليل، في كل مرة يبلغ فيها ما ينفقه أحد الزبائن ألف دولار. هذا المشـروع اللطيف، والمفتقر إلى الروح الديمقراطية، لم يبلغ مرحلـة التنفيذ، وبقي مجرَّد فكرة عابرة، وكم كان من الممتع تصوُّر ذلك الموظف البسيط الذي يسكن بجوار البار، وهو يستيقظ على صوت طلقة مدفع قائلًا لزوجته: «قليل أدب آخر أنفق ألف دولار».

في الكتاب حديثٌ عن ظروف كتابته وإخراجه لأفلامه العديدة، وعن أثـر الأحـلام فـي حياتـه. ويشـرح بونويـل باسـتفاضة علاقاتـه بجماعـة السرياليين الذين انتمى إليهم في باريس، ثم انتقاله إلى أمريكا وبالتحديد إلـى هوليوود، وهـو يفصِّل القول فـي حياته وتجربته خـلال تلك الفترة، ويصف لنا تعرفه إلى شارلي شابلن وشخصيته، ثم سفره إلى المكسيك،

حتى الكتب التي يحبها، مثل دون كيخوت وكتب الماركيز دو ساد، والكتب التي لا تعجبه، مثل الكوميديا الإلهية لدانتي، وحبه لموسيقى فاغنر. ولا يفوته أن يعلن أنه لا يستلطف العميان، وبالأخص خورخي لويس بورخيس، فهو متغطرس وعابد لذاته ويهتمُّ بأجوبة تلفت انتباه جائزة نوبل له.

إن أكثر ما يكره بونويل في حياته: الحذلقة والرطانة، هذه الظاهرة الباريسية المعروفة، وكذلك التكلُّف؛ ولذلك لا يعجبه الفولكلور الرسمي المنظَّم. ويصرِّح بونويل بأن كثيرًا من الأدباء الأمريكان لم يكونوا شيئًا لولا المدافع الأمريكية، ومن هؤلاء شتاينبك وهمنجواي، إنها سلطة البلد الذي يقرِّر من هم الكُتَّاب العظام.

إنها مذكراتٌ ممتعة تدخلك في أجواء هذا العصر بصراعاته وأحداثه، والترجمة ممتعة ولا تخذلك، إنه قلم مروان حداد.

القسم الرابع

سِير المترجِمين

عادل زعيتر:

شيخ المترجِمين وابن نابلس

«لا نـرى أن نسـهب فـي بيـان المصاعـب التـي قاسـيناها فـي تذليـل موضوعـات الكتاب واصطلاحاته العلميـة الكثيرة وإعادة المئات من أسـماء الأعـلام المحرَّفـة، فكنَّـا نقضـي عدَّة سـاعاتٍ كـي نعثر على الأصل العربي للاسم الواحد»

عادل زعيتر

حفـظ الله نابلـس التي وُلد بها عـادل زعيتر. هكـذا ردَّدت هذا الدعاء بعـد قـراءة العديد من ترجمات زعيتر، فقراءةُ هـذه الترجمات متعةٌ عقلية وأدبية في آنٍ معًا، مع أمانة النقل ونصاعة التعبير العربي.

ولـد عـادل زعيتر فـي مدينة نابلـس عـام ١٨٩٧، ودرس الحقوق في فرنسـا، وكان عضـوًا فـي مجمعـي اللغة العربية بدمشـق وبغـداد، وعمل بالمحاماة، وعكف على الترجمة منذ عام ١٩٤٦.

توفَّـر عـادل زعيتر علـى ترجمة العديد من الكتب التـي ذاع صيتُها في القرن الثامن عشـر، فقد ترجم لروسُّو كتابيه **العقد الاجتماعي** و**إميل (في التربية)** و**أصل التفاوت بين الناس**، وترجم لمونتسكيو كتابه الرئيس **روح الشرائع**، وترجم لڤولتير **رسائله الفلسفية** وروايته **كنديد (التفاؤل)**.

والسـؤال هنـا: هـل مـا زالـت هـذه الكتـب تسـتحقُّ اهتمـام القـارئ المعاصر؟

روح الأنوار

كانت اختيارات زعيتر للترجمة تنمُّ عن ثقافة ومشروع معرفيٍّ، حاول فيـه تذليـل كتابات عصر الأنوار إلـى اللغة العربية، ومن بيـن الكتب التي تعبِّـر عـن هـذا المشـروع المعرفي كتابـا جاك روسُّـو **أصل التفـاوت بين الناس**، فقد نشره روسُّو عام ١٧٥٥، ويُعَد مدخلًا لكتابه **العقد الاجتماعي** وسابقًا عليه. وقد أثار روسُّو جدلًا بكتبه، وأصبح كتاب **العقد الاجتماعي** إنجيل الثورة الفرنسية بعد ثلاثين عامًا من تأليفه، ولروسُّو عقلية فذَّة، غير أن آراءه تُقبـل أو تُرفـض علـى حسـب الميـول العقليـة للقـارئ، ولكتب روسُّـو قيمتها في الانتقال بعالم الفكر السياسـي من النظرية التقليدية عن الدولة في القرون الوسطى إلى الفلسفة السياسية الحديثة.

أما عن رواية ڤولتير **كنديد** أو التفاؤل، فقد انتشـرت بسـرعة هائلة في زمنـه، ولـم يتوقـف طبعها منذ نُشـرت أول مرة، وكان يسـود عصر ڤولتير مبدأ التفاؤل القائل: «إن كل شيء هو أحسن ما يكون في أحسن ما يمكن من العوالم». ومع حرب السنين السبع عام ١٧٥٦، وعدَّة كوارث طبيعية مثل زلزال لشبونة عام ١٧٥٥، حمل ڤولتير على مذهب التفاؤل حملةً لا هوادة فيها.

إن راهنيـة كتابـات أفكار عصر الأنوار لا تزال مما يثير الجدل، فالقرن الثامـن عشـر هو قـرن ڤولتير ومونتسـكيو وروسُّـو، ورغم النقـاش الذي يخوضـه المثقفـون عـن قيمة أنوار هـذا العصر، والحديث عن الاسـتنارة

المظلمة وجدل التنوير، فإن القيمة الحقيقية لهذه الترجمات التي أتاحها لنا زعيتر هي النفاذ إلى الذهنية التي كانت سائدةً في القرن الثامن عشر، وهي ذات أثر بالغٍ في تاريخ أوروبا الفكري وروحها ومقدمات ثورتها الكبرى، أعني الثورة الفرنسية، الفائدة واضحة عند من يؤرِّخ لتطوُّر الأفكار وآليات تغلغلها في المجتمعات. مع كون هذه الترجمات فصلًا في التاريخ الثقافي العربي المعاصر في تعرفه إلى الأفكار الغربية.

ويجدر بنا الانتباه لملحوظة العروي التي ذيَّل بها ترجمته لكتاب **دين الفطرة** لروسُّو، وكتاب مونتسكيو **تأملات في تاريخ الرومان**، وأسبابه في إعادة ترجمة مفكري القرن الثامن عشر وقراءتهم، فهو يُخضع اختياره لنصِّ روسُّو للترجمة لخطة نقدية، يشرحها بكون الفكر الغربي لم يقترب من تمثُّل الفكر الإسلامي إلا مرة واحدة، وذلك أواسط القرن الثامن عشر الميلادي، وقبل ذلك التاريخ كان الحاجز هو المعتقد الديني، وبعده كان المانع هو سد الاستعمار، أي قبل الثورة الفرنسية.

جوستاف لوبون

على هذا النحو كان اهتمام مترجمنا القدير عادل زعيتر بهذه الحقبة الزمنية الفارقة وبترجمة كتبها إلى العربية والتعريف بأعلامها. ونجده على صعيدٍ آخر قد اهتمَّ بكتابات جوستاف لوبون، الطبيب والمؤرخ الفرنسي الذي جاب الآفاق وسافر حول العالم، فكتب عن **حضارة العرب** و**حضارة الهند**، و**روح الثورات**، و**روح السياسة**، و**الآراء والمعتقدات**. ويبدو إعجاب زعيتر بكتابات لوبون، التي قد يتنازع مؤرِّخو الفكر في مدى قيمتها الفكرية الآن ظاهرًا؛ فكتابه **حضارة الهند** تنافسه

الدراسات الحديثة التي كتبها الآسيويون المُحدَثون عن الديانة الهندية، وتفاصيل المعتقدات الهندوسية والبوذية، مع الكشوف الأثرية الحديثة.

لكن سبب اهتمامه بهذا الكتاب هو خلو المكتبة العربية آنذاك من كتاباتٍ تغطي تاريخ الهند وحضارتها العريقة. وقد أنفق مترجمُنا في سبيل ترجمة هذا الكتاب أوقاتًا عسيرة، ولاقى مصاعب جمة يقدِّرها القارئ، ولا سيما في ظل ما أخذ به نفسه من دقة في ضبط الأسماء الخاصَّة بالأعلام والمعتقدات من خلال حصوله على كتب وجداولَ من الهند؛ ليخرج الكتاب مُشبَعًا بروح الأمانة في النقل.

ويبدو أن موقف لوبون المدافع عن حضارة المسلمين قد لاقى رضا زعيتر، وكان أكبر حافز له في عمله، فحرص على نقل كتبه إلى العربية. والحقُّ أن اهتمام المثقفين العرب بجوستاف لوبون قديم؛ فقد ترجم أحمد فتحي زغلول باشا شقيق الزعيم سعد زغلول كتابات لوبون عام ١٩١٣، لكن زعيتر وجد في هذه الترجمات ما يطعن في دقتها وأمانتها، فحرص على إعادة ترجمتها مرةً أخرى.

حياة الأبطال

هل كان المزاج العام في أواسط القرن الماضي يقبل تضخيم دور البطل في حركة التاريخ، ويجد في كتابات كارليل مذهبًا مقبولًا في تفسير لحظات التاريخ الفاصلة؟ أغلب الظن أن هناك مزاجًا علميًّا روَّج لهذا المذهب، الذي خَفَتَ بريقُه لاحقًا، وتوجَّه الاهتمام شطر مدرسة التأريخ من أسفل، وتاريخ المهمَّشين. وفي هذا الوقت، كانت كتب التراجم تستولي على عقول المثقفين؛ حيث كتب العقاد مثلًا العديد من الكتب في هذا الفن، وكان يحب هذا النمط من الكتابة، وترجم عادل زعيتر

العديد من الكتب في هذا الباب أيضًا؛ مثل: كتاب **نابليون** لإميل لودڤيغ، وكتابي **كيلوباترا** و**بسمارك** للودڤيغ أيضًا، حتى كتاب **البحر المتوسط** وكتاب **نهر النيل**، الذي كتبه إميل لودڤيغ وكأنه يترجم لشخصية، فخرج الكتاب بطريقة مشوقة يحكي التاريخ الشخصي للنهر والبحر. وقد قضى لودڤيغ ستَّ سنواتٍ يجمع موادَّ كتابه عن نهر النيل. وكانت ترجمة هذا الكتاب هديةً صغيرةً -بتعبير زعيتر- لأبناء وادي النيل، معبِّرًا لهم عن ودِّه ومحبته لمصر، حيث يصفها بالبلد الكريم الذي أحبه كثيرًا.

حياة عادل زعيتر

في حياة شيخ المترجمين دروسٌ نافعة نذكر منها أمانة النقل، والدقَّة، فقد أنفق ما كسبه من الترجمة وما حصل عليه من مال على نفقات السفر والقدوم إلى مصر ليراجع مسوَّدات ترجماته، ويتأكَّد من دقَّة ما صفته المطبعة.

وفي سيرة الرجل تبتُّل للعلم وللمعرفة، فمهنة الترجمة مهنةٌ جاحدة، تأكل من العمر ومن الجهد، في سبيل تذليل نصٍّ أعجميٍّ غريب، لينطق بلسان الضاد، ولعله كان محقًّا حينما كان يردِّد هذا البيت:

غَزَلتُ لهم غَزلًا رقيقًا فلم أَجِد
لِغَزلي نَسَّاجًا فَكَسَّرتُ مِغزَلي

ولقد استمتعت بترجمته لكتاب **الحياة والحب** لإميل لودڤيغ، ففيه متعة عقلية ونفسية خالصة؛ إذ يكشف عن أفكار تتعلَّق بعظمة المعنى

الـذي كان يهتـزُّ لـه زعيتر، حينمـا ترجم للأبطـال من التاريخ، وللسـعادة والحب، وكلها معانٍ راقية تخاطب الوجدان الإنساني في أعلى ذراه.

توفـي عـادل زعيتر في عام ١٩٥٧ عن اثنين وسـتين عامًا. مات زعيتر وقلمه ونظارته أمامه وهو يترجم الجزء الثاني من كتاب **مفكرو الإسـلام**، الـذي لـم يبـقَ من صفحاتـه لينهي ترجمته غيـر أربع صفحـات. لقد لفظ زعيتـر أنفاسـه وهو يعمـل بإخلاصٍ وأمانـة، وما كتبه وديع فلسـطين عنه يصلـح لتأبيـن الرجـل وتجديـد ذكـراه؛ إذ يقول عنـه: «كان عـادل زعيتر جامعةً وحده، ومجمعًا وحده، ومثل عادل زعيتر ظاهرة لا تتكرَّر في كل قرنٍ من الزمان».

ولا أريد في نهاية المقال أن أزعج الرجل في قبره بنسبته إلى نابلس أو فلسـطين التـي كان يضيـق بالنسـبة إليهما، فـكان يرى في هذا الانتسـاب تصغيرًا لانتمائه العربي الأكبر، فهو ينتسـب إلى وطن عربيٍّ جامع لا إلى قرية صغيرة.

لقـد غـزل كلُّ أميـنٍ مغزلًا لا ينقض بتقـادم العهد، وزعيتـر في مقدمة هؤلاء؛ لأن عمله سـقاه من روحه ومن فنِّه ومن حرصه على حيوية روح أمته، وأن تحيا فيها المعاني الكبرى التي دارتِ حولها ترجمات كتبه.

سامي الدروبي:
مترجم ديستويفسكي السوري

«كان سامي الدروبي مؤسسة كاملة»

طه حسين

«يا إحسان، سامي ليس ملكًا لك، إنه ملكٌ لقرائه». هذه العبارة التي قالتها لإحسان بيّات، زوج سامي الدروبي، إحدى صديقاتها، جعلت الزوجة تنشط لجمع ما يخصُّ مسيرة حياة سامي الدروبي الثقافية في كتاب، وتسجيل ذكرياتها معه.

إنه المترجم السوري الشهير الذي ترجم وقدَّم الأعمال الكاملة لديستويفسكي باللغة العربية في ثمانية عشر مجلدًا. وُلد سامي عام ١٩٢١ بمدينة حمص، والتحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة عام ١٩٤٢، ثم عاد وعمل معيدًا في جامعة دمشق، وفي عام ١٩٥٢ عُيِّن مدرسًا ثم أستاذًا في كلية التربية.

قصة حب وزواج، وديستويفسكي شاهد

التقت إحسانُ بزوجها سامي في إبريل/ نيسان عام ١٩٥٤، وفي الكتاب نرى وصفها الصادق والعفوي لبدايات الإعجاب والحب بينهما

في الجامعة وتقربه منها وطلبه يدها، وهي تسجل ذلك كله بقلم المحبّ، فكنتُ أقرأ وأبتسم من عفويتها وطرافة التفاصيل التي توردها.

ساعدت إحسان زوجها سامي في أعمال الترجمة، فكان يمسك بالنص الفرنسي ويملي عليها الترجمة وهي تكتب؛ لأن هذه الطريقة توفر كثيرًا من الوقت، وكان أول عمل مشترك بينهما ترجمة رواية **مُذلُّون مُهانون** لفيودور ديستويفسكي. عندما سألته زوجته: لماذا انصرفت اهتماماتُك إلى ترجمة ديستويفسكي؟ أجابها بأنه بدأ يقرأ ديستويفسكي منذ سن السادسة عشرة، فما انقضت بضع سنين حتى أتى على كل كتبه وأعاد قراءتها غير مرة، وأضاف أن ديستويفسكي واحدٌ من الأدباء الذين لهم نزعة فلسفية، ولا شكَّ أنه أديب معاصر دائمًا.

وفي عام ١٩٦٦، تعاقدت وزارة الثقافة المصرية مع سامي الدروبي لنشر ترجمته لأعمال ديستويفسكي الكاملة، فكان حدثًا ثقافيًا مهمًا. وكتب العديد من المثقفين والصحفيين المصريين مقالاتٍ في الثناء على جهود سامي الدروبي، ومن هؤلاء رجاء النقاش وأحمد بهاء الدين، واحتفظت زوجته بهذه المقالات ونقلت اقتباسات منها في كتابها عنه.

ديستويفسكي ضرَّة إحسان في بيتها

في إحدى الأمسيات، دُعيت أسرة سامي الدروبي إلى عشاء في منزل السفير السوفييتي فينوغرادوف، فقال لها مندهشًا: «عندما قيل لي: إن السفير السوري سامي الدروبي أنهى ترجمة ثمانية عشر مجلدًا لديستويفسكي رغم أعبائه كسفير عربي بالقاهرة، تعجبت وقلتُ أسألك: كيف وجد الوقت؟»، فكانت إجابة إحسان أن زوجها يوزِّع وقته بدقَّة

فائقة بين عمله الرسمي بالسفارة والبيت، وأن ديستويفسكي ضرَّتها، وبعد أقل من شهر زارهما السفير السوڤييتي في عيد رأس السنة وحمل لهما هدية: لوحة زيتية لديستويفسكي، وقال مازحًا: «أرجو من السيدة إحسان ألاَّ تزعجها هديتي ... الضرَّة»، وانفجروا ضاحكين من تحوُّل ديستويفسكي إلى جزء عضوي في حياة الزوجين.

السياسة والأدب

عمل سامي الدروبي عام ١٩٦١ سفيرًا للجمهورية العربية المتحدة في البرازيل أيام الوحدة بين مصر وسوريا، وقد سبقه في هذا المنصب الشاعر عمر أبو ريشة. وحدث الانفصال في فترة عمل سامي الذي كان من مؤيِّدي استمرار الوحدة. وعاد إلى دمشق، واشتغل بالسياسة، وعمل أستاذًا في الجامعة. سُجن سامي الدروبي فترةً في عهد الشيشكلي، وشارك في انقلاب الثامن من مارس/ آذار، وهو الانقلاب الذي أطاح بحكومة الانفصال وأتى بحزب البعث. وتحكي زوجته أنه بينما كان يتابع أخبار الانقلاب، فاجأها بالتحدُّث إليها عن نصوص كتاب مياه الربيع لتورجنيف، وأنها يجب أن ترسل إلى دار اليقظة وغيرها مسودات كتبه. وتعجبت زوجته من محاولته الانفصال عن السياسة بالحديث عن الكتب، وقد كان يفعل ذلك محاولًا أن يهدئ من توتُّره. ثم إن الحكومة الجديدة بعد الانقلاب عينته وزيرًا للتربية.

سفير فوق العادة: سامي الدروبي في يوغوسلافيا

في أيام الوحدة بين مصر وسوريا، وبالتحديد في أغسطس/ آب ١٩٥٩، توجَّه وفد مشترك ضمَّ من الإقليم الجنوبي (مصر) عبد المنعم

الصاوي والمترجم إبراهيم زكي خورشيد ونجيب محفوظ في رحلة تكاد تكون من الرحلات النادرة لنجيب محفوظ الذي يبغض السفر (أليس هو من أرسل ابنته لتسلُّم جائزة نوبل ولم يذهب بنفسه؟!)، وضمَّ من الإقليم الشمالي (سوريا) سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم. وعن هذه الرحلة كتب محمد شعير تحقيقًا صحفيًّا. ومن الأشياء الطريفة في هذه الرحلة مقابلة نجيب محفوظ أديبًا يوغسلافيًّا أراد أن يترجم رواية **زقاق المدق**، لكنه توقف عن الترجمة؛ لأنه كان يتوقع أن كتابات نجيب محفوظ إسلامية، لكنه رأى في الرواية خمرًا ونساء، هذا الشخص نفسه سأله سامي الدروبي عن ملهى ليلي، فقال لهم: «لأجل خاطركم سأدلكم، ولكن لن أذهب إلى هناك لأني رجل متدين»[1].

تقصُّ علينا إحسان، زوج سامي الدروبي، من خبر الاكتشاف الذي اكتشفه في هذه الرحلة، لقد تعرَّف إلى كتابات إيڤو أندريتش، وقرَّر أن يترجم له رواية **جسر على نهر درينا**، وكان اكتشاف سامي الدروبي له قبل أن يحصل على جائزة نوبل، وهو ما يدلُّ على ثقته فيما يختار من نصوص. والطريف أن سامي سيعمل بعد ذلك سفيرًا لسوريا في يوغوسلافيا، وسيقلده الرئيس «تيتو» وسامًا في نهاية عمله، وكان مما قاله له: «إنني أقلدك هذا الوسام لا كسفير فحسب، بل ككاتب وأديب».

---

(١) كتاب **نجيب محفوظ إن حكى** ليوسف القعيد. ونقل هذه الحكاية محمد شعير في مقالته «يوميات رحلة نجيب محفوظ الأولى إلى يوغوسلافيا». هذه الرحلة التي كانت حبًّا في عبد الناصر أو خوفًا منه.

الدروبي في بطرسبرج وزيارة لبلدة تولستوي

عندما زار سامي الاتحاد السوفييتي طلب من مرافقيه زيارة قرية تولستوي، وكان يترجم له آنذاك رواية **لحن كرويتزر**. وعندما زار لينينغراد كان يتتبع الأماكن التي ذكرها ديستويفسكي في رواياته، فيقف ويقول: «هذا هو الجسر الذي يظهر في رواية **الليالي البيضاء**، وهذا المكان كتب ديستويفسكي عنه». ورغم أنه أنهى ثمانية عشر مجلدًا من أعمال ديستويفسكي، وأحسَّ بالفرح لإنجاز هذا العمل الضخم، فإنه تحمَّس لترجمة تولستوي، وبدأ بترجمة **الطفولة والمراهقة والشباب** مباشرة بعد الانتهاء من ديستويفسكي.

في هذه الزيارة ترجم قصتين وهو في المستشفى بعد إصابته بوعكة صحيَّة، وقدَّم الكتاب هديةً لدار التقدُّم في موسكو لطباعته، وكم كانت فرحته عندما قررت وزارة التربية في سوريا تعميم كتابه المترجم **الموسيقيُّ الأعمى** في مناهج طلاب الصف الثالث الإعدادي، وقال: «لقد أخذتُ أكبر أجر من كتبي كلها، فهذا الكتاب سيدخل إلى بيت كل عائلة لديها طالب في الإعدادية». وتقول إحسان: «إنه طُبع من الكتاب نحو مائتين وخمسة وسبعين ألف نسخة». وكان سامي الدروبي يرى في طلابه أولاده بالروح، وقد أهدى مكتبته إلى جامعة دمشق.

الدروبي وعبد الناصر

يتبيَّن للقارئ من خلال مطالعة المذكرات التي كتبتها زوجة سامي الدروبي أن مترجمنا القدير كان متورطًا في السياسة غاية التورط. فنحن

الآن نعرفه مترجمًا شهيرًا، لكنه كان مؤمنًا بأفكار عبد الناصر، وقد سافر إلى بلغراد ليستقبله عند وصوله لها؛ مما أغضب حكومة سوريا في ظلِّ وجود مشاكل مع عبد الناصر. لكن هذا القرب سيجعله موضعَ ثقة للسعي في إعادة العلاقات بين مصر وسوريا بعد الانفصال، والكواليس الشيقة التي تحكيها زوجته عن حياته إبان عمله سفيرًا لسوريا في مصر في غاية المتعة، ففي إحدى الصفحات تقصُّ حكاية مأدبة لعبد الناصر في بيتها، وكيف أنها حضَّرت لهذه الزيارة وجهَّزت لكل التفاصيل، حتى إنها خافت أن تثق في أيِّ طباخٍ يعد الطعام لرئيس الجمهورية في بيتها، فكانت تشرف بنفسها على كل التفاصيل، وعاد سامي الدروبي للبيت، ففوجئ بهذا التحضير المبهر، فقال لها: «أنا أعلم أنني تزوجت من بنات الإنس وليس من بنات الجن»، فكانت هذه العبارة أظرف مديح سمعته منه.

وسوف تجد في الكتاب أيضًا حديث إحسان عن مواقف «الأخ سامي» كما كان يدعوه عبد الناصر معه. علاقة وثيقة توطَّدت بسبب عمل الدروبي سفيرًا لسوريا في القاهرة، حتى إن عبد الناصر كان يهتمُّ بالحالة الصحيَّة لسامي بعد إصابته بمرض القلب، بل بعث إليه دواءً يابانيًّا كان عبد الناصر يتناوله بعد إصابته بالمرض نفسه.

ذاق سامي مرارة الفقد بموت ابنته وهي طفلة، وكانت هذه الأزمة من الأزمات الكبيرة التي تعرَّض لها في حياته، وهاتَفه عبد الناصر معزِّيًا ودعاه للمكوث معه شهرًا في الإسكندرية للخروج من تلك الأزمة.

ومما يدلنا على وثاقة الصلة بين سامي وعبد الناصر أن عبد الناصر أخبره أنه يودُّ أن يرسل رسالةً لأحمد بهاء الدين بأنه لن يعتقله بعد أن نشر

أحد المقالات؛ ذلك أنه يعرف أن بهاء الدين لم يكتب ما كتب إلا بدافع الإخلاص، فأبلغ سامي بهاء الدين، الذي كانت تربطه به صداقة متينة، رسالة عبد الناصر[1].

كان سامي مؤمنًا بأفكار الوحدة، وقد عمل في أثناء الوحدة مستشارًا ثقافيًا في القاهرة، وحزن بسبب الانفصال وارتجل كلماتٍ أبكت عبد الناصر عند تعيينه سفيرًا لسوريا، وكان حبُّه لمصر كبيرًا، وجاءت حرب أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣ وهو سفير في إسبانيا، فعمل على استصدار بيان من الخارجية الإسبانية يؤيد العرب، وعملت زوجته بالتمريض في أحد المستشفيات في أثناء نكسة ١٩٦٧.

ظلَّ سامي الدروبي يعمل ويترجم إلى آخر حياته، وطلب معجمًا باهظ الثمن من فرنسا، لكنه رحل بعد حصوله عليه بثلاثة أيام. وظلَّ وهو على مشارف الأبديَّة، وزوجته تساعده على مدّ خطّ الأوكسجين، يصحِّح كلمة في ترجمته ويقول لها: لقد أرَّقتني هذه الكلمة بالأمس. وفي الثاني عشر من فبراير/ شباط ١٩٧٦، توفي بعد أن وصل إلى ترجمة الفصل الخامس عشر من رواية **الحرب والسلام** لتولستوي.

ولقد سجلت لنا زوجته الوفية إحسان بيَّات حياته، ونقلت لنا كواليس اشتغاله بالكتابة والترجمة والعمل الدبلوماسي والسياسي في كتاب جميل حافل بصور الحبِّ والتوثيق الشيِّق.

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن ترجمات سامي الدروبي لم تقتصر على الأدب، بل شملت حقولاً معرفية مختلفة، منها ترجمته كتاب **الضحك** لهنري برجسون، و**المذهب المادي والثورة** لجان بول سارتر، و**منبعا الأخلاق والدين** لهنري برجسون، و**مدخل إلى علم السياسة** لموريس دوفرجيه، و**معذبو الأرض** لفرانز فانون، وكتاب **تفكير كارل ماركس**، وكتاب **علم النفس التجريبي**، وغيرها الكثير من الكتب القيِّمة.

طلعت الشايب: المترجم طليقًا!

(عن التجربة وصاحبها)

في شـهر إبريل/ نيسـان من عام ٢٠١٧ غادر عالمنـا المترجم طلعت الشـايب، والأسـتاذ الطاهر أحمد مكي، وقبلهما بأشـهر المترجم التركي الأسـتاذ عبد القـادر عبد اللّـي. وأودُّ الحديـث عـن الأسـتاذ طلعت، فقد التقيته عدَّة مراتٍ في زياراته المتكرِّرة لمؤتمرات الترجمة، وكانت روحه جميلة، ودائمًا ما يلقاك بابتسامة صافية، ويجيب على من يسأله ويتناقش معه بدماثة، وتجمعه مع المترجمين الآخرين جلسات نقاش ومزاح. وقد قـدَّم مداخلـة أمينة عـن تجربة المركـز القومي للترجمة، وذكـر إيجابيات هذه التجربة وسلبياتها؛ لأنه كان قريبًا من إدارة المركز.

وكان الأسـتاذ طلعـت الشـايب يحمـل آخـر إصدراتـه مـن الكتـب المترجَمـة يهديهـا للأصدقـاء وللمؤسسـات الثقافيـة. وقد رأيتُـه يحتفي بلقـاء الدكتور ماهر شـفيق فريـد في أحد مؤتمرات الترجمـة ممازحًا له، فهُمـا لـم يلتقيـا بسـبب إقامة الدكتـور ماهر شـفيق فريد في لنـدن. توفي طلعت الشايب في أثناء مشاركته في أحد الصالونات الأدبية متحدِّثًا عن تجربته في الترجمة؛ حيث أصابته أزمة قلبية نُقِل على إثرها للمستشـفى، وهكذا مات على ما عاش يدندن حوله ويثري الثقافة العربية به، ألا وهو الترجمة.

وُلـد طلعت الشـايب عام ١٩٤٢ في قرية البتانـون بمحافظة المنوفية، وتفتَّحـت عينـه على مكتبة والده أحمد أفندي التي كانت تضمُّ العديد من نفائـس الكتـب والمجـلات الثقافيـة. وكان والـده قـد درس فـي الأزهـر ومدرسـة المعلمين، واشـتغل بالتدريس في عشـرينيات القـرن الماضي، ومما قـرأه باكـرًا: **العقد الفريـد**، و**ديـوان المتنبِّـي**، و**الإمتاع والمؤانسـة**، و**مروج الذهب**، وكانت حوله المجلات الأدبية مثل: **المقتطف**، و**الهلال**، و**الكاتـب المصـري**، و**الرسـالة**. وكانت أسـماء مثل طه حسـين والرافعي ومحمد حسين هيكل تتردَّد على مسامعه كأنهم أقارب أو أصدقاء قدامى لوالده[1].

التحـق الشـايب بعـد ذلـك بكليـة المعلميـن بالقاهـرة بقسـم اللغـة الإنجليزيـة عام ١٩٥٨، وتعرَّف إلى أعمـال مترجمة لأعلام مثل: محمد مندور، وحسـن عثمان، وإبراهيم زكي خورشـيد، ومحمد غنيمي هلال، وعبد العزيز توفيق جاويد، ومحمد بدران وسامي الدروبي. وكان من بين من أخذوا بيده إلى هذا المجال أساتذة مثل: عبد الله عبد الحافظ، ونظمي لوقا، ومحمد علي العريان، وسعد الجبلاوي.

وفـي عـام ١٩٦٢ تخرج الشـايب من كليـة المعلمين، وعمل مدرسًـا للغة الإنجليزية بالمدارس الثانوية في الإسكندرية وشبين الكوم والقاهرة خمس سـنوات، مارس خلالها العمل السياسـي في إطار منظمة الشـباب الاشتراكي آنذاك، وقرأ في هذه الفترة في السياسة والاقتصاد والإنسانيات، وكان الزخم الثقافي لا يزال مستمرًا في مصر خلال الستينيات.

---

(١) وثَّقنا التواريخ والأحداث استنادًا إلى ورقة بحثية للأستاذ طلعت الشايب؛ نُشرت ضمن أعمال «مؤتمر الترجمة وإشكالات المثاقفة».

التحق الشايب بالخدمة العسكرية في عام ١٩٦٧، وفي العام نفسه وقعت النكسة. ومع جهود إعادة بناء القوات المسلحة ورفع كفاءتها القتالية، تمَّ استدعاء الملازم أول طلعت الشايب في مطلع عام ١٩٦٩ إلى القاهرة من جبهة القتال ضمن مجموعة من ضباط الاحتياط والجنود من خريجي أقسام اللغات لدراسة اللغة الروسية دراسة مكثفة في كلية القادة والأركان، للتعامل مع الخبراء والمستشارين السوفييت الذين تدفقوا على مصر، فأُتيحت له فرصةُ العمل في ترجمة الكتابات العسكرية والترجمة لكبار قادة الأركان؛ مثل: محمد عبد الغني الجمسي (وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة)، وكمال حسن علي (قائد القوات المدرعة في حرب أكتوبر/ تشرين الأول وأصبح وزير دفاع بعد ذلك)، وغيرهم من كبار القادة، وترجم في هذه الفترة ثلاثة كتب عسكرية، وتعرَّف إلى أحد الجنرالات السوفييت الذي كان يناديه بالنقيب تلاتوف بدل طلعت، وعلى هامش النقاشات العسكرية جمعتهم نقاشاتٌ عن الأدب الروسي، ولا سيما عن ديستويفسكي وجوركي وتولستوي وشولوخوف، وأشعار بوشكين وباسترناك وأخماتوفا وغيرهم.

ترك الشايب القوات المسلحة عام ١٩٧٤ ليعود إلى العمل المدني مدرسًا للغة الإنجليزية في مصر، ثم في الكويت معارًا من وزارة التربية والتعليم، قبل أن يشدَّ الرحال إلى الدوحة عام ١٩٨٠. وعلى الرغم من أن عمله كان في مجال الإدارة (شركة البتروكيماويات)، فإنه اتصل بالوسط الثقافي وشارك في بعض البرامج الإذاعية، وشارك بدعوة من الناقد رجاء النقاش في الكتابة والترجمة في مجلة **الدوحة** التي كان

النقاش يرأس تحريرها آنذاك، ثم أشرف على باب ثقافيٍّ بعنوان: «نافذة على الثقافة العالمية» خلفًا لمحرِّره الأستاذ محمد العزب موسى.

وقد سافر الشايب في إحدى الرحلات لزيارة الهند للمشاركة في بعض الأعمال الخاصَّة بإحدى شركات البتروكيماويات، وأجرى على هامش الزيارة حوارًا طويلًا مع الصحفي الهندي الشهير «كارنجيا»، الذي حاور نهرو وعبد الناصر، ونشر الحوار على صفحة كاملة بـ جريدة **الراية** بتاريخ ٢٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٥، وقد أتاحت له الإقامة والعمل في الخليج أن يشعر بأن الخليج ليس نفطًا فحسب، بل بشرًا يصنعون الحياة على حدِّ وصفه.

ثم رجع الشايب إلى مصر عام ١٩٩٢، لينتقل إلى المرحلة الثالثة في تجربته مترجمًا: من الترجمة العسكرية، إلى الترجمة الصحافية، ثم إلى مرحلة الكتابة والترجمة في الصحافة المصرية في مجلات مثل: **الهلال**، **وأدب ونقد**، و **إبداع**، و**الثقافة الجديدة**، و**الشعر**، و**أخبار الأدب**، و**الأهالي**. كما تولَّى رئاسة تحرير سلسلة «آفاق الترجمة»، التي قدَّمت الكثير من العناوين المهمَّة المترجمة إلى العربية.

وسيكون لدى مترجمنا القدير، بوصفه كاتبًا ومترجمًا حرًّا غير مرتبطٍ بعمل حكوميٍّ، الوقت الكافي للسفر والمشاركة في الملتقيات الثقافية، وَزيارة معارض الكتب، وتحكيم بعض جوائز الترجمة، إلى جانب القراءة والكتابة وترجمة كتب كاملة. وفي عام ١٩٩٥، ستصدر دار شرقيات بالقاهرة أول كتاب مترجم له وهو **حدود حرية التعبير: تجربة كتاب الرواية في مصر في عهدي عبد الناصر والسادات**، وهو دراسة

للكاتبة السويدية مارينا ستاج، كما ستصدر له دار شرقيات كتاب **المثقفون** لـ بول جونسون، وهو الكتاب الذي يستعرض العديد من فضائح وتناقضات مشاهير المثقفين بداية من جان جاك روسُّو إلى نعوم تشومسكي، ثم ترجمة رواية **فتاة عادية** لـ آرثر ميللر، ورواية **عاريًا أمام الآلهة** للكاتب الهندي شيف كومار، ورواية **اتبعي قلبك** للإيطالية سوزانا تامارو، ورواية **البطء** لـ ميلان كونديرا، و**الحمامة** للألماني پاتريك زوسكند. ثم يترجم مع الهيئة العامة لقصور الثقافة رواية **الملاك الصامت** لـ هينريش پول، والرواية الإيطالية **الحرير** لـ أليساندرو باريكو التي ترجمها عام ١٩٩٨ بعد صدور ترجمتها الإنجليزية بوقتٍ قصير، تلك الرواية الصغيرة التي تُقرأ في جلسة واحدة، قرأتها قديمًا وما زلت أتذكَّر فرحتي بها وحزني لِقِصَرها، وفيها من الرقَّة وعذوبة السرد ما فيها.

وترجم الشايب بعد ذلك كتابًا فيه مختارات من الأساطير الصينية بعنوان: **أنا القمر**. وفي عام ١٩٩٨، ستصدر دار سطور ترجمته لكتاب صمويل هنتنجتون العمدة **صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي**، ويصدر كتاب مختارات من **مكتوب** لـ پاولو كويلهو و**هوس العمق وقصص أخرى** لـ پاتريك زوسكند، ومختارات من الشعر العالمى بعنوان: **أصوات الضمير**، كما سينشر المجلس الأعلى للثقافة ترجمة رواية **الخوف من المرايا** لـ طارق علي، وكتاب **فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي** لـ آرثر هيرمان، وترجمة رواية **بقايا اليوم** لـ كازو إيشيجورو، وهي الرواية التي حصلت على جائزة البوكر، وتحولت إلى فيلم عام ١٩٩٣ بطولة أنطوني هوبكنز وإيما تومسون.

وخلال الفترة ما بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٦ عمل الأستاذ طلعت مستشارًا ومنسقًا عامًّا للمشروع القومى للترجمة (المجلس الأعلى للثقافة)، مع مواصلة نشاطه في الترجمة، ليصدر له في تلك الفترة ترجمة كتاب **الحرب الباردة الثقافية: دور المخابرات المركزية الأمريكية في الآداب والفنون** لفرانسيس ستونر سوندرز، وترجمة كتاب تيتز روكى بعنوان: **في طفولتي: الطفولة في السيرة الذاتية العربية، ومحنة الكاتب الإفريقي** للأمريكى تشارلز لارسون، **والفنون والآداب تحت ضغط العولمة** للهولندي چووست سمايرز، أحد أبرز رموز الحركة العالمية لمناهضة العولمة، كما حرَّر موسوعة الأعمال الكاملة لرئيس وزراء ماليزيا مهاتير محمد، وترجمة ثلاثة كتب منها، هي: **الإسلام والأمة الإسلامية، وخطة جديدة لآسيا، والتحدي.**

وفي عام ٢٠٠٧، أُنشئ المركز القومي للترجمة، وقد عمل به الأستاذ طلعت الشايب مساعدًا لمديره ومشرفًا على المكتب الفني به حتى إبريل/ نيسان ٢٠١٠، بعدها قدم استقالته للتفرغ للقراءة والكتابة والترجمة والمشاركة في المؤتمرات الثقافية وورش الترجمة. وفي الفترة من عام ٢٠١٠ أصدر له المركز القومي للترجمة ترجمةً لكتاب **الاستشراق الأمريكي** لـ دوجلاس ليتل، وهو عمل موسوعيٌّ يتناول دور الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط منذ عام ١٩٤٥، وترجمة كتاب **نحو فهم للعولمة الثقافية** لـ پول هوپر، وترجمة كتاب **غياب السلام** لـ نيكولاس جويات، كما راجع عددًا من الكتب، من بينها: **موسوعة كمبردج للفكر السياسي في القرن العشرين، وجدل الإسلام والمعرفة في عالم متغيِّر**، وهو رسالة دكتوراه للباحثة منى أباظة، وقد انتهى في العامين

الأخيريـن مـن ترجمة ثلاثة كتـب للمركز القومي للترجمـة هي: **الأبيض المتوسط: بحر ليس كمثله بحر** من تأليف چون نورويش، و**أدب الحرب الباردة** وهو مجموعة دراسـات حرَّرها أندرو هاموند، و**العقيدة العسكرية** من تحرير بيرت تشاپمان، ورواية **كتاب صلاح الدين** لـ طارق علي.

ويشـرح الأسـتاذ طلعت الشـايب سِرَّ صنعته، فبعد أن يفرغ من قراءة الكتاب ويعجب به، يحتشد في تحضير ما يسميه «مكتبة المترجم»، وهي الكتب والدراسـات التـي تدور حول الموضوع، لتعينـه على كتابة مقدمة الكتاب والهوامش، وهو ينقل النصَّ باللغة العربية دون أن يدهس القارئ العربي بمصطلحاتٍ وكلماتٍ غامضة، ولا يسـتنكف مترجمُنا من سـؤال المتخصِّصيـن، فعندما ترجم كتاب الباحـث الأمريكى آرثر هيرمان **فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي**، استعان بخبرة ومعرفة الدكتور عبد الغفار مكاوي -عليه رحمة الله- بالألمانية لغة وفلسفة.

ومـن المهـم أن يتمتـع المترجـم بتكويـن ثقافي خصب يتيـح له إتقان الترجمـة، وفهـم سـياق الحديـث وإدراك معنـى النـص، ويذكر الأسـتاذ طلعـت في هذا الصـدد قصتين عن الترجمة الشـفوية لهما علاقة بمفهوم السـياق: حينما ترجم لقاءً بين رئيس هيئة العمليات آنذاك سـعد الشـاذلي وكبير مستشاري إدارة المدرعات الروسي، ففي حديث الچنرال الروسي وردت على لسـانه عبارةٌ نقلها إلى الشـاذلي على هذا النحو: «وكأنه يبيع الماء في حارة السقايين». لم يقاطع الشاذلي الترجمة ولم يقاطع الجنرال، ولكنه بعد انتهاء اللقاء سـأله: «إيه يا حضرة الضابط؟ هما الروس عندهم حارة سقايين برضه؟»، فشرح له أن الچنرال الروسي قال عبارة بالروسية ترجمتها الحرفية: «لماذا تذهب إلى تولا ومعك ساموفارك؟» (وهو وعاء

معدني يستخدم لتحضير الشاي)، وأوضح أن تولا مدينة مشهورة بصناعة الساموفار؛ ولذا لا مبرِّر لأن يحمل المسافر إليها ساموفارًا معه، وأضاف له مستعرضًا ثقافته ما يقوله الإنجليز: «لماذا تحمل الفحم إلى نيوكاسل؟»

أما الموقف الثاني، فكان في أثناء ترجمته لخطاب الرئيس السادات الشهير في يوليو/ تموز ١٩٧٢، وهو الخطاب الذي أعلن فيه الاستغناء عن خدمات عددٍ من الخبراء والمستشارين السوڤييت فيما كان يسميه «وقفة موضوعية مع الصديق». وفي محاولة لذكر السوڤييت ببعض الخير، قال الرئيس السادات: إن الاتحاد السوڤييتي قام بالواجب عندما توفي الرئيس عبد الناصر حيث أرسل وفدًا رفيع المستوى لتقديم العزاء برئاسة كوسيجين الذي جاء «ومعه الصينية». فترجم الأستاذ طلعت الشايب «ومعه الصينية» بأنهم وقفوا معنا في تلك الظروف الصعبة، ولكن الحيرة ظلَّت مرتسمةً على وجوه المستمعين إلى الترجمة من الروس، وبخاصة بعض المترجمين الذين التقطت أسماعهم كلمة «الصينية»... ومما عقَّد الأمر أن العلاقات السوڤييتية الصينية كانت متوترةً في تلك الأيام! وبعد الاجتماع، سأل المترجم الروسي: ماذا كان يقصد الرئيس بالصينية؟ فذكر لهم عادات القرى المصرية في إرسال الصواني أو الطعام إلى أسرة المتوفى كنوعٍ من المشاركة الوجدانية، وقد توقَّع المترجم الروسي قبلها أن الأستاذ طلعت يخفي عنهم شيئًا!

- لا أعرف للأستاذ طلعت نصوصًا ذاتية أو أدبية خاصَّة به، وفي كثيرٍ من ترجماته لا يكتب مقدماتٍ لها بنفسه؛ ولذا فقد جعل قوله ترجمته، والترجمة جاءت من اختياره الذي ينمُّ عن عقله وذوقه، وذوقه تولَّد من حرفة القراءة، فكل نصوصه اختارها بعد القراءة وبميل شخصيٍّ، فقد كان

يختـار أن يترجـم الكتـاب بعـد أن يقـرأه ويجـده يسـتحق أن يترجـم إلى العربية، عدا كتبه العسكرية وترجمته لكتاب صدام **الحضارات** لصموئيل هنتجنتون الذي ترجمه بطلب من أحد الناشرين.

إن خلاصة حياة طلعت الشـايب هي الاجتهاد دون نخبوية المثقفين، وكذلك التمكُّن من اللغة العربية، يقول العقاد: «ولا يخفى أن التمكُّن من اللغة عملٌ لا يدلُّ عايه شـيء كما تدلُّ عليه الترجمة؛ لأن المنشـئ مطلق في تفكيره وتعبيره، أما المترجم فله قيود من كلام المنشئ الأصيل. ولولا قـدرة عنـده على التصرف بالمعانـي والكلمات، لَما اسـتطاع التوفيق بين كلامه وفكر غيره في هذه القيود».

وأمـا الـدرس الآخـر الذي يمكن اسـتخلاصه مـن حياة الشـايب فهو مسـاعدة الآخرين من المترجمين الشـباب في إتقان الترجمة، فقد سـاعد المترجمين الشـباب بودٍّ وفرحٍ وشـعور بمسـئولية المعلِّم الذي يأخذ بيد التلاميذ، رحمه الله.

محمد عناني: من واحات العمر

على غلاف كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد تجد اسم محمد عناني، وعلى غلاف كتاب الفردوس المفقود لجون ملتون تجده ترجمةَ محمد عناني، وتحصل على ترجمات وليم شكسبير بترجمة محمد عناني. وفيما يلي طرف من سيرة حياته كما رواها في مذكراته.

طفولة قبل ثورة يوليو/ تموز

استمع محمد عناني للراديو في بيت جدّه في أوائل الأربعينيات وأواسطها، كان طفلًا يستمع إلى الشيخ محمد رفعت يرتل سورة الكهف كل يوم جمعة في الشتاء، فحفظ أسلوبه في قراءتها، وحفظ طريقته في التقفيل (أي العودة إلى الطبقة الصوتية التي بدأ منها)، والتصدير (أي الخروج عن سلم الأداء ثم العودة إليه)، ومثلما أحبَّ الطفل محمد عناني الشيخ محمد رفعت أحبَّ عبد الوهاب وأم كلثوم وبرامج الأطفال مثل «بابا شارو»، وفي هذا البيت كانت العائلة تستمع إلى منيرة المهدية وعبد الحي حلمي ومحمد عثمان وصالح عبد الحي.

أما والده فقد كان متعصبًا للشيخ مصطفى إسماعيل ويردّد دائمًا: «أبو درش، مافيش منه»، كان والده يحبُّ القراءة والأدب، ويسجِّل ما يعجبه من اقتباساتٍ في مجلد ضخم يسميه «الموسوعة الأدبية أو بيت الحكمة»، وكان لديه دولاب كتب يغلق بالمفتاح وفي داخله القاموس

المحيط للفيروزآبادي. وفي عام ١٩٤٩ اصطحبه والده إلى القاهرة، وكان -أي الوالد- مولعًا بالخديوي إسماعيل، وعندما اصطحب ابنه كان يشير إلى دار الأوبرا، وإلى ميدان الإسماعيلية (التحرير حاليًا)، وإلى ثكنات الجيش البريطاني في مكان مبنى جامعة الدول العربية وفندق هيلتون النيل الآن. وفي هذا البيت كان يتردَّد خاله الطبيب، فيطلب منه الطفل محمد عناني أن يعلمه نظم الشعر والبحور، فيبدأ في إعطائه الأمثلة والتدريبات، كانت هناك دراسة وثقافة تحبُّ الشعر اختفت بعد ذلك.

وفي عام ١٩٤٨، كانت أخبار الحرب بين العرب وإسرائيل تطرق مسامع الطفل الصغير، وتتداول الأخبار عن اغتيال الكونت برنادوت مندوب الأمم المتحدة في فلسطين، وفي عام ١٩٥٠ تظهر جريدة **الأهرام** وعنوان الصفحة الرئيسة يقول: الوفد يشكِّل وزارته السادسة، وعندما تمر المظاهرات الخارجة من كلية الهندسة، يهُبُّ الطلبة في المدرسة الثانوية للالتحاق بالمظاهرة وهم يردِّدون عبارات يسقط الاستعمار.

وفي المدرسة يستمع الطفل إلى مدرس التاريخ والجغرافيا يشرح لهم «سوء توزيع الثروة»، فيعود للبيت ويلقي بتلك التعبيرات، فلا تلقى صدى عند أحد. هكذا يشعر الطفل بأنه غريبٌ في المدرسة وفي المنزل. ويبدأ يقرأ الصحف، فيسمع عن كلمنت أتلي زعيم حزب العمَّال البريطاني الذي أتى إلى الحكم، ويسمع من تشرشل زعيم المحافظين أن بريطانيا ستجلو عن السويس، وهكذا يتعرف إلى مشكلة السودان ووحدة وادي النيل.

في الجامعة كانت لنا أيام

فـي مذكراتـه **واحات العمر** يصحبنـا الدكتور محمد عنانـي في أجواء قسم اللغة الإنجليزية، وفي قصائد شلي التي يصفها بأنها أول ريح أثارت الموج في أعماقه، ويحكي عن الدكتور عبد العزيز الأهواني، وكيف كان يحاضـر سـاعة متواصلـة بالفصحـى التامَّة السـليمة وليس أمامـه كتبٌ أو أوراق، ويبهـر الطلاب بوضوحه ودقَّة تعبيراته. وعندما عاد محمد عناني مـن البعثـة قدَّم محاضـرة عن قصيدة المقدمة للشـاعر وردزورث في عام ١٩٧٧، فجلـس جلسـة أسـتاذه الأهوانـي نفسـها، وتحـدَّث بالإنجليزيـة حديثًـا متواصـلًا مسـتفيضًا، ومدحـه المسـتمعون وكان يحاكـي أسـتاذه الأهواني دون أن يدري.

ونـرى فـي المذكرات حـبَّ عناني لنظم الشـعر ولموسـيقى الأبيات، وافتتانًا بفنون الغناء والمسـرح، ويحكي الكاتب عن أول عودٍ اشـتراه من رجـل هـرم مريـض، وهـي قصَّة طريفـة، ويصف لنـا رجوعه إلـى المنزل بالعـود، وهو فرِحٌ به، فقد أحيا في نفسـه احتضـان عبد الوهاب للعود في فيلم **يوم سـعيد**، وبكاءه على العود في فيلم **يحيا الحب**. وبسـبب دراسته للشـعر الإنجليـزي يقرِّر هجر الشـعر العربي بعـد أن أحس بضعف حيلته وقصور موهبته كما يصف. ولم يكن هجر الشعر العمودي قرارًا سهلًا أو حتى قرارًا إراديًّا، فقد أحس أنه غير قادر على محاكاة فحول الشـعراء أو أن لديه ما يقدِّمه، فقرَّر التفرغ للتخصُّص ودراسـة الماجسـتير في الأدب الإنجليـزي. لكـن علاقـة الكاتـب باللغة العربيـة لم تنقطـع، ولعل بعض الزملاء في الجامعة كانوا يهمسـون بأنه من «المؤلَّفة قلوبهم» بسبب كثرة مروره بقسم اللغة العربية.

يسمع محمد عناني عن لويس عوض، فيطلب لقاءه، ويزوره في بيته زيارةً يصفها عناني بأنها غيَّرت مسار حياته الأدبية. في بيت لويس عوض يرى الكتب تصل إلى السقف، ويبدأ عناني بقراءة ترجمة **الملَّاح الهَرِم**، ويمسك لويس عوض بالنص الإنجليزي، ويستوقف عناني للنقاش في كلمة أو عبارة. وفي بيت لويس عوض استمع إليه محمد عناني وهو يقول: «إنه غير مؤمن بالقومية العربية، وإنه مؤمن بأن تاريخ مصر يعزلها حضاريًّا عن سائر الشعوب العربية».

نرى ثراء الأسماء التي درس عليها عناني في الجامعة، مثل مجدي وهبة وفاطمة موسى ورشاد رشدي ويوسف خليف. ويصف لنا شكري عياد قائلًا: «كان شكري عيَّاد صبورًا يقرأ شعري وينقده دون تبرم، ويناقشني في شعر شلي مناقشات تشبه مناقشات لويس عوض، وكنا نخرج معًا من الجامعة فنسير الهوينى حتى محطة الأتوبيس».

ويصف لنا رشدي راشد وهو يقرأ شعر إليوت في المحاضرة فيقول: «وأشهد أن إلقاءه الشعر كان جميلًا، وكانت إيقاعاته ونبراته البريطانية ذات أصالة وعراقة، وكثيرًا ما كنت أنسى المعنى في ثنايا الإيقاع وتضاعيف النَّظم!».

في الجامعة سيتعرف محمد عناني إلى وحيد النقاش شقيق الناقد رجاء النقاش في بوفيه كلية الآداب، وكذلك تعرف إلى سمير سرحان، وحسده عناني في أعماقه؛ لأن سمير سرحان كان يتكلَّم بطلاقة وتحيطه عيون الفتيات اللواتي ينظرن إليه بشيء من التقديس. ويحكي محمد عناني عن سنوات القراءة في الجامعة وماذا قرأ، وعن حفظه مونولوجات

من مسـرحيات شكسـبير. هذه مذكرات تقرأ فيها عن سـمير سـرحان في شـبابه، والذي أصبح بعد ذلك راعي مشروع القراءة للجميع، وترى حياة ماهـر شـفيق فريد نديم محمد عناني، والـذي يطلق عليـه عناني «راهب الفكـر الصمـوت». وكذلك تشـبه مذكـرات ماهر البطوطـي الجيل الرائع فهو جزء من شـلتهم. تنتهي المذكرات بتاريخ ١٢ مايو/ أيار ١٩٦٥ يوم إقلاع طائرة محمد عناني إلى البعثة في لندن بعد أن اصطحبنا في تجارب حياته قبل البعثة.

هوامش على الواحات: أمل في نهاية النفق

نجـد فـي الكتاب ملحوظات عديدةً تمثّل روح هـذا العصر. أولها في رأيي وجود الأمل. فلم تكن الدولة في عهد الملكيَّة أو حتى في عهد ثورة يوليو/ تمـوز قـد تخلَّـت عـن دورها. وقـد كانت أعـداد السـكان صغيرة والوظائـف متاحـة، وهناك فرصـة للخريجين للعمل فـي دولاب الدولة. نرى ذلك عند عناني في مذكراته؛ إذ عُرضت عليه وظيفة في الإذاعة قبل تخرجـه بشـهور بسـبب حاجـة الإذاعـة للمترجميـن. ثم يـرى إعلانًا عن وظيفة مدرس في كلية الآداب، فيتقدَّم لها ويستقيل من الإذاعة. وبجانب ذلـك يكتب المسلسـلات للإذاعـة، ويعمل بالترجمة الحـرة. أقرأ ما كتبه عناني وأنا أرى في جيلي الحالي تخلّي الدولة عن أيّ قدرة على التوظيف وتشـغيل الخريجين. ويستقبل الشـاب حياته بالعمل في القطاع الخاص، ولا نـرى اليـأس يـدب في نفوس أبناء هذا الجيـل إلا حين تحدث هزيمة يونيو/ حزيران. هذا الأفق الذي أتخيَّل أن ذلك الجيل كان يشـعر به حُرم منه جيل الثمانينيات والتسعينيات فضلًا عن جيل مطلع الألفية.

الحياة السياسية وحياة الفنان

حاولت البحث في مذكرات عناني عن ظلال الحياة السياسية، ثم بدأت أشعر أنني أبحث في المكان الخطأ، فالكاتب يحمل هموم الفنان: شغله الشاغل اللغة، وامتناع القافية عليه أهمُّ من أن يصبح حلس أخبار. إنه يقرأ في الشعر العربي ويكتب رسالته عن وردزورث، ثم يعمل في الترجمة أو الكتابة للمسرح والإذاعة، وليس لديه ميولٌ تصادمية مع الدولة. وعندما اعتُقل أستاذه لويس عوض كان منزعجًا من فشل نشر ترجماته أكثر من التعليق على اعتقال لويس عوض. وعندما يحكي عن دولة الستينيات في مصر، يرى أنه لم يكن يشعر بالخوف، وأنهم -أي جيلُه- كانوا يشعرون بالقوة والتحدي بسبب الروح التي نشرها عبد الناصر. وعندما كانت تمر الدبابات من ميدان الجيزة إلى أحد معسكرات الجيش في الأهرام، كان يشعر بالقوة والانتماء، وأن هذه القوة تمثّل مصر.

الدولة راعية الشئون الثقافية

نرى في المذكرات كيف كانت الدولة في عهد ما بعد ثورة يوليو/ تموز تصنع الحياة الثقافية التي تريد المجتمع أن يعيش في أفقها، فوزارة الثقافة تنشر الكتب وتترجم وتنشر الأفكار التي تتبنَّاها الدولة أو التي لا تتعارض مع سياستها، ثم إن الدولة تتحكَّم في مؤسسات الترفيه، مثل التلفزيون والراديو. نرى العدد الضخم من المسلسلات الإذاعية التي أُنتجت للراديو والتلفزيون بدعم من الدولة، حتى إننا نرى مشاريعَ ثقافية

لـم تَـرَ النور منها مشـروع ترجمة دائرة المعارف البريطانية. وهو مشـروع قـاده وزيـر الثقافـة ثروت عكاشـة ثـم لم يكتمـل رغـم الميزانيـة التي تمَّ اعتمادها له.

في الختام، أحكي قصَّةً توضِّح تدخل الدولة والعسـكر في كل شـيء: كتـب محمـد عناني مسـرحية، فوضع أحد الأشـخاص في الوزارة اسـمه عليهـا، وانزعـج عنانـي وأبلـغ صديقه سـمير سـرحان. فـي اليـوم التالي حضرت آمال عبد الحكيم عامر ابنة المشير، وكانت زميلة لهم في الكلية، وهي تقول له: «أنا قلت لبابا على موضوع المسرحية، وقال لي أسألك إن كنت تحب يعمل تحقيق ولا تخاف على علاقتك بالوسط الفني؟». وزير الدفاع يتدخل في مشكلة تافهة! ودلالة ذلك: انعدام قوة القانون أو تراتبية السـلطة، فهـؤلاء الثوار اعتبـروا البلد بلدهـم تمامًا وأنهم ورثة شـرعيون للملكيَّة.

ماهر البطوطي:
جيل الستينيات الرائع

يا وطني الحزين

حوَّلتَني بلحظة

من شاعرٍ يكتبُ الحبَّ والحنين

لشاعرٍ يكتبُ بالسكين

نزار قبّاني، هوامش على دفتر النكسة

مـا أجمـل المذكـرات التـي تربـط حيـاة المثقـف بكُتبـه! فعلهـا ماهر البطوطي في كتابه **الجيل الرائع: وقائع حياة بين الكتب والفن**. ومن أمثال هـذه الكتـب **ذكريـات عُمر أكلتـه الحـروف** لنجيب المانـع، وكتاب **ضد المكتبة** لخليل صويلح، وكتاب **الكتب في حياتي** لهنري ميللر.

يختـار ماهر البطوطي عنـوان: **الجيل الرائع** ليصف به أحداث عصره. وهي تسـمية تقابل العبارة الشـهيرة **الجيـل الضائع** التـي أطلقتها جرترود شتاين على جيل همنجواي. ويضم جيل الستينيات مئات القمم؛ ولذلك لا يمكن ذكرهم بالاسـم، أما من عرفهم الكاتب عن قرب فهم من عُرفوا بجماعـة الدكاترة: محمد عناني، وعبد العزيز حمودة، وسـمير سـرحان،

ونبيـل راغـب، وجابر عصفور، وماهر شـفيق فريد، وهـذا الجيل له رواد مثل: إدوارد الخراط، ورجاء النقاش، وبهاء طاهر، والطاهر مكي.

كمـا أن أفـراد هـذا الجيـل عاصـروا أحداثًا جسـامًا في تاريـخ وطنهم وأمتهـم؛ فقد عاصروا الاحتلال البريطاني لمصر، وعاشـوا عصر خمسـة حـكَّام: الملـك فـاروق، ومحمـد نجيـب، وجمـال عبد الناصـر، وأنـور السـادات، ومبـارك. وعاصـروا الحـرب العالميـة الثانيـة، وحـرب ٤٨، والعدوان الثلاثي ١٩٥٦، وحرب ٦٧، وحرب ٧٣. وقد تأثر كل فردٍ من أفراد هذه الجيل بتلك الأحداث بدرجاتٍ متفاوتة. ويقدِّم ماهر البطوطي فـي كتابـه بعض الملحوظـات على تجربة هـذا الجيـل، يُجملها في حب التجديـد والتجريب في الشـكل والمضمون في كتابـة الأدب، والارتباط بأفـكار وأيديولوجيات معينة تصبـغ الأعمال الإبداعية والنقدية بصبغتها، والاسـتغراق فـي الذات إلى درجة النرجسـية، والولع بالسـفر والترحال، والإحساس بالغربة، فضلًا عن التشاحن والبغضاء والغَيرة ممَّن اشتُهر من جيلهـم، وأخيـرًا تأثير العامل الجنسـي فـي كتاباتهم حتى بعـد تجاوزهم المشكلة الجنسية.

تأثير نكسة يونيو/حزيران ١٩٦٧

يصف ماهر البطوطي أحوال مصر والقاهرة بعد نكسة ٦٧؛ فقد انتظم أمر الحياة في القاهرة لكن بشـكل مختلفٍ هذه المرة عمَّا كان سـائدًا من قبل؛ حيث سـاد الجميعَ شـعورٌ بسـقوط المشـروع القومي، وبالهوان من وجـود إسـرائيل غيـر بعيـد مـن العاصمـة، وبُنِيَـت السـواتر أمـام مداخل العمارات، وانتشرت أكياس الرمل في الشوارع، وران اللون الأزرق على

نوافـذ البيوت كلهـا. بيد أنه قابل هذا موجة من الأفلام الإباحية انتشـرت في سـينمات القاهرة العامَّـة، فلفت ذلك الأنظـار كمحاولة لإلهاء الناس عن التفكير فيما يحدث.

وعلـى الرغـم من شـؤم عـام ٦٧ في المجال العام، فـإن هذا العام كان مزدهـرًا لماهـر البطوطـي فـي النشـر، فقـد نشـر العديـد مـن الدراسـات والترجمات، ومنها مقال «أولاد حارتنا ومشـكلة الشـر» في مجلة **الآداب** اللبنانيـة، لكـن العـدد صـودر في مصر، بسـبب احتوائه علـى قصيدة نزار قباني الشـهيرة «هوامش على دفتر النكسـة». وواصل ماهر البطوطي نشر نصوصـه مثـل ترجمتـه لقصيدة لـوركا الشـهيرة «مرثية مصـارع الثيران»، ونشـرها في مجلة **الهلال** التي كانت من أوائل المجلات التي طالعها في طفولته ومراهقته ففرح بالنشر فيها، ونشر مقالًا عن رواية **العجوز والبحر** لإرنسـت همنجواي في مجلة **تراث الإنسانية** التي سبق أن تولَّاها العقاد، وكانـت تهتمُّ بمراجعـات الكتب فقط. وتلا ذلك صـدور ترجمته لكتاب **بابا همنجواي** الذي كتبه صديقه هوتشنز، وكانت هناك موجة من الاهتمام بأدب همنجواي بسـبب ظروف موته، فالبعض قال: إنه انتحار، والبعض قـال: إنـه قتـل بالخطأ في أثنـاء تنظيف بندقيتـه. وقد شـجَّعه على ترجمة الكتـاب سـهيل إدريس، ولعـل هذا الولع بالنشـر والكتابة وسـط الهزيمة يعكـس الرغبـة فـي تلمُّـس الخـلاص الفـردي فـي الأشـياء الخاصَّـة والاهتمامات الثقافية بعيدًا عن فشل السياسة وأجواء النكسة الثقيلة، بعد أن تحطَّمت الآمال والأحلام بسبب فجيعة الواقع.

في ربوع الأندلس

فـي أغسـطس/ آب ١٩٦٩ سـافر ماهـر البطوطي إلـى إسـبانيا منتدَبًا للعمـل في المعهـد المصري في مدريد، وفي الطريق إلى إسـبانيا يتوقـف

للترانزيت في إيطاليا، ويصف للقارئ مشاعر الانبهار التي شبهها بمشاعر محجوب عبد الدايم بطل إحدى روايات نجيب محفوظ حين غشي أحد محافل الأثرياء. فالمنظر مغاير تمامًا لصالات الانتظار في مطار القاهرة، فكل شيء يبرق، والناس يروحون ويجيئون في نشاطٍ وحبور، والشباب يتعانقون في حرية ولا أحد يكاد يلتفت لهم. وفي هذه الأثناء، وقع بصره على مكتب الخطوط الجوية الإسرائيلية «العال»، فانتابته رعدة، كانت أول مرة يرى شيئًا إسرائيليًا في حياته.

تعلَّم ماهر اللغة الإسبانية في القاهرة فضلًا عن الإنجليزية التي يتقنها، وانتظم في دروسٍ للغة الفرنسية وهو في مدريد، وتهلَّل عندما رأى ترجمة إسبانية لمسرحية هملت، وكان يحمل النسخة الإنجليزية، فقرَّر شراء الترجمة الإسبانية ليتمرن فيها على اللغة المكتوبة، حيث إنه يكاد يحفظ المسرحية الأصلية.

وفي المكتبات انطلق يسأل عن شعرائه المحببين بالإسبانية: لوركا ونيرودا، فلما دخل إحدى المكتبات وسأل عن كتبهم، ردَّ البائع: «سنيور، نحن لا نبيع مثل تلك الكتب»، وتعجَّب ماهر من ردِّ البائع إلى أن فهم السبب لاحقًا، حيث كانت المكتبات منقسمةً إلى نوعين: الفريق الأول المحافظون الذين يناصرون فرانكو والكنيسة، وهؤلاء يبعدون عن مكتباتهم تلك المؤلفات التي تلوح عليها أمارات الليبرالية، دع عنك الاشتراكية والشيوعية. والفريق الثاني مناصرو الجمهورية، وهذه المكتبات تضم كتب لوركا الذي قُتل في الحرب الأهلية الإسبانية، ونيرودا المناهض لفرانكو.

وفـي الكتـاب وصفٌ لقراءات ماهر بالإسـبانية، وحديـث عن زياراته لمتاحف الفن، كل هذا متشابكٌ مع الحديث عن حياته الوظيفية ومتطلبات العمل في المعهد المصري في مدريد. وقد التقى ماهر البطوطي المترجمَ الفلسطينيَّ محمود صبح في المعهد، وكانت شهرة ماهر بدأت تنتشر بعد أن كتـب غالـي شـكري أن مـن بيـن أفضـل مترجمـي الشـعر: صـلاح عبد الصبور، وماهر البطوطي.

التقـى ماهر البطوطي فـي المعهد الكاتب عبد الرحمـن بدوي، وكان ماهـر معجبًـا بـه وبكتبه، خاصـةً كتابه **الحـور والنور**، وترجمتـه الفائقة لـ **دون كيخـوت**، وهـذا التعبير عن الإعجاب من ماهـر أزال بعض التحفُّظ الـذي اعتـاد عليه عبد الرحمـن بدوي مع الأغراب، وشـرح بدوي لماهر كيف عاد إلى عدَّة طبعاتٍ إسبانية لـ **دون كيخوت** لمقارنة النص، وكيف غـاص فـي تاريـخ المفردات الإسـبانية فـي عصر سـرفانتس؛ حتـى يقدِّم الكلمـة الصحيحـة لمـا كتبـه. وقـد بقيـت كلمات بـدوي في ذهـن ماهر البطوطي وجعلته يضحك ساخرًا ممَّن يزعم أن بدوي ترجم **دون كيخوت** عن لغة غير الإسبانية.

وفـي المعهـد يلتقي ماهـر البطوطي العديـد من المثقفيـن مثل محمد عبد الله عنان، أحد أشـهر من اهتمَّ بالدراسـات الأندلسية، وكذلك مختار العبادي. توقف البطوطي عن الكتابة والترجمة في إسـبانيا منشـغلًا بتعلُّم الإسـبانية والفرنسـية، وصدرت له فـي تلك الفترة ترجمتـه لرواية **صورة الفنان في شبابه** لجيمس جويس، وقد ترجمها قبل سفره إلى إسبانيا.

وأتاحـت لـه مكتبة المعهد المصري في مدريـد الاطلاع على كثيرٍ من كتـب التـراث مثل: **نفـح الطيـب** للمقَّـري، **والإحاطة في أخبـار غرناطة**،

ورحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن جُبير، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي، والعديد من الدواوين الشعرية التي كان من الصعب الحصول عليها في القاهرة.

وأتاحت له الحياة في إسبانيا فرصةً للتجول في مدنها، فسافر إلى غرناطة؛ مهد شاعره المفضل لوركا. وفي الكتاب وصفٌ للمزارات السياحية والأماكن التي ذهب إليها، وزار قرطبة وطاف في أرجاء جامع قرطبة الذي تحوَّل إلى كنيسة، وانزوى وراء بعض الأعمدة وأدى الصلاة، وكانت تجربة مشاعر يصفها بأنها لا تُنسى.

في فترة انتدابه إلى إسبانيا زار باريس، ووصف رحلته إليها والأماكن التي زارها في الطريق، ووصف رحلته إلى لندن للتعرف إليها، وزيارة بعض أصدقائه مثل المترجم محمد عناني، وحدَّثه محمد عناني عن مشاريعه الثقافية عندما ينهي الدكتوراه ويعود إلى مصر، وذكر له نيته ترجمة الفردوس المفقود لجون ميلتون، وبالفعل مرت السنون وترجمها محمد عناني، وكذلك أخبره بنيته أن يترجم مسرحيات شكسبير إلى العربية وهو ما حدث لاحقًا.

قراءات وكتب

يخصِّص ماهر البطوطي فصلين في مذكراته لوصف الكتب، نقتطف منها بعض الإشارات. يصف لنا الكاتب مكتبته وهو يجلس ويرى على الأرفف المؤلفين الذي يحبهم ويشعر أنه بصحبتهم، ويصف لنا ركن جيمس جويس في مكتبته، ويضمُّ مؤلفاته فضلًا عن الكتب التي كُتبت

عنه، وذلك إلى مقتنيات تخصُّ جويس منها صورته على العملة الأيرلندية في عهد ما قبل اليورو.

ويتبع جيمس جويس على الأرفف وفي قلب المؤلف إرنست همنجواي. وفي الأرفف أيضًا كتب والت ويتمان الشاعر الأمريكي، الذي اقتنى ماهر البطوطي كلَّ كتاب كَتَبه، حتى ترجمات ديوانه إلى الفرنسية والإسبانية. وقد أحسنت دار عالم الأدب مؤخرًا بنشر ترجمة البطوطي لديوان والت ويتمان **أوراق العشب**، ليس هذا فقط، بل نشرت أيضًا **ديوان الغجر** للشاعر الإسباني لوركا ترجمة ماهر البطوطي، وكذلك رواية **الرئيس** للكاتب الجواتيمالي ميغيل أنخل أستورياس الحاصل على نوبل عام ١٩٦٧.

ومن المجموعات الأخرى كتب فرانز كافكا، فقد تركت حياة كافكا في نفس المؤلف أثرًا بالغًا. ومن الموضوعات الأثيرة لدى ماهر البطوطي في مكتبته السِّير الذاتية واليوميات والمذكرات وكتب الرسائل الخاصَّة، وكتب السيرة التي يكتبها متخصِّصون عن الأعلام، ومن المُتع التي يصفها في الكتاب مقارنته بين السيرة الذاتية التي يكتبها صاحبها عن حياته، وبين سيرته بقلم باحثٍ محايد يرجع فيها إلى الوثائق والكتب ويكشف عن كثير مما أغفله مؤلِّف السيرة الذاتية عن نفسه. ويذكر مثالًا على ذلك سيرة بابلوا نيرودا وما كتبه عنه آدم فينستاين، حيث ذكر كثيرًا من الأشياء التي لم يشر إليها نيرودا.

وفي الكتب العربية يذكر **ديوان المتنبِّي**، ومجموعة روايات نجيب محفوظ، وكتب لويس عوض وسيرته **أوراق العمر**، ويشير إلى هواية

طريفة، هي اقتناء توقيعات الأدباء على كتبهم، وكان أول توقيع يحصل عليه لجيمس جويس. وقد ضمَّت مكتبته العديد من الكتب التي جمعها، وفيها تواقيع أصحابها مثل ألبير كامو، وماركيز، وكولن ولسون، وتوقيع بابلو نيرودا الذي تعب في الحصول عليه، إلى أن وجد صديقًا من تشيلي مكَّنه من الحصول على كتاب عليه توقيع نيرودا، ولم يستطع الحصول على توقيع لوركا؛ لأنه باهظ الثمن. وجمع البطوطي توقيعات الحاصلين على نوبل، ووجد أن أغلى توقيع هو توقيع تشرشل، رغم أن تشرشل دخيلٌ على الأدب. أما أعزُّ توقيع على قلبه، فهو توقيع نجيب محفوظ، وكان قد طلبه من الكاتب محمد سلماوي فأرسله إليه.

ماهر البطوطي: حياة بين الكتب والفن

أحببتُ مذكرات ماهر البطوطي التي يستكمل فيها سرد أحداث حياته بعد عودته من إسبانيا إلى مصر، وقصة زواجه وولادة ابنه شريف، وعمله في الأمم المتحدة، وقد أعجبني هذا المزج بين الخاص والعام، وبين المشاعر الشخصية وتجارب الحبِّ، وبين حديثه عن الأدب والفن. كانت حياته كما يظهر في المذكرات تندمج فيها ترجماته وما يكتبه في الأدب وما يعيشه، وأحببت صراحته وهو يحكي عن قصص الحب التي خاضها، وكتب عن إيمانه وعلاقته بالقرآن، ففي النهار كان يقرأ كتاب **الصورة الشعرية عند شكسبير ودلالاتها**، وفي الليل يقرأ في سورة النور وتغشاه مشاعر إيمانية يصفها وصفًا جميلًا في الكتاب.

وأحببت ما يذكره عن مساعدة الناقد صلاح فضل له في الغربة في إسبانيا، وكذلك عندما يذكر اسم ماهر شفيق فريد في المذكرات، وأتذكَّر أن أول من نبهني لترجمات ماهر البطوطي هو ماهر شفيق فريد الذي يكنُّ له أعمق الاحترام كما ذكر ذلك في كتابه **قصَّ يقصُّ**. ولعل من يقرأ الكتاب سيجد كثيرًا مما عاشه هذا الجيل، وكذلك الكتب التي كانت تستحوذ على اهتمامهم آنذاك.

ماهر شفيق فريد: راهب القراءة

«قد لا تكون جنابك من شعب الله الخاص فلا تفهم ما يُراد بالصلاة للمنقطعين، إنهم أولئك الذين ليس لهم عقبٌ يصلي لأجلهم ويقدِّس. أجل، لقد بَعُدَ العهد بيننا وبين تلك الصلوات، ولكني فطنت في هذه الأيام إلى أن الصلاة «للمنقطعين» نفعتني جدًّا، إن لم يكن في الدين ففي الأدب، وكم للدين عند العلم والأدب من يدٍ، إني أميل جدًّا إلى منقطعي الأدب وكثيرًا ما أفكِّر بهم»

مارون عبود، رواد النهضة العربية الحديثة

ذكَّر الأستاذ عبد الله الهدلق في مقالة له بعنوان: «ببيلوغرافيا إعادة الذاكرة» بالصلاة للمنقطعين، عند ذكر مارون عبود، وهذه سنَّة حسنة، بإعادة التذكير بأصحاب الموهبة والإبداع، رغم قلَّة الأضواء.

منذ عدَّة سنواتٍ حضرتُ في كلية الآداب مناقشةً لرسالة ماجستير عن الشاعر الإنجليزي ت. س. إليوت، ومما لفت نظري في الإعلان وجود اسمين: الأول هو الدكتور محمد عناني؛ مترجم شكسبير وميلتون وبايرون إلى العربية، والثاني الدكتور ماهر شفيق فريد؛ مترجم إليوت. توقعت أنني لن أستطيع الحديث مع الأستاذين وسؤالهما؛ لأن طلبة الدراسات العليا سيلتفُّون حولهما فور الانتهاء من المناقشة يستفسرون منهم عن بعض المسائل في التخصُّص، لكني كنت ساذجًا، فلم أجد لمَّة ولا يحزنون، بل وجدت حفاوة من الأساتذة بالمناقشين وزهدًا من

الطلاب. تناقشت مع الدكتور عناني، ومما أتذكَّره في هذا النقاش إعجاب عناني بكتب صلاح عيسى المهتمَّة بالتاريخ الاجتماعي، ولا سيما كتابه **رجال ريا وسكينة** الذي قرأه في يوم وليلة.

وقد عرفتُ ماهر شفيق فريد أول ما عرفته من مقدمة محمد عناني لترجمته لكتاب **الاستشراق** لإدوارد سعيد؛ إذ قال عنه: «ولا بدَّ أن أسجل بالعرفان شكري لصديق العمر، العلَّامة والناقد الكبير والأديب ماهر شفيق، الأستاذ في قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة، فهو حجَّة هذا الجيل في الدراسات الأدبية والنقدية ... خصوصًا لتشجيعه لي على المُضيِّ في الترجمة وتحمُّل مشاق هذا النص العسير».

يحكي عناني تفاصيل صداقتهما في سيرته الممتعة **حكايات في الواحات**، فتابعت بعد ذلك ما يكتب ماهر وما يترجم، والرجل يتمتَّع بالعديد من الفضائل، منها فضيلة القراءة طويلة النَّفَس، فهو قادر على أن يشير إلى مصادر بالعربية لا يفطن لها باحث الإنترنت المتعجل، كمقالة منزوية في مجلة من الستينيات أو ترجمة لم يُعَد نشرها. وهو محبٌّ للقارئ المتذوِّق، ففي إحدى مقالاته يذكر مقاطع من رواية لصنع الله إبراهيم، ثم يذكر بعض ما اختاره بأرقام الصفحات دون اقتباس، ويقول لن أوردها هنا، حتى يعود إليها القارئ بنفسه.

صادفني خبر طريف عن أكاديمي مسيحيٍّ يستشهد بآية من القرآن في إحدى الندوات العامَّة، ولم يكن هذا الأكاديمي إلا ماهر شفيق، فهو شديد الشغف باللغة العربية، ففي مقدمة كتابه **قراءات شتَّى** يحكي أنه شغوفٌ باللغة العربية، فهو لا يكفُّ عن مراجعة المعجمات ودوائر

المعارف القديمة، فهو ابن مخلص للغة الضاد، عربيته تمتاح من الشعر الجاهلي والأموي والعباسي وما أعقبه، ومن لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف (كذا كتب)، ومن آثار الكُتَّاب والمنشئين من فلاسفة وفقهاء في شتَّى عصور العربية، وحبه للعربية مصدره شعوره ببؤس الحياة الثقافية الحالية، فأدباء العربية المعاصرون ينتجون في أحسن الأحوال شيئًا ليس بجيدٍ ولا رديء ولكنه بين بين.

يتابع كاتبُنا ما يصدر في الدوريات البريطانية والأمريكية الأدبية منها على وجه الخصوص، ومشاهداته عن الحياة الثقافية في لندن مما رأى وسمع، وهو صاحب نَفَسٍ ببيلوغرافي، فهو الذي جمع أكبر ببلوغرافيا إنجليزية عن نجيب محفوظ، وببلوغرافيا طويلة عن إليوت، ووضع ماهر قائمة بأعمال مجدي وهبة وتوماس هاردي في اللغة العربية، وما كُتب عن مذهب التفكيكية في الأدب، كما كتب مقالةً عن كتابات إبراهيم ناجي النثرية، وكتب عن بورخيس في الثقافة العربية. ولا يمكن أن نتجاهل جُمَلَه الاعتراضية الجميلة، والعبارات القصيرة التي يتوقف عندها، ففي مقالة عن وحيد النقاش ينقل عبارته عن أحد كتب يحيى حقي فيقول: «إنه كبعض المظاهر الطبيعية ظلٌّ يتكوَّن ببطء على مرِّ الزمن».

أما عن المنقطعين الذين نسيهم الناس في دنيا الأدب، فقد جمع مختاراتٍ لميخائيل نعيمة، ومي زيادة، ومحمد مصطفى بدوي، وفخري أبي السعود، ووحيد النقاش شقيق الناقد المعروف رجاء النقاش، وغالب هلسا، وسامي خشبة وغيرهم كثير، مع إلقاء الضوء على أعمال كاد النسيان يطويها.

وينطبق على كتب ماهر شفيق فريد عبارة العقاد «أشتاتٌ مُجتَمِعات»، فهي في أكثرها مقالات مُجَمَّعة، منها ما سيبقى ومنها ما هو أشبه بيومياتٍ ثقافية، تؤرخ للحالة الثقافية في مرحلة ما، وله مقالات ممتعة مثل مقالته عن مفارقة السجن والحرية في كتابه **في الأدب والنقد**، ومتابعته لما تخرجه المطابع من ترجماتٍ جديرة بالتقدير.

اشتغل ماهر شفيق بالترجمة، وهي مهنة جاحدة تأكل سنين العمر؛ فقد أنفق ستة وثلاثين عامًا في جمع مواد كتابه عن المقالات النقدية لإليوت، وقبلها ترجمة قصائد إليوت في مجلدين على صعوبة ترجمة الشعر، فالشعر أكثر الفنون عنادًا في محليته على حدِّ تعبير إليوت، وإن كان يفضِّل طريقة تحرير المترجمة القديرة سلمى الخضراء الجيوسي في تكليف أحد المترجمين العرب بترجمة القصيدة حرفيًّا إلى الإنكليزية، ثم تعهد بها إلى شاعر بريطاني أو أمريكي ليتولَّى إعادة صياغتها.

ويؤكِّد ماهر شفيق فريد ما يسميه «الرحم الثقافي للنص»، ويقصد به السياق الاجتماعي والثقافي للنص الأدبي، وحرصه على أمانة نقل النص المترجَم، وحاجة المترجِم إلى فهم هذا الرحم الثقافي تعينه على نقله إلى لغته الأم، فقد نبَّه على ألوان سوء الفهم لإليوت.

وهو حريص على إنعاش الذاكرة الثقافية العربية قصيرة الأجل؛ فيشير إلى ترجمات عبد العزيز توفيق جاويد مترجم كتاب **معالم تاريخ الإنسانية** لـ هربرت جورج ويلز، ويعرب عن تقديره لها، وينبهنا إلى أن المناخ الفكري العام من حولنا لا يشجِّع على ما أخذ به عبد العزيز نفسه من الجدِّ الصارم والحفاظ المُر، والخلق الوعر.

سيرة ماهر تذكِّرنا بفضيلة القراءة، وهي الفضيلة نفسها التي نبَّهنا إليها في مقالته عن نجيب محفوظ فيقول: «ودرس محفوظ هو درس الالتزام والانضباط والنظام؛ فلقد نأى بنفسه عن الفوضوية البوهيمية التي يعمد إليها كثيرٌ من الفنانين، واختطَّ لحياته نهجًا صارمًا يعرف قيمة الوقت، ويعكف على القراءة المستمرة».

القسم الخامس

قصص الأدباء

ليالٍ عشر مع المتنبي

كتب خالد الكركي دراسةً عن المتنبّي بقلم شاعريٍّ وروحٍ درست حياة المتنبّي واستوعبتها. أما العنوان فهو إحياء لكتاب أستاذه محمد عبده عزام الذي كتب كتابًا بعنوان: **ليال خمس مع أبي تمام** وأطلق فيه لروحه العنان بعيدًا عن جفاف الدراسات الأكاديمية. وكتاب الكركي بديع، فهو محاورة بين المؤلِّف والمتنبّي؛ إذ يسأل المؤلِّفُ المتنبّي ويناقشه، ويراه قلقًا ولكنه أيضًا ضجر ومتكبّر وصادم. وأنا أقرأ الكتاب كنت أقف مشدوهًا أمام كثيرٍ من تلك الأسئلة التي جالت بخاطري عن حياة المتنبّي شاعر العربية الأكبر، وهي أسئلة مدعومة بأبيات المتنبّي حتى تقرأ النصَّ بعذوبة بالغة.

المتنبّي غريب الوجه واليد واللسان، والسهم الذي لم يعُد إلى قوسه. وفي بداية الكتاب يحاول المؤلف أن يعرف بنفسه، فيقول: «إنه ليس الذي نظر الأعمى إلى أدبه، ولا الذي إذا قال شعرًا أصبح الدهر مُنشدًا»، ويحكي للمتنبّي أنه كتب كتابًا عنه بعنوان: **الصائح المحكي**. وسيذكّر المؤلفُ المتنبّي برائعته في مدح سيف الدولة، والتي يراها تفوق كل مدحه لكافور:

نَزُوُر دِيَارًا مَا نُحِبُّ لَهَا مَغنَى
ونَسأَلُ فِيها غَيرَ ساكِنِها الإِذنَا
وقد عَلِمَ الرُّومُ الشَّقِيُّونَ أَنَّنا
إذا ما تَرَكنَا أَرضَهُم خَلفَنَا عُدنَا

وأَنَا إذا مَا الموتُ صَرَّحَ في الوَغَى

لَبِسنَا إلى حَاجَاتِنا الضَّربَ والطَّعنا

قَصَدنَا لَهُ قَصدَ الحَبيبِ لِقَاؤُهُ

إلَينا، وقُلنَا لِلسُّيُوفِ هَلُمَّنَّا

وما الخوفُ إلاَّ ما تَخَوَّفَهُ الفَتَى

وما الأمنُ إلاَّ ما رَآهُ الفَتَى أَمنَا

ينكر المؤلِّف غرض الحكمة في أشعار المتنبِّي، ولا يجد لذلك القول وجهًا، فآخر وصف يمكن إطلاقه على المتنبِّي أنه حكيم، وما ظنَّه الناس في شعره حكمةً إنما هو شيء من وجود المتنبِّي في مشهد الحياة، أي وهو «يطارد خيلًا من فوارسها الدهر».

ومَن صَحِبَ الدُّنيا طَويلًا تَقَلَّبَت

على عَينِهِ حتى يَرَى صِدقَها كِذبَا

وعلى قَدرِ أهلِ العَزمِ تَأتِي العَزَائِمُ

وتأتي على قدر الكرام المكارم

يحاول المؤلف الإمساك بتلابيب شخصية المتنبِّي المبثوثة في أبياته، هذا الوحيد من الخلَّان في كل بلدة، العُذري وصاحب العفَّة لما قال:

يَرُدُّ يَدًا عَن ثَوبِها، وَهوَ قَادِرٌ

وَيَعصِي الهَوى في طَيفِها، وَهوَ رَاقِدُ

أبونا الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، لنحاول أن نراه بعيدًا عن تحليل شخصيته، لنقرأه من خلال أبياته، وسيرة المؤلف معجونة بحياة المتنبِّي وأبياته، يقول الكاتب: أقف أمام ضريح أمي وأردِّد:

وما انسَدَّتِ الدُّنيا عَلَيَّ لِضِيقِها
ولكِنَّ طَرْفًا لا أَرَاكِ بِه أَعمَى

يريد المتنبّي أن يكون الشاعر الأوحد، وأن نلغي من سواه، يريدنا المتنبّي أن نراه وسط معركة «تطاعن خيلًا من فوارسها الدهر».

وأحيانًا: «وحِيدًا، ومَا قَولِي كَذا! وَمَعِي الصَّبرُ».

وأحيانًا: «يُحاذِرُنِي حَتفِي كأنِّيَ حَتفُهُ».

وأحيانًا «ما أَبتَغِي جَلَّ أَن يُسمَى».

نرى المتنبّي في هذا البيت:

وتَركُكَ في الدُّنيا دَوِيًّا كأنَّما
تَدَاولُ سَمع المَرءِ أَنمُلُهُ العَشرُ

إن المتنبّي قال: تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، لكن رياح أحوال المتنبّي أتت بما تشتهيه سفنُه، وبقي من الخالدين، المتنبّي الذي أرَّقتنا أناه المتضخِّمة نسمعه يقول: «والدهر من رواة قصائدي»، «أنا السابق الهادي إلى ما أقوله»، «أنا الصائح المحكي»، «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي»، «أنا صخرة الوادي»، «ما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي»، «ترب الندى ورب القوافي»، «ومن لو رآني ماءً مات من ظمأ»، إلى غير ذلك من تهديدٍ لملوك العرب والعجم، إلى أن يصل إلى قوله:

وَلَو بَرَزَ الزَمانُ إِلَيَّ شَخصًا
لَخَضَّبَ شَعرَ مَفرِقِهِ حُسامي

فضلًا عن كونه يحاذره حتفه كأنك حتفه، وكأنك دحوت الأرض، لكن هذا هو المتنبّي النهاري، يحضر في المساء متنبٌّ آخر يذهب بإرادته إلى كافور، ويقول: «كفى بك داءً أن ترى الموت شافيًا»، ويغادره وهو ينشد: أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا، ثم يحاوره أو يحاكمه على شعره في كافور ويضعه على السفود، ثم يسأله عن مدحه لعضد الدولة وشعره السقيم فيه، ويضع أمامه الدليل بالأبيات.

حاولت التخفُّف من نقل كل المداولات بين الكركي والمتنبّي، والخطبة الطويلة التي قدَّم بها الكركي لمقارنته بين مدح حسان بن ثابت أمام النعمان ومدح المتنبّي، ويسأل الكركي المتنبّي: «كان لك سيد وسيف ولم يكن لك عشيرة أو دولة؟».

ويسأل الكاتب المتنبّي: لمَ تردَّدت في البوح - وهو سيد الشكوى من الزمان والحُكَّام - عن الحبيب:

لَيالِـيَّ بَعـدَ الظَّاعِنِيـنَ شُـكُولُ
طِـوَالٌ، ولَيـلُ العَاشِـقِينَ طَويلُ

ثم يكمل نصه الشاعري ويسأل وكلما شرقنا بالماء ونحن بين يدي الحبيب ذكرناك، ألم تقل:

ومَـا شَـرَقِي بِالمـاءِ إلا تَذَكُّـرًا
لِمَـاءٍ بِـهِ أهـلُ الحَبيـبِ نُـزُولُ

تـرب النـدى ورب القوافـي ومـن شـرف قومـه بـه، وبنفسـه فخـر لا بجدوده، والذي لا أحد فوقه ولا أحد مثله، هذا وهو في أول الشباب، لا

يعانـي الوجـد وذلِّ الحب، لكـن قصيدته في علي بن أحمد الطائي تشـي بشاعر عذريٍّ كبير:

تَذَلَّلْ لها واخْضَـع على القُرْب والنَّوَى
فمـا عاشـقٌ مَـنْ لا يَـذِلُّ ويَخْضَـعُ

هـي السـيف والمجـد والخيـل، التي شـغلت عقـل المتنبّـي وبالَه، لا موجعات القلب، ولا الكفُّ التي تندى إذا ما لمسـتها، ولا ليلى الأخيلية التـي لـو سـلَّمت عليك ودونك تربة وصفائح لسـلَّمت تسـليم البشاشـة، يتمثَّـل لنـا المتنبّـي بالقوة والفخامـة والضجر والقلق، كأنه لـم ينكسـر في العيد، وينفجر حنينًا وهو يقول:

أَصَخـرَةٌ أَنَـا؟ مَـا لـيِ لا تُحَرِّكُنـيِ
هَـذيِ المُـدامُ، ولا هـذيِ الأَغَارِيدُ

يراه خالد صخرة، وهكذا رأى المتنبّي نفسه:

أنَـا صَخرَةُ الـواديِ إذا ما زُوحِمَت
وإذا نَطَقــتُ فإنَّنــيِ الجَــوزَاءُ

لا يذكـر لنـا المتنبّي من تلك التي «جفتني كأني لسـتُ أنطَـقَ قومِهَا»، ويسـير مثل الأسـد الذي لا يعـرف التحريم والتحليل، والـذي يطأ الثرى مترفقًـا مـن تيهه، هذا هو المتنبّي لا الأسـد ولا بدر بـن عمار، وهو عندما يمدح عبد الله بن يحيى البحتري:

متـى ما يُشِـرْ نحـوَ السـماءِ بوجهِهِ
تَخِـرّ له الشِّـعْرَى ويَنْخَسِـف البدرُ

يذبحنا المتنبِّي؛ لأنه يضع النصَّ الرائع في غير أهله! ولا يصف صاحب الأبيات بل يصف نفسه. إن مبالغات المتنبِّي تقوده لشيء غير مفهوم، أليس هو القائل:

واقِفًا تحتَ أَخمَصَي قَدْرِ نَفسي
واقِفًا تحتَ أَخمَصَيَّ الأنامُ

فلماذا يضع المتنبِّي نفسه تحت أخمص غيره؟

ينتقل المؤلِّف من مساءلة المتنبِّي إلى إيراد ملحوظاتٍ كثيرة على حياته لا يحسُن فيها التلخيص ولا الإشارة، فهي في الكتاب على أكمل وجه، إنما أكتب لأني أحب أن أشارك الناس ثراء حياة المتنبِّي وشعره وفنه، وجمال هذا النص البديع الذي كتبه دارسٌ مهمٌّ لشعر المتنبِّي، وستجد في الكتاب أسئلة أخرى عديدة؛ مثل: لماذا الإصرار على دراسة حياة المتنبِّي والنأي عن دراسته من خلال شعره؟ ويورد المؤلف في هذا المقام كلمةً لإحسان عباس تفيد أن السبب هو «الذعر الجميل».

النص محاورة بديعة بين الناقد والشاعر، يقول له: هل تقبل أن أمدحك بما قلتَه في عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي مقابل أن تتركني أكتب عنك بحرية دون أن يحضر ظلك على النص؟

رَجُلٌ طِينُهُ مِنَ العَنبَرِ الوَر
دِ وطِينُ العِبادِ مِن صَلصَالِ
فَبَقِيَّاتُ طِينِهِ لاقَتِ الما
ءَ فَصَارَت عُذُوبَةً في الزُّلالِ
وبَقَايا وقارِهِ عافَتِ النا
سَ فَصَارَت رَكَانَةً في الجِبَالِ

ثم يقسم له أن سيف الدولة لم ينل شطر بيت مثل هذا.

ويرى المؤلف أن قصائد المتنبّي الشاميات أعلى من السيفيات، ويستدلُّ على رأيه بأبياتٍ من قصيدة عالية في ذرى الجمال والشعر والإيقاع:

نَحنُ رَكْبٌ مِنَ الجِنِّ في زِيِّ نَاس
فوقَ طَيرٍ لها شُخُوصُ الجِمَالِ
مِن بَنَاتِ الجَدِيلِ، تَمشي بِنا في ال-
بِيدِ مَشيَ الأيَّام في الآجالِ

ونصُّ الكركي حافلٌ بالرثاء على حلب وحواضر العرب؛ إذ يقول مثلًا: «أنا لا ناقة لي ولا جمل بين أباعر قومي، لي فقط طَلَلٌ يشبهني، وهو الذي أدعوك للوقوف عليه ترى زمانًا تهشَّم تحت حراب الروم حتى نأت حلب، وغابت الفسطاط، وتهشَّمت بغداد، وضاعت الأندلس». المتنبّي المسكون بوجع الحُسَّاد وضجر الإقامة قرب كافور، وهزيمة الروح يوم وجد حكَّام بغداد على ما هم فيه، كأنه لا خليفة لهم «وسوى الروم خلف ظهرك روم».

أشعر بأني حرضتُ القارئ على أن يقرأ كتاب خالد الكركي، ففيه نقاشاتٌ بديعة، والنص يكشف عن ثقافة رفيعة في أدب العرب، وهو نصٌّ ذاتيٌّ يترك فيه الكاتبُ العنان لنفسه، ستصيبك الدهشة وتعود للديوان وللمتنبّي، وقد تحزن وأنت يحز في نفسك تذكُّر بطولات العرب في زمن الضعف، هذا الذي يحدث في الروح لمَّا نقرأ شعر هذا المتنبّي العبقري، أصوات الفرادة والأنا تعلو، والمعارك وسنابك الخيل، وتنهدات من المتنهِّد الأول.

وفي الكتاب إشارةٌ إلى بعض المراجع والكتابات عن المتنبِّي بداية من القاضي الجُرجاني في كتابه **الوساطة** إلى عبد الرحمن السقَّاف في **العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي**، وإشادة ببعض الدراسات مثل دراسة حسن الإمراني عن دراسات المستشرقين عن المتنبِّي، وكتاب **أطلس المتنبِّي** ليوسف الشيراوي، ودراسة عبد الله الجبوري عن المتنبِّي، وكتاب الطيب صالح **في صحبة المتنبِّي ورفاقه**، مع إشارة إلى دراسة ماسينيون **المتنبِّي إمام العصر الإسماعيلي**، وإلى بلاشير، وأبي العلاء المعري. كما يذكر المؤلف شُرَّاحَ الديوان القدامى ويناقشهم، وهم «الآباء المؤسسون» كما يطلق عليهم.

صورة المتنبي في الشعر العربي الحديث

«أنَا الصائح المحكِيُّ، والآخَرُ الصَّدَى»

المتنبِّي

نعـرض فيما يلي لكتاب الأديب الوزير خالد الكركي بعنوان: **الصائح المحكي: صورة المتنبِّي في الشعر العربي الحديث**. ويقدِّم لنا الكركي في هذا الكتاب قراءةً لصورة أبي الطيب المتنبِّي في الشـعر العربي الحديث، ويسـتهلُّه بالحديـث عـن أثر المتنبِّـي بين إيقاعـي المحموديـن الكبيرين: محمود سامي البارودي ومحمود درويش.

إنه المتنبِّي الذي لم يأتِ بعده من يملأ الدنيا ويشـغل الناس حتى نظر الأعمى إلى قصائده، وسـمع الأصمُّ وقع خطى قوافيه في حلب الشهباء. ويصفه الكركي بأنه دنيا من الكِبر والعُجب والقلق والغضب. وفي وصـف الكركـي للمتنبِّـي نسـتمتع بتلـك اللغـة الأدبيـة الرفيعة وتلـك الأوصاف المأخوذة من شعر المتنبِّي نفسه مكتوبة على هيئة نثر جميل.

يقـف الكركـي عنـد كلمة أميـر العرب التي يصـف بها المتنبِّي سـيف الدولة:

فَهِمــتُ الكتــابَ، أبَــرَّ الكُتُــب
فَـسَـمـعًـا لأَمــرِ أَمـيــرِ العرب

ويعتـرف الكركـي بأنـه يشـعر برعشـة الذعـر الجميل التي تسـري في عـروق الكتابة عندما يكتب عن المتنبّي، معتذرًا عن جرأته، وهو يتحدَّث عـن ذلكـم الشـاعر المولـع بالحـرب والليـل والخيـل، المتحيز للسـيف والصحـراء، الممتـدَّة قامتـه مـن ذرى النخيـل إلـى الهدف الـذي جلَّ أن يُسـمَّى، الكبيـر والقلـق والممتطـي بـرق الغمام. يريـد المتنبّـي أن يكون الشـاعر الأوحد وأن نلغي مَن سـواه، يريدنا أن نراه وسـط معركة «تطاعن خيلًا من فوارسها الدهر».

ويتغيَّا خالد الكركي في دراسـته أن يكتشف حضور المتنبّي في حركة الشـعر العربي الحديث، وهو حضور يلمسـه الكركي في أربعة أبعاد: فهو أولًا قامة يطاولها شـعراء الكلاسيكية الجديدة منذ البارودي، فيعارضون قصائده، بناءها وإيقاعها، غير أنهم يحاولون الإبانة عمَّا في نفوسهم هم، وإن حـاول بعضهـم الصعـود إلـى قمته، ويـورد الكركي نماذجَ من شـعر البارودي ومعارضاته للمتنبّي، وكذلك أحمد شـوقي، فكما يقول شـوقي ضيـف: «المتنبّـي هو القطب الذي يدور حوله شـعر شـوقي، والذي كان يرنو إليه في صناعته صباح مساء، فيخطف بصرَه سناه، ويقيِّده به، ويشده بأسـباب متينة»، ونرى معارضة شوقي لرثاء المتنبّي جدَّتَه، فيكتب شوقي رثـاءً لوالدتـه، وفي هذا الفصل نمـاذج متنوِّعة تنتهي مع نماذج من شـعر الجواهري وتأثره بالمتنبّي.

وأمـا البعـد الثانـي مـن أبعـاد حضـور المتنبّـي فـي الشـعر العربـي الحديـث فهـو كونه البطـل المبجَّل الجليـل الذي يجتمعـون في ذكرى مولـده أو غيابـه، فينطلـق غناؤهـم إعجابًا وثناءً ومحاولة لتفسـير سـمو مكانتـه، وسِـر كبريائـه وقلقه. فبعد انحسـار نهج المعارضـات، وانبثاق

الرومانسية العربية الجديدة مع «جماعة أبولُّو»، في منتصف الثلاثينيات، ظهرت مرحلة التحول نحو البطولة في النظر إلى المتنبّي، فهو يختصر بشعره كبرياءه. وكانت مجلة **الهلال** قد أصدرت خلال هذه الفترة عددًا خاصًّا عنه، وتُرجم كتاب بلاشير عنه، واحتفل أهل المهجر الجنوبي بألفية المتنبّي في سان باولو بالبرازيل سنة ١٩٥٣، وأُقيم مهرجان المتنبّي في دمشق بدعوة من المجمع العلمي عام ١٩٣٦، ويقدّم لنا خالد الكركي نماذجَ من قصائد الشعراء عن المتنبّي مثل: شفيق جبري، ومعروف الرصافي، وخليل مردم بك. أما القصيدة الأوضح رؤيةً والأروع جمالًا في التشكيل فهي قصيدة «المتنبّي والشهباء» للأخطل الصغير:

تَكَشَّفَ الصُّبحُ عن طِفلٍ ومارِدة
لـهُ علـى صدرِهـا زَأرٌ إذا غَضِبـا
كأنَّـهُ الزِّئبَـقُ الرَّجـراجُ فـي يَدِهـا
أو خَفقَـةُ البَـرقِ إمَّا اهتَـزَّ واضطَربا

والتي ولَدت المتنبّي ماردةٌ من الجنّ، وهو لا يبكي على صدرها بل يزأر، ثم تشرح القصيدة نقاشات الجن حول تسمية المتنبّي، ويتتبع الكركي صورة المتنبّي البطل في قصائد عمر أبي ريشة، وأحمد محرم وإلياس فرحات وغيرهم.

ويتمثل البعدُ الثالث للمتنبّي في كونه رمزًا ومعادلًا موضوعيًا وقناعًا أو مرآةً، يوظفه الشعراء المعاصرون خصوصًا في شعر التفعيلة؛ لأن

الاتكاء على اسمه وسيرته يغني عن كثيرٍ من الرموز والغامض من الكلام، فهناك توظيفٌ لرمزية المتنبّي وسيرته وحالاته ليعبّر الشاعر المعاصر من خلالها عن موقفٍ لا يريد الكشف عنه مباشرة. إن القناع حالةٌ تساعد على التخلُّص من المباشرة والتقريرية، هنا المتنبّي (الرمز) في الشعر العربي الحديث.

ويستحضر أمل دنقل حالة المتنبّي البائسة في مصر عندما أحسَّ أنه مقيَّد بإرادة كافور، وتبدو أزمة المتنبّي واضحةً في قصيدة أمل دنقل، فهو ينشد كافور عن سيفه الشجاع، مع علمه بأن الصدأ يأكل السيف، يقول أمل دنقل:

جاريتي من حلب تسألني متى نعود؟

قلت: الجنود يملؤون نقط الحدود

ما بيننا وبين سيف الدولة...

أما خليل الخوري فيكتب رسائل للمتنبّي ويقول له:

أبا الطيب،

ونحن نصيح من عام النزوح ولا

علي يجيب صيحتنا وينتصر

ونحن نلوب على علي ينجدنا وننتظر

وكلهم علي ما له رمح، ولا مهر ولا وتر

وأما البعد الرابع والأخير لحضور المتنبّي في الشعر العربي الحديث فيكمن في قراءة سيرة حياته وإيجاد نوعٍ بين الشبه بين تجربته وعذاباته وبين زماننا الذي ظلَّ مثل زمانه إلى حدٍّ بعيد، فالمسافة والمقارنة بين القرن الرابع والقرن الخامس عشر للهجرة مسافة كبيرة.

ومن العجيب أن كتاب الكركي منشور عام ١٩٩٩، ولم أرَ طبعة ثانية منه، أي أن هذا الكتاب نُشر منذ ما يزيد على عشرين عامًا تقريبًا ولم تنفد طبعتُه الأولى، ثم نسأل هل يقرأ العرب؟

عصر الملكيَّة عصر المنفلوطي..
هل كان جنَّة؟

تُعَدُّ الحقبةُ الواقعة بين ثورتي ١٩١٩ و١٩٥٢ من الحقب التاريخية الثريَّة؛ فهي تبدأ بثورة ١٩١٩ الشعبية، وتتخللها وفاةُ سعد زغلول، وإعلان الدستور، ومعاهدة ١٩٣٦، والحرب العالمية الثانية، والمشاركة في حرب فلسطين، وتنتهي يثورة يوليو/ تموز ١٩٥٢، التي أسبغت على تلك الحقبة كل صفات الظلم والعَسف، بداية من وصف حياة الإقطاعيين، وبذخ الملوك، وانتهاءً بتحريض تلاميذ المدارس على مشاهدة فيلم رُدّ قلبي بتذاكر مجانية من الحكومة؛ لكي يبغضوا الملكيَّة التي لم يعرفوها.

لكن الغريب حقًّا ما رأيناه من ردٍّ فعل يمجِّد هذا العصر، ويحنُّ إلى نمط الحياة فيه عبر الصور القديمة بالأبيض والأسود التي تنتشر على وسائل التواصل الاجتماعي، ويتمُّ تصوير مصر الملكيَّة على أنها جنَّةٌ فسدت بعد ثورة يوليو/ تموز، وكلتا الصورتين تتحاشى تفاصيل الواقع.

ومن الكتب التي أيقظت شعوري بالظلم ومدى القهر في تلك الفترة من تاريخ مصر كتاب **الرحلة** لفكري الخولي، الذي يحكي فيه سيرة حياته، فقد عمل في مصنع الغزل والنسيج في المحلة الكبرى. ويتحدَّث عن متاعب العامل منذ خروجه من القرية إلى المصنع. وهنا يظهر الاختلافُ بين حياة العمَّال الحقيقية ومعاناتهم، وبين الصورة التي تُقدَّم

في كتب المدارس وفي الإعلام، فمصنع الغزل والنسيج هو قلعة الصناعة المصرية، وشارك فيه طلعت حرب. لكن هناك خلف تلك الصورة البراقة للصناعة المحلية صورة أخرى من عمالة أطفال، ومشاجرات بين العمَّال وأهل المحلة الكبرى بسبب ما جلبه قدوم العمَّال من ارتفاعٍ في الأسعار، ووفاة الكثيرين متأثرين بالأمراض الصدرية بسبب غبار القطن، فضلًا عن الفقر المدقع. ويعكس لنا هذا الوصفُ أجواء المستشفيات، وإصابة عامَّة الناس بالأوبئة والأمراض، وانتشار البغاء، وتغيب عنه صورة زخارف القصور والأناقة الملكيَّة.

ثم وقع في يدي كتاب **عصر ورجال** للكاتب فتحي رضوان، ففتح عيني على ما يشبه مرافعة من محامٍ قديرٍ؛ فهو يدرس محاسن تلك الحقبة وعيوبها، ونجوت بفضل تلك القراءة من اختزال أحداث هذا العصر العريض في أحكام حدِّية قاطعة، فهو مثل كل فترة تاريخية حمل حلولًا لمشاكل طالما عانى منها الناس، ولكنه حمل همومًا جديدة.

كتب فتحي رضوان مقدمةً ضافيةً تناسب موضوعه سمَّاها «روح العصر». لقد اختار أن يقدِّم تاريخ تلك الفترة من خلال تاريخ الشخصيات الثقافية البارزة، مثل أحمد شوقي ومي زيادة والعقَّاد والمازني، وغيرهم من الأعلام الأدبية، متوخيًا ربط أحداث حياتهم بتاريخ مصر السياسي والاجتماعي، واتخاذهم مرآةً للحياة العامَّة.

لقد وصفه البعض بأنه عصر ذهبي، عاش فيه عمالقة الشعر، وكبار الكتَّاب، عصرٌ بذَرَ بذور النهضة، وهيَّأ لها أسبابها، وأعدَّ خمائرها، هكذا يورد فتحي رضوان الصفة ليبرز نقيضها بعد ذلك. فهو يجمع الأقوال

ويعرضها بأناة شديدة، ويقلّب مع القارئ وجهات النظر. هذا عصر يُوصف بأنه عصر الدستور، والاعتراض على حكومات الأقليَّة، والدفاع عن الحقوق الأساسية للشعب، وأما عن الناحية الثقافية فقد تُرجمت فيه الكتب الأجنبية وبدأت حركة التنوير، وتلاحقت على مدى سنينه مؤلفاتٌ لم يشهد العصر الذي سبقه نظيرًا لها.

وعدَّه البعضُ الآخر عصر العظائم، فلا عجب إذ جمع فتحي رضوان مفاخره كلها: إعلان الدستور، ونهوض الجامعة المصرية التي كانت قد أُنشئت قبل بضع سنوات، وحركة ١٩٣٥، وبدء بروز فكرة الوحدة العربية التي أخذت تعلن عن نفسها، وعرض قضية استقلال مصر في الأمم المتحدة.

وهو عهد الصحافة الكبيرة التي زادت عدد صفحاتها، وزاد قراؤها، وزاد محرروها وارتفع أجرهم، كما ارتفع قَدرهم. وهو عهد ظهرت فيه المقاومة المسلَّحة ضد الإنجليز، وتحرر الشباب من سيطرة الزعماء التقليديين، وخرجوا على الأحزاب التي أنهكها الصراع الحزبي.

لكن على الضفة الأخرى ثمة صورة مختلفة...

يحاول فتحي رضوان أن يقدِّم عريضةً بكل الاتهامات التي يمكن أن نلقيها على هذا العصر ورجاله. فقد نظر إليه البعض بوصفه عصر انحلال وفساد وعمالة وخيانة، انتشر فيه الأقزام الذين لم يقولوا قولًا ذا قيمة، ولم يفعلوا شيئًا ذا جدوى، وأضاعوا على بلادهم فرصة ثمينة.

ويستكمل اللائحة بأنه العصر الذي أطفأ جذوة ثورة ١٩١٩، ونقلها من الكفاح المجيد ضد الإنجليز، وكفاح الفلاحين في القرى، والعمَّال في المدن، والطلبة والمثقفين في طول البلاد وعرضها؛ إلى منازعاتٍ

حزبية صغيرة تافهة استهدفت أكثر ما استهدفت كراسي الوزارة، واستعملت أكثر ما استعملت حقوق الشعب ومبادئ الدستور ونزاهة الحكم وشتَّى الوسائط لتحقيق المآرب الخاصَّة وإشباع الأطماع الحزبية.

أما عن المؤلفات الكبرى في هذا العصر، فقد كانت في معظمها مجموعة مقالات. لقد اتسمت أكثر آثاره بالطابع الصحفي الذي يميل إلى العجلة، والخفَّة، وإشباع حاجات الساعة بلا تعمُّق ولا تخصُّص ولا أناة. وإذا عدَدته عصر العظائم الذي أُعلن فيه الدستور، فقد عُطِّل فيه الدستور أيضًا، ولم يسلَم الدستور لأيِّ مدَّة زمنية معقولة طيلة ثلاثين عامًا، فهو إما موقوف، وإما مُلغى، وإما مُنتَهَك من جانب حكومات الأكثرية والأقلية جميعًا. وهو العصر الذي أُعلنت فيه الأحكام العرفية، فاستمرت واتصلت لأوهى الأسباب، حزبًا بعد حزب، وحاكمًا بعد حاكم، حتى أصبحت هذه الأحكام هي الأصل، والحرية هي الاستثناء. وكُتَّابنا الكبار يهاجمون هذه الفترة حين يكون حزبهم في المعارضة، ويدافعون عنها حين يئول إليهم السلطان!

وهكذا تحوَّل عصر الصحائف الكثيرة إلى عصر كان فيه الصحفيون سلعًا معروضة في الأسواق يشتريها من يدفع أكثر، أو كالممثلين في المسارح، يغيِّرون كل يوم ثيابهم، ويُخفون وجوههم. وانتشرت الإشاعات عن طريق الصحف، وشاع تلفيق الحكايات وإسباغ هالات المجد على ذوي السلطان.

وهو عصر آخر الشعر؛ إذ يرصد فتحي رضوان شعراء تلك الفترة ابتداء بأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، وأحمد محرم،

وعلي الجارم. وجاء في أعقابهم جيل قوامه عباس العقاد، وعبد الرحمن شكري، وإبراهيم المازني. وتلاه جيل أبرز أسمائه أحمد رامي، وأحمد زكي أبو شادي، وإبراهيم ناجي، وعلي محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل، وعبد الرحمن صدقي.

ويوضّح رضوان أن مصر لم تعرف قبل هذا العهد مثل هذا العدد الكبير من الشعراء على اختلاف مدارس الشعر، من محمد علي إلى عهد الثورة العرابية فعهد الاحتلال. فشعراء تلك الحقبة السابقة لم يزيدوا على خمسة شعراء يتقدَّمهم محمود سامي البارودي، ثم يلحق به أحمد شوقي، ثم حافظ إبراهيم، ثم إسماعيل باشا صبري. وقد بقي شوقي وحافظ لينضما إلى حَمَلة ألوية الشعر في عهد ما بعد ثورة ١٩١٩. إنه زمن غنيٌّ بشعرائه قطعًا.

كان الشعر من أكبر متع الناس، ويصف فتحي رضوان مدى تأثُّر الناس بالقصائد التي لم تكن مجرَّد عمل فنيٍّ مقصور على نخبة من رجال الأدب، بل كانت حدثًا قوميًّا يشغل الأديب وغير الأديب ويتحدَّث عنه الناس في دواوين الحكومة وعلى المقاهي وفي عربات الترام، وحمل الشعر أجواء الكفاح القومي وتغذَّى على معاني الوطنية.

لكنه يستدرك ويسرد عيوب الشعر خلال تلك الفترة، فقد كان يخاطب الجماهير، ويصف ما يدور في نفوس الناس، ويترضَّاهم، ويجري إلى ما يتجهون إليه، فلم تكن روح الشاعر في هذا الشعر تظهر في أبياته، وإنما كان يظهر رأيه ومذهبه السياسي أو المذهب الذي يدافع عنه. كان الشعر أقربَ ما يكون إلى المقال السياسي أو الخطبة، والعيب الأكبر هو تحوُّل

الشعر إلى بضاعة يتكسَّب منها الشاعر مالًا ومنصبًا أو جاهًا، فما من شاعر إلا وكان له قويٌّ يلوذ به، فيجري عليه الرزق والحماية: كان شوقي شاعر القصر، وأما حافظ فكان في حماية محمد عبده، ثم الوزير أحمد حشمت باشا، ثم بيت محمود باشا سليمان وأبنائه، والأباظية، ثم سعد والوفد، وقد انعكس هذا كله على شعر هذين الشاعرين، فبعض القصائد اقتضتها الظروف العابرة، وميل الشاعرين إلى تملُّق الأقوياء، وترضِّي ذوي السلطان. ويشرح رضوان أن الرأي العام قد تغاضى عن هذه القصائد ولم يشتدَّ في لومهم الشعراء، بل بقي صوتهم مسموعًا وأسماؤهم ذائعة، رغم سقطة مدح حافظ للإنجليز، ومدحِ شوقي لأعوان الإنجليز وعملائهم من أمثال مصطفى فهمي وأضرابه، لكن هذا الجو الأدبي المحب للشعر سيندثر مع مطلع الثلاثينيات، في أعقاب وفاة شوقي وحافظ وبروز «مدرسة الديوان».

عهد المنفلوطي وتحت ظلال رواياته

يرى فتحي رضوان أن صورة هذا العهد لا تكتمل إلا إذا وقفنا طويلًا أمام شخصية أدبية جليلة، هي شخصية مصطفى لطفي المنفلوطي الذي بلغ من النجاح والشهرة حدًّا لا مزيد عليه. ويذكر المؤلف أنه لم يكن ثمة بيت يخلو من كتاب للمنفلوطي يضمُّ مقالاته مثل **النظرات**، أو من واحدة من الروايات التي عرَّبها عن الفرنسية، فأقبل عليها الشبابُ إقبالًا حماسيًّا، وتخاطفوها وحفظوا أجزاء وفقراتٍ منها عن ظهر قلب.

بل إن لغة المنفلوطي طبعت أساليبَ الكتابة خلال ذلك العصر، وتسرَّبت ألفاظُه وتعبيراته إلى ما يكتب الناشئون. والمنفلوطي هو

أغـربُ مـن ترجـم إلى اللغـة العربيـة، فقـد كان لا يعرف الفرنسـية التي ترجـم عنهـا، ولا يعـرف أيَّ لغـة أجنبية، ولكنـه كان يتلقَّـى الحكاية من أصدقائه الذين يجيدون الفرنسـية، فيقرأ ما يكتبون أو يسـمع ما يقصون عليه ويحيط بالفحوى، ثم يعيد كتابتها، فكأنه ينشـئها بقلمه، أو يخرجها من قلبه.

ويحلِّل فتحي رضوان حالة التوافق الشـديد بين الأحزان التي صوَّرها المنفلوطـي فـي رواياتـه التـي عرَّبها، والأحـزان التي جاشـت في صدور الشـباب خـلال ذلـك العصـر. ويرى رضـوان أن مصـدر هـذه الحالة هو المثاليـة المخفقة والآمال الخائبة، وصراع الفضيلة في مجتمعٍ تنتشـر فيه مظاهر الانحلال. لقد كانت روايات **ماجدولين** و**في سبيل التاج** و**الشاعر** وجوهًا متعدِّدة لشـخصية واحدة: شـخصية المثالي الـذي يواجه مجتمعًا متصلبًا، المثالي الذي يؤثر التضحية في صمتٍ، وينكر ذاته غير ناظرٍ إلى الجـزاء أو الثـواب. كان المنفلوطـي مرحلـةً فـي حيـاة الأدب المصري، خصوصًـا بعـد الحرب العالمية الأولـى، وظلَّ نجيب محفـوظ يتذكَّر أثر المنفلوطـي بتقديـرٍ كبير. ورغم أن عصر ما بين الثورتين برزت فيه أعمالٌ أدبية أنضج، وقصص وروايات تعبِّر عن حالة المجتمع بشكل أعمق، فإن المنفلوطي يحوز قصبَ السبق.

ويختتـم رضـوان حديثه عن المنفلوطي بعبـارة جميلة؛ إذ يقول: «هذا هـو المنفلوطي، وهذا هـو دوره: واحد من ذوي الآثار الجميلة في تاريخ أدبنا بمنهجه وأسـلوبه، وتقدَّم كثيرون ممَّن سـاروا على دربه، ثم تناولهم الزمن بالتغيير والتطوير».

ولا يسـعفنا المجـال للتفصيـل فـي ما هيـة روح ذلك العصر، حسـبُنا لفتاتٌ في السياسة والأدب، وتبقى كتب مثل **عصر ورجال** لفتحي رضوان مقدمةً صالحةً لفهم حياة المجتمع السياسية والاجتماعية من خلال حياة المؤلِّفيـن، وكلها تدعونا إلى تجنُّب الأحـكام القطعية، وإلى أن ننظر إلى تلك الحقبة نظرة موضوعية، فنلتفت إلى محاسنها التفاتَنا إلى عيوبها.

مصطفى صادق الرافعي: حنانًا نأوي إليه

«رحمة الله على الرافعي، لقد شارك الأوائلَ عقولَهم بفكره، ونزع إليهم بحنينه، ثم صار إلى أن أصبح ميراثًا نتوارثه، وأدبًا نتدارسه، وحنانًا نأوي إليه»

محمود محمد شاكر

ذكريات

تعبِّر شهادة محمود شاكر عن حبِّه الجم للرافعي واستثنائه إيَّاه من زمرة من قصدهم بتهمة إفساد حياتنا الأدبية، كما وصفها في **رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**. أحنُّ إلى الرافعي حنان البدايات، فهو يقع في موقعٍ قريب من القلب، فكلماته ومعانيه الوجدانية تظلُّ عالقةً في عقل القارئ وقلبه، وما زلتُ أجد حنينًا لمذاق مقالته «اليمامتان» في وصف الفتح الإسلامي على مصر، أو ضحكي وصديقي على درج المنزل ونحن نقرأ مقالاته عن «خروف العيد» أو «حديث قطين» من كتابه **وحي القلم**، فيسحرنا هذا القلمُ وتلك الموسيقى، ووجدتُ في كتاب محمد سعيد العريان **حياة الرافعي** فرصةً لمعاودة الحنين والزيارة لأدب الرجل، والإشارة إلى لمحات من سيرة حياته، وتنسُّم عبير تلك الحقبة الزمنية في بدايات القرن المنصرم.

العريان وحياة الرافعي

تعـرَّف محمد سـعيد العريان إلى الرافعي فـي بداية حياته، فقدَّم بذلك خدمةً للأدب العربي بتسجيله سيرة الرافعي في كتابه **حياة الرافعي**، خدمة وصفها شـاكر بأنه «لو يسَّـر الله لكل شـاعر أو كاتب أو عالم صديقًا وفيًّا ينقلـه إلـى الناس أحاديثَ وأخبارًا وأعمالًا - كما يسَّـر الله للرافعي - لَما أضلَّـت العربيـة مجـدَ أدبائها وعلمائهـا، ولما تفلَّت من أدبها علمُ أسـرار الأساليب وعلم وجوه المعاني التي تعتلِج في النفوس، حتى يؤذَن لها أن تكون أدبًا يُصطفى»، فكسـر العريان بسيرته الصورة النمطية عن الرافعي، كشيخٍ متعجِّر العمامة، مسترسل اللحية، تقرأ له بحوثًا في الدين وآراء في التصوف، ودفاعًا عن القرآن؛ لكنه كان بجانب ذلك رجلًا رقيق الجانب، محبًّا للمزاح، مخالطًا للناس، شاب وما شاب قلبه عن أحاديث القلب.

قِبلة الرافعي

كان الرافعي يرمي وسط فساد الذائقة إلى أن يعيد الجملة القرآنية إلى مكانها فيما يكتب وينشـئ الأدباء، فأدبه يخالط النفس وينفذ في رفقٍ إلى القلـب، فهـو يسـتمدُّ أدبه مـن دراما الحياة الإنسـانية بصورهـا المختلفة، فكتابه **المساكين** جاء بعد الحرب العالمية الأولى، وفيه ظلالٌ من أحداث التاريـخ، ومقابلتـه لرجـل اسـمه الشـيخ علـي الجناحي، وكذلـك أغلب مقالاته في الرسالة.

كانـت قبلتـه التي اتجـه إليها في الأدب هـي النفس الشـرقية في دينها وفضائلها، فلا يكتب إلا ما يبعثها حيَّةً ويزيد في حياتها وسموِّ غايتها.

ثقافة الرافعي

ثمة عوامل ساعدت الرافعي على بلوغ مأربه من الكتابة والإنشاء؛ منها ثقافته الواسعة وقراءاته المتشعِّبة في بحر التراث العربي، فهو يجلس وحوله الكتب، وعندما يزوره ضيف يناوله كتابًا ويقول له هيا بنا نقرأ، فكان يقرأ نحو ثماني ساعات في اليوم، ورغم عاهته وحرمانه من السمع، فقد كان يمتلك حافظة قوية تعينه على سرعة الاهتداء إلى مراجع البحث، مع مهارة الاستدلال على مواضع النقص.

الأديب الموظف

عمل الرافعي في وظيفة إدارية بمحكمة طنطا، وكالعادة من الصعب أن نبحث عن حقِّ الرافعي على الأمَّة التي كان أحد الناطقين باسم لغتها وثقافتها، وأحد المدافعين المخلصين عن القرآن والأدب العربي، فعاش على بضعة وعشرين جنيهًا في الدرجة السادسة بعد خدمة امتدت قرابة ثمان وثلاثين سنةً في وظائف الحكومة، لكننا نعيش في شعب وأمَّة أكبر فضائلها أنها تنسى على حدِّ تعبيره.

فضائل الرافعي الذاتية وقصته مع الكتابة

تمتَّع الرافعي بروحٍ مفعمة بالأمل، فهو يذكِّرني بجهة السماء عندما تسدُّ في وجهي منافذ الجهات الأربع كلها، فكان منبسط الوجه، يقنع نفسه في كل يوم بأنه في أسعد أيامه، مستعينًا بالإيمان بحكمة القدر وقانون التعويض بعد علَّته التي ذهبت بسَمعه وهو لم يزل غلامًا، كان

كبير الثقة بالنفس، عظيم الطموح، كثير الاعتداد بذاته ومواهبه، تميَّز بدقَّة الحسِّ وسرعة الاستجابة، امتلك عاطفةً جياشةً ومشاعرَ دينية قوية، جعلته لا يستطيع الكتابة إلى امرأة رسالةَ ودٍّ ووصال إلا بعد أن يستأذن زوجته ويطلعها على ما كتب.

أما موقفه من السياسة، فهو موقف رجل من سواد الناس تمتَّع بلقب شاعر الملك فؤاد، وحصَّل على أثره جوازًا مجانيًّا في الدرجة الأولى على خطوط السكة الحديد، فكان يروِّح به عن نفسه في زياراتٍ لبورسعيد والإسكندرية والقاهرة. وتجدر الإشارة إلى أن الملك طبع كتاب **إعجاز القرآن** على نفقته.

تزوَّد الرافعي زاده من الأدب القديم، فكان يحتشد للكتابة احتشادًا، فقد كانت الكتابة له فنًّا وأسلوبًا وصناعة، يحترم قراءه فلم يكن يسخر منهم أو يشعوذ عليهم ليملأ فراغًا في صحيفة.

وكان يستفتح عمله في كتابة المقالات بمطالعة أسفار الأدب العربي القديم؛ ككتاب **الأغاني** وكتب الجاحظ وأبي حيان التوحيدي، لتدخله في جوِّ الكتابة، وحُجَّتُه في ذلك أننا نعيش في جوٍّ عاميٍّ، فسد فيه اللسانُ، ولم يعرف العربية. وصف العريان أسلوبه في الكتابة كأنه يُلقَى إليه الوحي، لا يرفع عينيه إلى العريان، كأنما يتحدَّث من وراء ستار إلى سامعٍ غيرِ منظور، أو كأنه في نجوى خاصَّة ليس فيها سامع ولا مجيب.

كل هذا مع كوب الشاي وفنجان القهوة، مع قليل من الدخان، فلم يكن يشعل إلا سيجارة واحدة أو سيجارتين في الجلسة، وكانت أكثر مقالاته تعبيرًا عن مواقف حياتية عاشها، فمقالته «موت أم» -على سبيل

المثال- هي ثمرة انفعاله بعد وفاة زوجة صديقه حسنين مخلوف. وكانت الكتابة لديه تعبيرًا عن معايشة الحياة، ومجادلة معها، واستعاذة من هواجس الشيطان، ورغبة في الطمأنينة والتعبير، وعندما كتب مقالته «اليمامتان» عن الفتح الإسلامي لمصر أسلم على أثرها أستاذ مسيحي من أساتذة التاريخ في الجزائر، فَسُرَّ بذلك كثيرًا.

وأضاف إليه ورود الرسائل إليه علمًا جديدًا هو علم الحياة، بعيدة عن علم الكتب، فكانت تصل إليه ثلاثون رسالةً في الأسبوع، وكانت نقلة اجتماعية له أعانته على فهم طباع البشر والوقوف على مشكلات المجتمع حوله.

القلب العاشق

كان للرافعي قلبٌ جيَّاشٌ ينفعل بالجمال ويستقبل العشق ويهيم بالحب، وينظم الشعر ولا يعمل ذهنه في مقدمات الهوى إلا عندما يتمكَّن منه، ثم ينتصر عليه بالتخويف بالله والاستعاذة من همزات الشيطان، وهذه المجاهدة أو المكابدة تكسو كلماته وأدبه جمال الصدق والتجربة الذاتية، فلم يكن يكتب إلا ما يعتمل في وجدانه، فهو يتساءل على باب كازينو ومعه العريان: «هل من المروءة الدخول إلى هذه الأماكن؟»، ويمنعه الدين والحياء فينصرف.

للرافعي في الجمال صبوةٌ، فكان يضع صورة محمد عبده وصورة الرياضي الفرنسي صاندو وبجانبهم صورة كريمان هانم خالص ملكة جمال تركيا، فيسأله العريان عن ذلك فيقول: «هاتان قوتان تعملان في نفسي؛ قوة في روحي، وقوة في جسدي، وهذه -أي صورة كريمان- ما

أجملها، ألا تقرأ شعرًا مسطورًا على هذا الجبين؟!» ولم تكن تتاح له الفرصة للسفر إلى أوروبا، لكنه كان يجد في (السيما) رحلة يسميها خارج البلد، ذلك بعض أثر مذهبه في فلسفة الرضا والسعادة.

حياته في طنطا

تذكَّرت مواضع حياة الرافعي في طنطا، فلمست ذكرياتٍ لي مع هذه الأماكن، فقد كان الرافعي يدلف من حارة سيدي سالم، قادمًا من بيت آل الرافعي القريب من مسجد السيد البدوي، يجلس في مكتبة المسجد الأحمدي أو مكتبة مسجد القصبي، بعد أن يغادر عمله في المحكمة، يتردَّد على عدَّة مقاهٍ مثل اللوفر بميدان الساعة، أو ليمنوس بشارع البحر والذي لم يزل مقهًى يؤمُّه الناس حتى يومنا هذا، أو يسهر مع رفاقه في صيدلية «كوكب الشرق» بشارع البحر، بالقرب من مسرح البلدية، الذي كان يتردَّد عليه في حالة وجود عروض به، وبه تجدَّد اللقاء مع مي زيادة، ويصلِّي في مسجد المنشاوي، أو يجتمع بالشباب في مسجد البهي يؤلِّبهم على القديم ويحمل راية الإصلاح، فيُغضب الأزهر. وقد مات وهو يستعدُّ لمعاودة الغارة بالكتابة، وله مقالاتٌ ظلَّت عناصرَ في ورقاتٍ على مكتبه تشير إلى أمل الأحياء، وإلى كثيرٍ من صروف الدَّهر.

أحمد حسن الزيات: من وحي الرسالة

«والعلَّة أن السياسة طغت على الفنِّ الرفيع، والأزمة مكَّنت للأدب الرخيص... وغاية مجلة الرسالة أن تقاوم السياسة بثقل الطبع، وبهرج الأدب بتثقيف الذوق، وحيرة الأمَّة بتوضيح الطريق»

أحمد حسن الزيات في افتتاحية العدد الأول من مجلة الرسالة، ١٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٣

شرعت في قراءة مقالات أحمد حسن الزيات وتصفُّح مجلة الرسالة (١٩٣٣ - ١٩٥٣) مع أحد الرفاق؛ ولهذا فإنني أدين له بهذه الفكرة، ودور مجلة الرسالة في تاريخ الصحافة الأدبية شهِد له كبار الأدباء، وكذلك دورها في إثراء الحياة الأدبية وتعريف جمهور القرَّاء بكثير من شباب أدباء تلك الحقبة.

ولا أملك وأنا أقلِّب صفحاتها الأصلية، وأطالع فهرسها الفاتن بكل ما فيه من هؤلاء الأعلام، إلا الشعور بألق الماضي وسؤال الخلود، وجلال العمل الفني، وجزالة اللغة، وصفاء العبارة، ونصاعة الفكرة، وبيان الهدف الجلي من الكتابة بوصفها عملًا رساليًّا، يجمع بين المتعة والفائدة، مع روح الصدق في الإبانة عن النفس، وذلك مع تنبُّهي إلى خطورة الغرق في الحنين، فعادةُ الكاتب الشاب حينما يكتب أن يتصور أن الماضي أفضل، دون دليل أو برهان.

الرسالة أرشيف جيل

تمرُّ الأسـماء وأقرأ في توالـي العناوين والحوادث تاريخ البلد وذاكرة الأمَّـة، أضحـك مع المازني، وأرى بدايات شـاكر الخجولة. زد على هذا تنـوُّع الترجمـات عـن اللغـات الشـرقية والغربيـة؛ فهناك أشـعار مترجمة لطاغـور، وأشـعار لإقبال، وقطع من كتب نيتشـه ترجمـة فيلكس فارس. وهناك أيضًا تحقيقات تاريخية عن الأندلس لمحمد عبد الله عنان ... إلى غير ذلك من فنون الكتابة والترجمة والتحقيق.

وأكثـر مقالات **الرسـالة** تندرج تحت المقالة الأدبيـة الذاتية، وفي هذا النوع الأدبي متعة ولذَّة للقارئ مردهما إلى ظهور شـخصية الكاتب، فهو أقـرب للمناجـاة وحكايات التجارب، فالكاتب يبـدأ المقالة بحكاية ذاتية ثـم ينتقـل إلى مناقشـة فكرتـه؛ ففي مقالـة لمحمد عوض محمـد عن فتاة بريطانيـة تعرَّضـت له في أثناء دراسـته في جامعة ليڤربول تسـأله: «ما هي روح الإسـلام؟» فيحكي قصته مع هذا السـؤال، ليسـتمتع القارئ بنقاشٍ خصـبٍ. وفي إحدى ذكريات طه حسـين، نـراه يحنُّ إلى زيارة الأزهر مع مجموعـة مـن رفاقه، فيكتـب مقالًا يبثُّ فيه الشـوق للحركـة القديمة في المسجد بعد أن أصبح بلا حسٍّ ولا حركة ولا دروس علمية.

الزيات مهندس البيان والتراجم الشخصية

أما مقدمة رئيس تحرير المجلة أحمد حسن الزيات ففي الذروة العليا مـن البيـان وحسـن السـبك؛ وتلاحـظ فيهـا عنايتـه بالجـرس الموسـيقي والأوابد المتقنة، وتتعرف فيها إلى التراجم الشـخصية الكاشفة عن أوجه

النبل في أعيان صدر القرن العشرين، في مصر وأقطار العروبة. مع ملحوظات من صنف النقد العالي للشخوص الأدبية والسياسية، وتبيان ملامح تصلح لأن تكون مفاتيحَ للشخصيات كعادة مفاتيح العقاد، مع وجازة في العبارة، وعمق في الفكرة، وطول نَفَس في تأمُّل طباع الناس وحياة الأمم.

ففي تحليله لما تبقى من إرث شعر حافظ إبراهيم عقد موازنةً أدبيةً لا تظلمه ولا تنكر فضائله بينه وبين غريمه شوقي، فيقول: «شوقي شاعر العبقرية، وحافظ شاعر القريحة. وتقرير الفرق بين الموهبتين هو تقرير الفرق بين الرجلين»، ثم يسهب في الشرح.

وكذلك في مقالته عن المتنبّي، وعن جهود أحمد زكي باشا في خدمة التراث، وعن ترجمته لحياة الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي وصداقته معه في بغداد، وعن الصف الدراسي الذي قضاه محمد عبده في جنيف في مقالة يحكي فيها دقائقَ مجهولةً عن حياة الإمام، طبقًا لرواية أحمد لطفي السيد، منبهرًا بطرائق التعليم الغربي، مقارنًا بينها وبين تخلُّف الأزهر آنذاك. وفي تعبير الزيات عن الحوادث الإنسانية تكاد تتحرك بك العَبرة؛ فقد وقف على محنة الآنسة مي زيادة في مرضها وحبسها في دار المجانين، بعد أن دوَّخت المثقفين برقَّة حديثها، ولطف معشرها، وعذوبة مجالسها القاهرية الرقيقة، انقلبت بها دراما الزمن الذي يصلح للروايات ويصعب على الأحياء تصوُّره. فقد غشيها إغماء لثلاثة أيام وهي في بيتها لا يعلم عنها أحد شيئًا، حتى فطن إلى ذلك بوَّاب المنزل، فأبلغ أمرها إلى الشرطة. وكانت السنوات الأخيرة من حياة ميٍّ -كما يقول الزيات- «مأساة يرتاع لها الضمير ويلتاع لها القلب».

الرافعي مقاتل لآخر نَفَس

وأما عن رثاء الزيات للرافعي وحديثه عن أمله في آخر كلماته، وهو يرسل له مقالته التي ستكون المقالة الأخيرة، وهو عازم على أن يكمل الجهاد ويصمد في حملة التطهير كما أسماها، فالرافعي - طبقًا لهذه الرواية - قد مات وهو مرابط على ثغر أدب العرب ولغة القرآن، يقول الزيات: «كان الرافعي يكره موت العافية فمات به: أرسل إليَّ قبل موته الفاجئ بساعاتٍ كتابه الأخير يشكو فيه بعض الوهن في أعصابه، وأثر الركود في قريحته، ويقترح عليَّ نظامًا جديدًا للعمل يجد فيه الراحة حتى يخرج إلى المعاش فيقصر جهده على الأدب، ثم يسرد في إيجاز عزائمه ونواياه، ويعد المستقبل البعيد بالإنتاج الخصب والثمر المختلف، ويقول: إن بِنيتي الوثيقة وقلبي القوي سيتغلبان على هذا الضعف الطارئ فأصمد إلى حملة التطهير التي أريدها».

رحم الله الرافعي الذي كان يملك عزيمة المجاهد وقلب المكافح في ميدان الكتابة، ورثاء الزيات للهراوي يصلح لأن نستشهد به في هذا المقام؛ إذ يقول: «كل حيٍّ فانٍ؛ ولكن فناء الحي الذي طبع وجوده في القلوب والعيون والكتب والأمكنة، تحدٍّ لهذه الحقيقة».

الرسالة والخلود

وإنك لتشعر بحزة في نفسك وبسؤال لضمير الزمن عمَّن يختارهم للبقاء في ذكراه ومن يتجاهلهم؟ فلا تجد قاعدة!

وتفكِّر في قضية الخلود، وأنت ترى في باب الوفيات بابًا عظيمًا من الأسماء اللامعة في أوقاتها خَفَتَ ذِكرُها ونسيها الناس، وقلَّ الاحتفاءُ بها

وبكتبها الآن، وتتذكَّر قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ ﴾.

يشير محمود محمد شاكر في حوار مع الإذاعة الكويتية إلى ذكرياته مع **الرسالة**، فيقول: «هذه هي مجلة **الرسالة** تراها وراءك، ترى فيها أقلامًا ورجالًا، مئات الأسماء من الشام والعراق كتبوا فيها، ومن العجب ألا ترى أحدًا منهم مذكورًا بعد ذلك، مع أن لبعضهم بدءًا من أجمل البدء، ولم يبق ممَّن كتب في **الرسالة** إلا عدد محدود ... ولصدق كثير ممَّن كان يكتب فيها، كان لها تأثير بالغ على كثير من رواد الأدب المُحدَثين».

وهكذا تلعب المجلة، التي تقع نسختها المصورة في ٤٠ مجلدًا، دورًا كبيرًا في تسجيل روح العصر، بحكاياته المهملة في تلابيب الذاكرة البعيدة. والملحوظة الأهمُّ هي قيمة هذه المجلة في باب التاريخ الاجتماعي، ففي صفحاتها تأريخ لحوادث السياسة وعادات المجتمع.

كانت مجلة **الرسالة** رسالةً بحقٍّ، تشتغل في مجمل إنتاجها بتهذيب الذائقة وتثقيف العقل، كانت خلاصة جيل، له ما له وعليه ما عليه، لكنه ترك لنا وثيقةً يعبِّر فيها عن نفسه، فوجب الرجوع إلى هذه الوثيقة ومراجعتها مراجعةً متأنيةً.

محمود محمد شاكر:
ظلُّ النديم

«أنا أطلب حقائق في هذه الدنيا لا أستطيع أن أتخلَّى عنها أبدًا، وعلى رأسها حقيقة نفسي، أنا قضيت حياتي أعالج نفسي، أعالج أثر دنلوب[1] فيَّ، أعالج أثر الاستعمار في قلبي، في ضميري، في عقلي، في نفسي، في نظري، في رؤيتي، أعالج أكبر المسائل في داخلي»

لقاء الأستاذ محمود محمد شاكر بإذاعة الكويت

في جلسة واحدة استمتعت بمحاورة كتاب ظل النديم: **أوراق وأسمار شيخ العربية أبي فهر محمود محمد شاكر** -رحمه الله- التي لم تنشر من قبل، للأستاذ وجدان العلي الذي اجتهد في جمع هذه الأوراق والمسامرات؛ قيامًا بحقِّ الأستاذ محمود شاكر، ولم تقطع هذه القراءةَ إلا كؤوسُ الشاي.

ولعلِّي في هذا المقال أختار بعض هذه الملامح التي تعكس شخصية الأستاذ محمود شاكر، مستعينًا بهذه الأوراق والمسامرات التي سعدتُ بأن جمعها الأستاذ وجدان في مكانٍ واحد، وكثير منها يُنشر لأول مرة، في لغة جميلة قدَّم بها الأستاذ وجدان النصَّ، فالكتاب

(١) مبشِّر ومعلِّم أسكتلندي، ورَد إلى مصر فعيَّنه اللورد كرومر مستشارًا لوزارة المعارف، ووضع لمصر نظامًا تعليميًّا نُسب إليه، وكان مصمِّمًا لخدمة أهداف الاحتلال البريطاني.

يجلو بعض الزوايا المغيبة، ولا يستكثر من المعروف المعاد المكرَّر الذي يعرفه الناس، فالكتاب -كما أراد مؤلِّفه ووضَّح ذلك- «تأريخ مختصر لبعض الجوانب في شخصية شيخ العربية، بعيدًا عن الاستقراء والاستقصاء».

لقد أُتيحت للأستاذ محمود شاكر المكتبة الحافلة بنفائس الكتب، هيَّأها له والده محمد شاكر - رحمه الله- وأخوه أحمد محمد شاكر، مع ما تمتَّع به من الذاكرة العجيبة التي تلقف كل ما يقرأ، وتواصله مع الأساتذة الكبار مثل الشيخ سيد بن علي المرصفي الذي كان علاَّمة ذوَّاقة، ومصطفى صادق الرافعي الذي ترك في شاكر أثرًا عميقًا ولا سيما في نظرته إلى العربية وانتمائه للأمَّة، مع ما اهتمَّ به من العناية بقضية الشعر الجاهلي وصحته.

اتخذ محمود شاكر موقفًا حاسمًا تجاه كل ما يخص العلاقة بالغرب، بدأ ذلك من تغيير اسمه (الأصلي) محمود سعد الدين إلى محمود محمد شاكر؛ نظرًا لمعارضته مواقف سعد زغلول السياسية؛ ذلك أن سعدًا أضرَّ بالحركة الوطنية من وجهة نظره.

وكذلك شدَّته على المستشرقين، كما يظهر في **رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**، أو ما نقله الأستاذ وجدان من دعوة المستشرق الإيطالي نالِّينو إياه ليكون أستاذ كرسي الأدب في جامعته في إيطاليا، فنظر إليه محمود شاكر قائلًا: «أنا لا أدخل بلادكم إلا غازيًّا!».

ومـن ذلك أيضًا رفضه الحديث بالإنجليزية حتى مع الطبيب المعالج فـي لنـدن، رغـم أنه أتقـن هـذه اللغة في شـرخ شـبابه؛ فقـد ترجم بعض القصائد من الإنجليزية وهو لا يزال شابًا، قبل أن يتجه إلى تراث العرب.

ولو أردت أن أذكر لك أبرز ملامح شـخصية الأسـتاذ محمود شـاكر، لقلتُ: إنها عزة النفس والأنفة والكبرياء، دون استطالة على خلق الله؛ فقد أنـف من انتظار سـوزان مبـارك في أحـد الاحتفالات بسـبب تأخُّرها عن الموعد، وانصرف صائحًا: «هؤلاء الناس لا يحترمون وقت أهل العلم!» ووقف ينهَر المثقفين قائلًا: «لو كنتم تحترمون أنفسـكم لقمتم! هؤلاء لا يحترمونكم!».

الملمح الثاني هو حبُّه للعلم وتبتلُّه في محرابه؛ فقد خرج من مصر في ريعان شـبابه عازمًا على ألاَّ يعود إليها بعد خلافه مع طه حسـين، ورفضه أن يدخـل مكانـًا يسـمع فيه الكذب، يقصـد الجامعة، فارًّا مـن الثرثرة في مجتمعنـا وفسـاد الحيـاة الأدبية فيه؛ ثرثـرة التعليم في مدارسـنا، ثم ثرثرة رجـال السياسـة، وثرثـرة أقـلام الصحافـة، وثرثـرة أهـل الأدب والفكر، وثرثـرة الطوائـف مـن أصحـاب الديانـة، ومـا لا يحصيه عـدًّا مـن أنواع الثرثرات. ولـم تكن جزيرة العرب مغريةً لا بالمال ولا بغيره، وإنما كانت هجـرة الشـيخ من القلب، باحثًا عن صفـاء العقيدة، وفرارًا من أثر حضور المحتل في بلاد المسلمين.

لقد فرغ شـاكر من شـأن الدنيا في قلبه، يأنس برفاقه الذين يقول عنهم باكيًا تتهادى عبراته في أثناء كلامه: «إنهم الذين آنسـوا غربتي، ونفوا عن نفسـي القلق، وأرضونـي بهذه الحياة التي نحياهـا، وبثُّوا في قلبي الأمل،

وهـم علـى قلتهم كانوا يعطونـني من مودتهم ومن إخائهـم ومن رعايتهم -ولا أقول هم فقط، بل حتى الذين غيَّرتهم الأيام على بعد سنين طويلة- قد كان لهم فضل كبير في أن أبقى ملازمًا لطريقي الذي اختطته منذ كنت طالبًا». إلى آخر حديثه الممتع، الذي نقله الأستاذ وجدان.

وهـؤلاء الأصدقـاء هـم الذيـن صبـروا عليـه وعلـى حدَّتـه، فهـا هـو يحيـى حقِّـي يحكـي أنه بعـد صداقته مـع محمود شـاكر قال له أبـو فهر: «اذهب فقد أجزتُك»، ويستأنف يحيى حقي: «ولا تظنوا أني لم أدفع ثمن هذا من كلمات التوبيخ والشـتم والإهانة وتسـليط أفظـع الألقاب عليَّ»، فيضحك أبو فهر ويضحك يحيى حقِّي.

وهو يهتمُّ بأمور تلاميذه ويشجِّع الطناحي على إكمال رسالة الدكتوراه، ويوصي أحد أصدقائه القدامى بزوجة الطناحي الأستاذة عنايات، ويصفها بابنتـه فـي أثناء سـفرها وزوجها إلى المملكة العربية السـعودية، ويسـهل لتلميـذٍ آخـر السـفر للعمل في الكويـت، ولقد تذكرتُ عندمـا قرأت هذه الشـواهد مـا حـكاه نجيـب محفوظ فـي أحد الحـوارات معه، عن شـيء أعجبـه فـي طه حسـين، فقـال: «إن طـه حسـين كان يذهب بتلاميـذه إلى الدواوين الحكومية يبحث لهم عن عمل ويساعدهم في ذلك».

وقـد طُبع شـاكر علـى الوفاء لأسـاتذته، ومثـال ذلك: رثـاؤه للرافعي ولأخيه أحمد شاكر، وبكاؤه على محمود حسن إسماعيل، وتذكُّره يحيى حقـي فـي حواراته. ومما التقطه الأسـتاذ وجـدان ببراعة مـا نقله من نعي الأسـتاذ محمود شـاكر للأسـتاذ رجب إبراهيم الشـحات المعيد بجامعة الأزهر، ولن أُفسـد وصف الأسـتاذ شـاكر بتجزئته فليرجع له في موضعه

صفحة ٦١ من الكتاب، فقد كان الأستاذ وفيًا يذكر ويُثني على كل من عاونه ويعترف له بالجميل.

كان شاكر يخرج من بيته لا يعرف أجرة سائق التاكسي، وكل ما يصحبه مصحف في جيبه هذا، والحماسة في جيبه الآخر! ويوم حصل على جائزة الملك فيصل أعطى المكافأة للحاج محمود المدني؛ ليطبع كتبه على الوجه الذي يطمع فيه الأستاذ جودةً وإتقانًا، وما كان يحفل بما عليه الناس من الطبقية المقيتة، فمائدة طعامه يجلس إليها الوزير بجانب عم أنور الحلَّاق.

ولقد تنبَّه الأستاذ وجدان في عرضه إلى أحد الملامح المهمة من شخصية أبي فهر، وهو «الخوف من ربِّ العالمين»، وساق شواهدَ ذلك من مواقف الأستاذ في حياته، والتي تدلُّ على تعظيمه لله عز وجل. زد على هذا ما عُرِف به من الرقَّة وسرعة البكاء ومشاعر الأبوَّة والحنان، فكان ينام على الأرض حتى لا يزعج القط الذي نام على سريره، وينام على الأرض في جوار الحرم بمنزل تلميذه محمود محمد الطناحي، رهبةً من جوار الحرم، وخوفًا من مضاعفة الآثام، ويردِّد قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ومن أمثلة أبوته الحانية أن صديقه الشاعر محمود حسن إسماعيل زاره ذات مرة، فوجده شاكر مريضًا جدًّا، فمنعه من النزول، وكان لدى محمود حسن إسماعيل موعدٌ في الإذاعة، فأنقذ شاكر الموقف بأن ذهب هو إلى الإذاعة يلقي قصائد صديقه بالنيابة عنه حتى لا تتدهور حالته الصحيَّة.

وهو شديد الحياء من أعين الناس إذا صمتوا وتوجهوا بأبصارهم إليه، عبَّر عن ذلك في مجلسه في بيته وفي لقائه مع طلبة الجامعة، وفي مقدمته لأحد كتبه عن عجزه عن إلقاء الحديث في أعين الناس، فهو رجل صنعته القلم والكتابة.

كان يعتري شخصيتَه الحدَّةُ والثورة وضيق الصدر وسرعة الغضب والشدَّة في الردِّ، كما فعل مع لويس عوض في كتابه **أباطيل وأسمار**، لكنَّ أبا همام، وهو الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم، يُشَبِّه أبا فهر بثمرة جوز الهند، وهو تشبيه جميل، فهي ثمرة قاسية صلبة في خارجها، ولكنها طيبة عامرة في أعماقها.

وعلى الرغم من تنوُّع الشخصيات التي كانت تتردد على مجلس شاكر وتباين مذاهبها الفكرية، مثل مجدي وهبة المسيحي، ومحمد جلال كشك الشيوعي قبل أن يتحوَّل للتوجُّه الإسلامي، فإن سبَّ الصحابة أو الحديث عنهم بسوء كان بمثابة الخط الأحمر في مجلسه.

كانت القراءة لذَّة شاكر الوحيدة في الحياة، فكان لا يترك الكتاب إلا قليلًا للصلاة أو الطعام وما يكون من شأن الإنسان في يومه ومع أسرته.

وقد التفت شاكر إلى انتشار الزهد في العلم والقراءة، ولكنه لم يقع في وهم الحنين إلى الماضي في بدايات هذا القرن، بل أوضح ما اعترى هذا القرن من عيوب خطيرة.

وهو يعلِّق في أحد أسماره عن قضية الفارق بين نِسَب القراءة في العالم العربي ونِسَبها في الغرب بأنه لا يشغل نفسه بما يجري في العالم الآخر، فالذي يجرى عنده هو المهم، وأما ما يجري في العالم الآخر

فنستقبله عبر الكلمات، وليس عن طريق الخبرة، لا أنت تعرفينه (يقصد السائلة)، ولا أحد يسافر، فهم يتحدثون عن شئون أنفسهم، ثم يوضّح الخلط بين عالمين: أحدهما (يقصد الغرب) قذر وشرس ومتوحش، ويريد أن يقضي على العالم كله ويسلبه كل قواه؛ والآخر يجلس «غلبان» ليس معه شيء، ويقول: العالم الآخر بيعمل كذا!

وفكرة شاكر عن مسألة التخصُّص في العالم العربي جديرة بالتأمُّل؛ إذ يقول: «ليس عندنا متخصِّص بالمعنى الذي يُفهم عند الغرب؛ لأن المتخصِّص هنا مثلًا في الهندسة عبارة عن مهندس يعرف بعض المعارف في الهندسة، ومنعزل عن العالم تمامًا، حتى نفسيته ماتت من الداخل، ليس بإنسان ولا قارئ، ولا ينظر في الأدب، ليست له علاقة بشيء، بل هو رجل يعمل على قدر ما لديه، التخصُّص شيء آخر عندهم، لكنه عندنا هو الانحصار في دائرة العبودية الصغيرة التي تعمل فيها جزءًا من آلة!».

ثم يفصِّل في معنى الحضارة والثقافة والانتماء، ويصف الداء بكون هذه الأمَّة بلا لغة تجمع اهتمامات كل البشر الذين يعيشون على أرضها، بآدابها وفنونها وتاريخها وماضيها، ليس لها شيءٌ تنتمي إليه.

ولقد كان لأم فهر، زوج شاكر، دورٌ جليلٌ في حياته؛ إذ وفَّرت له جوًّا أُسريًّا سمح له بالتفرغ للعلم والمعرفة، فكان يستوحش إذا سافرت إلى بلدتها، ويرسل في طلب تلميذه عبد الحميد البسيوني ليبيت عنده، ولقد كتبت عنها الأستاذة عايدة الشريف في كتابها الجميل **محمود محمد شاكر: قصة قلم**، وقدَّم لنا الأستاذ وجدان في هذا الكتاب رواية الأستاذ محمود شاكر لقصة زواجه رواها وهو يغالب دمعته، ختمها بأنه: «منذ عام ١٩٤٣ إلى يومنا هذا (كان هذا الحديث عام ١٩٨٣) في رعايتها،

لكنهـا لـم تأخذني من معدتي كما قال محمـود الطناحي، ولكنها جمعت حولي الأمعاء كلها (يقول هذا ضاحكًا لما اشتهر عنها من الطعام اللذيذ)، فهي صاحبة البركة في هذا البيت».

وأم فهـر هـي التي رفضـت بيع مكتبة شـاكر وفاءً له، فذهـاب المكتبة عندها أعظم على قلبها من ذهاب صاحبها، وقد قطعت على نفسها عهدًا بالحفاظ على مكتبة الأستاذ ما دامت حيَّةً، مع ما عُرض عليها من إغراء بتحديد أيِّ مبلغ لبيعها.

كان محمـود شـاكر معلمًـا للأمـل، فرغم حديثـه المتكرِّر عـن الظلام والتيه الذي وجدت الأمَّة نفسها فيه، فإنه ما فتئ يكرِّر الحديث عن الضوء الـذي سيأتي يومًـا مـا، ولكنه يوضِّـح أن الأمـل لا ينقطـع؛ لأن تدبير الله تعالـى لملكـه لا نعرفه نحـن، ولا يخدعكم الأوروبيون، فقـد كانوا حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر في أحطِّ أنواع الحياة البشرية.

وكانـت رفقتـه تبـثُّ الأمل فـي قلبه بأن يكـون لهذه الأمَّة فـي يوم من الأيام خطرٌ كالذي كان لها فيما مضى، وحكى الأستاذ حمدي إمام -وهو من تلامذة العقَّاد- أن الأستاذ محمود شاكر منحه، وشوقي هيكل وعايدة الشـريف، هـذا الأمل، فقد عرفه كثير من الأصدقـاء والناس في فترة خيَّم فيها اليأس على كل شيء، بعد أن فقدنا كل شيء وجئنا إلى محمود شاكر ووجدنـا منـه الجـدَّ والاهتمـام، ووجدنا منـه إعطاء الأمل وعـدم اليأس، فأعَدنا ثقتنا بالحياة مرةً أخرى.

لقد أسدى لنا الأستاذ وجدان العلي خدمةً جليلة بجمع تلك الأحاديث والذكريات والعناية بها، وكم أحسستُ بالخجل والحياء وأنا أتعرض لسيرة

شيخ العربية، لكن ما وهبني الجرأة هو حق جيلي في التعرف إلى آثار الأستاذ وإعادة مدارسة تراثه، والاهتداء من طريقه إلى تراث العرب، وزيادة الثقة بما تركه لنا الأوائل، والتخلُّص من عقدة النقص والشعور بالدونية.

يقول الأستاذ محمود شاكر في **رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**: «ويومئذٍ طَوَيتُ كلَّ نفسي على عزيمة حذَّاء ماضية: أن أبدأ، وحيدًا منفردًا، رحلةً طويلةً جدًّا، وبعيدةً جدًّا، وشاقَّة جدًّا، ومثيرةً جدًّا. بدأتُ بإعادة قراءة الشعر العربي كلِّه، أو ما وقع تحت يدي منه يومئذٍ على الأصح، قراءةً متأنيةً طويلة الأناة عند كلِّ لفظ ومعنى، كأنّي أقلِّبُهما بعقلي وأَرُوزُهما (أي: أزنهما مختبرًا) بقلبي، وأجُسُّهما جسًّا ببصري وببصيرتي، وكأني أريد أن أتحسسَهما بيدي، وأستَنشِيَ (أي: أشم) ما يفوح منهما بأنفي، وأسَمَّع دبيب الحياة الخفيَّ فيهما بأذنَيّ، ثم أتذوقهما تذوُّقًا بعقلي وقلبي وبصيرتي وأناملي وأنفي وسمعي ولساني، كأني أطلب فيهما خبيئًا قد أخفاه الشاعر الماكر بفنِّه وبراعته، وأتدسَّسُ إلى دفين قد سقط من الشاعر عفوًا أو سهوًا تحت نظم كلماته ومعانيه، دون قصدٍ منه أو تعمُّد أو إرادة».

وهذه الفقرة تلفت نظرنا لما تميَّز به شاكر من القدرة على المتابعة الفكرية، مع بصر بالتاريخ لا يكاد يتيسَّر لأحد، ولاحظتُ في مقدمته لأحد كتبه وعيه بأبوَّة آدم، وبملحمة خطِّ سير التاريخ الذي يبدأ بالأمانة التي عرضها الله على الملائكة فحملها الإنسان عن ظلم وجهل، مع تسخيره كل سليقة فطره الله عليها، وكل سجيَّة لانت له بالإدراك، لكي ينفذ إلى حقيقة البيان الذي كرم الله به آدم -عليه السلام- وأبناءه من بعده، وهو أمر شاقٌّ، لكن المطلب البعيد هوَّن عليه كل مشقَّة، وهكذا قرأ الشعر قراءة من يبحث عن الإبانة الصادرة عن قلب الشاعر.

ومع ما تميَّز به شاكر من عمق الفهم وبذل الوُسع في جمع المعلومة والفكرة، فقد كان لا يفارق مكتبته في عزلة ضربها على نفسه، بين رجال صُمُوت لا ينطقون ولا يتحركون إلا أن يأذن لهم، وقد عبَّر عن نفسه في مجمع اللغة العربية حينما حكى قصة أيامه مع الكتب يمدُّ يده إليها ضارعًا مستميحًا يسألها أن تتفضَّل عليه بشيء من معروفٍ يزيل شكَّه، أو يردُّ حَيرته، أو يُحيي مواتًا في نفسه، أو يرفع غشاوة عن بصره، أو يجلو صدأً ران على بصيرته، هذا هو القلق الكامن تحت الاطمئنان، والحيرة المستخفية من وراء اليقين، وبعض الوحدة والوحشة التي عانى منها بين الكتب، مع التردُّد المستكنِّ في ظل العزيمة والهيبة المفضية إلى التأخير والإرجاء، والتي ساهمت في جعله لا يكمل كتابة بعض الكتب.

عبقرية المكان التي كانت لهذه الشقة، التي لا يدخلها أيُّ أديب، فبيته لا يدخله إلا نوع معيَّن من الأدباء، اجتمع في هذه الشقة كل هؤلاء المثقفين، وساهمت في مداولة معرفية، وفتح آفاق جديدة في النقاش والقراءة، وكانت نصيحة عباس محمود العقاد لبعض جلوسه في صالونه بقوله: «إذا أردت أن تكون فيلسوفًا بحقٍّ، فطريقك إليه الشعر، وإذا أردت شعر العرب فطريقك إليه محمود محمد شاكر». وشهادة العقاد لكتاب المتنبِّي بأنه أحسن ما كُتب عن المتنبِّي؛ لأنه بقلم محمود شاكر، وهو أديب فنان شاعر، مع ما تمتَّع به من القدرة على النظر للنصوص نظرة حيَّة من عقِل حيٍّ ونَفسٍ حيَّة.

كان شاكر نموذجًا للعالم المتجرِّد الذي يعيش في عالم انهارت فيه الأركان من أكثر من جانب، وأصبح أولو الفضل في أوطانهم هم البقية، ولعل المشهد الذي جعل الدكتور محمود الربيعي يتعلَّق بدوحة أبي فهر

طواعية واختيارًا، هو تذكُّره إحدى الأمسيات التي اجتمع فيها مازن المبارك وراتب النفَّاخ وقرأ لهما الأستاذ على مسمعٍ منه مخطوطةً لـ **ديوان جرير**، وكان الربيعي مبهورًا إلى أقصى حدٍّ، مع سعي هذه الشلة عندما صودر أحد كتبه إلى الحصول عليه في ملازم، وكانوا يشترون النسخة بضعف ثمنها، ويتمُّ توزيعها على الزملاء للقراءة. ولعل في مشهد تداول الكِتاب الممنوع مادة لخيال مؤرخي القراءة والثقافة. يقول دوستويفسكي: «الكلمة عمل عظيم، وانتقال هذه الكلمات العظيمة قيمة ثقافية كبيرة».

وتشبيه الطناحي لمحمود محمد شاكر بالخليل بن أحمد صحيحٌ إلى حدٍّ بعيد، ففي حياتهما مشابه كثيرة، يقول النضر بن شُميل: «لقد عاش الخليل بن أحمد في مربد من مرابد البصرة لا يجد قوت يومه، وأصحابه يأكلون بعلمه الأموال». وهكذا خرج من هذا البيت علم كثير، وشهادات جامعية كثيرة، وهو حديث موجع للقلب على أية حال.

أما عن دقته وحرصه، ففي قصة الدكتور عبد الصبور شاهين وترجمته لكتاب مالك بن نبي **الظاهرة القرآنية** خيرُ دليل، فقد ذهب إليه وأعطاه نسخةً من ترجمته للكتاب، فأعلَمَه محمود شاكر في لقاء دام ثماني ساعاتٍ أن عليه أن ينقل النصَّ باللغة العربية التي تليق، وعاد عبد الصبور إلى بيته يحمل صحائفه تحت إبطه أو يحمل خيبته تحت ذراعه -كما وصفها- يبكي في الطريق من مصر الجديدة إلى الإمام الشافعي، سائرًا وحيدًا لا يدري بالطريق من الدوامة التي لفَّته طيلة ثماني ساعات من الظهر إلى ما بعد العشاء، ثم يقول: «شواني شيًّا على السُّفُّود -وهو عود من حديد يُنظَمُ فيه اللحمُ ليُشوَى- شيًّا ما زالت آثاره في جسدي حتى

الآن، ثم عدت إليه بالكتاب بعد التعديل، فأصبح كتابًا آخر طبقًا لمنهجه، فكتب له المقدمة»، وأعجب به العقاد وبالمقدمة والترجمة.

لم يكن شاكر يعدُّ هؤلاء تلامذةً له؛ إذ لم يكن له تلامذةٌ على وجه التحقيق، لكنهم أصدقاء وإخوان، فكان صغير الناس وكبيرهم عنده سواء، فقيرهم وغنيهم، يعطيهم من نفسه ما يريدون، وكل ما عنده فهو لإخوانه، ولا يعبّر عن هذا المعنى تواضعًا، فقد أنف من استخدام هذه الكلمة في غير موضعها (أقصد التواضع)، بل كان يملك من الكبرياء الكثير، ورغم المعركة الأدبية والشدَّة والعنف في التعبير عن قضيته في الشعر الجاهلي، فإنه إلى أن بلغ الخمسين لم يستطع أن يدخن سيجارة بين يدي طه حسين إلا إذا أعطاه رغمًا عنه ويقول له: «خُذ»، فبقي الأدب والودُّ.

دخل بيت شاكر كثير من الأصدقاء والرفاق، مثل: ناصر الدين الأسد، ومحمد يوسف نجم، وإحسان عباس. أما رواية إحسان عباس عن صداقته لمحمود شاكر فيقول فيها: «تعرفت إلى رجلين من أفذاذ الناس، كان لهما أثر بعيد في حياتي وفكري، وهما يلتقيان في نفسي على رابطة التفرد فيما يحسنان، ويتقاربان كثيرًا في الحدَّة والذكاء وصفاء الجوهر وسعة المعرفة ووضوح الرؤية وعمق الفكر، أحدهما هو محمود محمد شاكر الذي تعلَّمنا من مجالسه أكثر بكثير مما ثقفناه من الكتب، ونشأنا في ظلِّ مكتبته العامرة، فقد كان يدهشنا بتنوُّع ثقافته وحضور جوابه، وقدرته الباهرة على أن يفكَّ كل نصٍّ عسير. والثاني هو ابن حزم الأندلسي»، ثم يوضِّح بدايته في عالم التحقيق فيقول: «لا أذكر أن أخي محمود محمد شاكر الذي توثقت روابط الصداقة بيني وبينه على مر

الزمن قد شجعني -صراحةً- على ولوج دنيا التحقيق، ولكني حين تقدمتُ إليه أنا وصديقي الدكتور ناصر الدين الأسد نستشيره في تحقيق **جوامع السيرة** لابن حزم، سُرَّ بالاقتراح، وأذن لنا أن نعيش في مكتبته، ونلجأ إلى رأيه وتوجيهاته حين لا تسعفنا المصادر. كان من أهم ما نحرص عليه أن نفوز بثقة أستاذ كبير، وأن نثبت لأنفسنا أن آلام المصاعب سرعان ما تُنسى، إذا هي تُوِّجَت بتحقيق الغاية المبتغاة».

أحَبَّ شاكرٌ يحيى حقي، وفضَّله على نجيب محفوظ. وكان شاكر يرى أن نجيب محفوظ رجل صنعة مثل أبي تمام، كانت لديه القدرة، وإن شغلته الصنعة عن اكتساب القوة والسليقة، ولكنه يجيد الرواية، هكذا عبَّر شاكر. أما عن صراحة شاكر في التعبير وقدرته على أن ينتهي من معاركه الشخصية بأقل الخسائر، فيدلُّ عليها طريقته مع صديقه يحيى حقي عندما انقطع عن بيت الأستاذ شاكر في أثناء اعتقاله خائفًا، فلمَّا خرج شاكر قال له: «أنت جبان وخلاص» واعتذر حقي، واستمرت صداقتهما، فكان شاكر يعتبر يحيى حقي جزءًا منه.

لم ينفعل شاكر بدعوات المنهج الإسلامي في دراسة الأدب، وكان يقول: إن لم يكن ما في كتب المسلمين الأوائل منهجًا إسلاميًّا لدراسة الأدب، فلا تطالبني الآن بوضع مثل هذا المنهج، وعدَّ هذا رفضًا كاملًا لتاريخ المسلمين وتراثهم، وفيه من التسفيه للآباء والأجداد، فلا يوجد لديه شيء قائم بنفسه يُسمَّى منهجًا إسلاميًّا في دراسة الأدب، فالذين قالوا الشعر وقالوا الخبائث مسلمون، ناس من العصاة نتلمس في داخل حديثهم قدرتَهم على التعبير، وسر هذه اللغة، الذي معرفته توضِّح لنا أن القرآن كلام الله يختلف عن كلام البشر.

إن دَرسَ شاكر متنوِّعٌ وعريضٌ بتنوُّع حياته، يبدأ بما علَّمه لرفاقه بالتأدُّب أمام المعرفة، وألا يتقدَّم إليها بالزيف أو القشور أو الادعاء، مع دَرس النَّفَس الطويل في القراءة والانقطاع للعلم، مع احترام العقل البشري، فضلًا عن شعوره بعربيته وروح الانتماء لهذه اللغة، وما تمتَّع به من روح المغامرة في شبابه والسفر وراء حلم أشبه بالحلم الرومانسي في البحث عن صفاء العقيدة، والصبر على ضائقة الحياة في الحجاز، فلم يقبض مرتبًا لمدَّة تسعة أشهر، وهو رجل. كما حفظ فضل أصدقاء له في الكويت كانوا معه في محنته في أثناء سجنه واهتموا بأسرته.

إن شاكر يحبُّ الثناء إذا كان في موضعه فقط، أما المبالغة فلا تحرك شعوره، مع خصلة الأمانة فيما يعلم والخوف من الزلل، والحرص على طلب اليقين، وكان حريصًا على بناء نفسه بدقَّة التذوُّق الناقد، لا يستطيع أن يجيب عن شيءٍ دون أن يفكِّر فيه، هكذا عبَّر عندما انهالت عليه بعض الأسئلة في الجامعة، لم تمنعه هيبة الناس أن يقول بحقٍّ إذا علمه، كان رجلًا جادًّا لا يخاف شيئًا ولا يأخذ من أحدٍ شيئًا، تَخَلَّق بقصيدة علي بن عبد العزيز الجُرجاني:

يقولون لي فيكَ انقباضٌ وإنما
رأوا رجلًا عن موقف الذلِّ أحجما
أرى الناسَ مَنْ داناهم هان عندهم
ومَنْ أكرمته عزةُ النَّفْس أُكْرِمَا

إن الكتابة مسألة وقاحة كما يقول شكري عياد، وأنا تجرأتُ بالحديث عن شاكر وسيرته مع قلَّة بضاعتي، لكن عذري هو أني أحب هذا الرجل، (وخير الحب ما اقترن بالدعاء) كما يقول الأستاذ الطناحي، فلنَرفع لله

دعاءً خاشعًا للأستاذ محمود شاكر، ولنتذكر قيمته في الثقافة العربية في القرن المنصرم، وينبغي أن ندعو لأنفسنا بأن يمنحنا الله الجدَّ ومفاتيح الفهم لمراجعة تراث المسلمين ونصهم المعجز؛ القرآن.

هامش حول مخاصمة التراث الأدبي العربي

يقول محمود محمد الطناحي: «ثم أعود إلى مكتبتي وأطيل النظر إلى قسم الأدب منها، وأكرِّر سؤالًا أعرف ألا جواب له: من يقرأ هذه الكتب؟ كبارها وأوساطها وصغارها؟ بدءًا بـ **المفضليات والأصمعيات**، وانتهاءً بـ **الكشكول والمخلاة** للعاملي، وقرونًا بين ذلك كثيرة: دواوين الشعر ومختارات الأدب والحماسات والأمالي والمجالس، وكتب المعاني، وكتب الأمثال: تجارب أمم، وعقول أقوام استودعوها بطون الكتب، وأدتها إلينا أجيال وفيَّة من الرواة والحَفَظَة والنُّسَّاخ والمحققين، حفظوها وصانوها كما يصون كرامُ الأبناء ودائع الآباء.

وقُل مثل ذلك في سائر علومنا: تفسير القرآن وعلومه، ودواوين السُّنة، وكتب الفقه وأصوله، وعلم الكلام والتصوف، والتاريخ والأنساب والبلدانيات (الجغرافيا)، والمعارف العامَّة، واللغة والنحو والبلاغة، فمن يقرأ هذه الكتب الآن فضلًا عن اقتنائها؟»[1].

كان من حظِّ جيلي -أو بتعبير أدق من سوء حظِّه - أن ينحدر مستوى التعليم وأن يلتحقوا بمدارس لا تعلِّم عربية ولا إنجليزية، ليتخرجوا عاجزين عن كتابة فقرة طويلة صحيحة من دون أخطاء إملائية. هل أتذكَّر

---

(١) مقالات الدكتور محمود محمد الطناحي، ١/ ٢٦٢.

المعلِّم الذي لا يُحسن الشرح؟ أم المكتبة المدرسية التي لا نعرف الطريق إليها؟ إنه تعليم مجاني لا يعلِّم شيئًا، وجامعة يعاني أكثر أساتذتها من العاميَّة وضعف الثقافة.

وعندما يستفيق الإنسان في مرحلة ما في حياته -دائمًا ما تكون متأخرة- بسبب قصة أو موقف أو تجربة ذاتية أو كتاب قرأه، فيكتشف أنه لم يتعلَّم شيئًا وأن عليه أن يبدأ بتحصيل معرفة صحيحة سليمة للغة الكتاب الذي يقرؤه في صلاته، ولتراث الأمَّة التي ينتمي إليها، يشعر بجرحٍ نرجسيٍّ أو تخنقه العبرة، ويتمنَّى أن يستقيم لسانه على قراءة القرآن قراءة صحيحة، وأن يفهم ديوان العرب وأيامهم، ويحاول أن يفكَّ طلاسم الأبيات، وأن يعيش مع كتب كُتبت من القرن الثاني الهجري ونقلها لنا رواةٌ أوفياء في أسانيد متصلة تحفظ حتى الشعر من الانتحال!

وفي التراث العربي ميزة عزَّ نظيرها في تراث الأمم والحضارات، يُبين عنها عبد الفتاح كيليطو في كتابه **لن تتكلم لغتي**؛ إذ يقول: «من البدهي أن الذاكرة الأدبية مختلفة عند العربي عنها عند الأوروبي، فإن ذاكرة العربي تبدو أطولَ من ذاكرة الأوروبي؛ إنها تخترق خمسة عشر قرنًا وتمتدُّ إلى المعلَّقات، إلى الشنفرى ومهلهل بن ربيعة، بينما لا تتجاوز ذاكرة الأوروبي (اللغوية - الأدبية) خمسة قرون. فعند الفرنسي مثلًا، يبدأ الأدب الفرنسي المقروء مباشرة مع فييون، شاعر القرن الخامس عشر، ثم يتواصل مع رابلي ومونتيني، أما كتَّاب القرون الوسطى، فلن يستطيع الفرنسي قراءتهم إلا مترجمين إلى الفرنسية الحديثة. لكن العربي لن يجد صعوبةً تُذكر عند قراءة ابن المقفع أو التوحيدي. صحيح أن قراءة أبي تمام ليست هيِّنة، بيد أنه عند التدقيق نلاحظ أن هذا الشاعر

كان يبدو عسير الفهم حتى لدى معاصريه؛ ولهذا السبب شرحه المعري والتبريزي فيما بعد. من يستطيع اليوم قراءة نزار قباني يقرأ العباس بن الأحنف، ومن يستطيع قراءة صلاح عبد الصبور يقرأ صالح بن عبد القدوس، ومن بوسعه قراءة **زقاق المدق** بوسعه قراءة كتاب **البخلاء**. وهذه ظاهرة غريبة عجيبة، قلَّ أن نجد لها مثيلًا لدى شعوب أخرى».

هذا الحجاب الذي ضرب بيني وبين تراث الأدب العربي منعني - وكثيرًا من أبناء جيلي- من تذوُّق الشعر الجاهلي، هذا الشعر والبيان الذي بلغ ذروة ما يمكن أن يصل إليه البيان الإنساني، فشِعر هذا العصر هو أصل الشعر العربي في القرون التالية له. وأجدني مسوقًا إلى تكرار نداء الأستاذ محمود شاكر الذي بثَّه في سياق حديثه عن السبب الذي حمله على تأليف كتابه **نمط صعب ونمط مخيف**؛ إذ يقول: «ومآل هذا الأمر كله إلى ناشئة الشعراء المحدثين والنقاد، فهم ورثة هذه اللغة بمجدها، وشرفها، وجمالها، وفنها، لا ينبغي أن يضللهم عنها، أو يبعثر إليها خطاهم، من عمد إلى إرث آبائهم من لدن إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- إلى يوم الناس هذا، فسمَّاه لهم «تراثًا قديمًا» ليجعله عندهم أثرًا من الآثار البالية، محفوظًا في متاحف القرون البائدة، ينظر إليه أحدهم نظرة من وراء الزجاج ثم ينصرف».

ثم يفصِّل فيمن له أن يطأ هذا الضلال بكبرياء الفن وعظمته، فيذلِّل لمن بعده وعورة الطريق ويزيح من مجرى النهر المتدفِّق من منابعه الخالدة كل ما يعترضه من صعاب، أشدها وأعتاها: التوهم والخوف، واستطالة الطريق، والعجلة إلى شيء، إن صبر على امتناعه اليوم، فهو بالغه غدًا وحائزه. هكذا يرشدنا خبير بالطريق ومتمرِّس بدروبه الوعرة

إلـى النبـع الصافـي، إلى تراث أمَّـة متصلة بلغة عظيمة، شـرفها الله بنزول كتابه بها، أشعر بظمأ لتراث العرب، وللتتلمذ على أعلامه مثل الجاحظ، وأبـي حيـان التوحيدي، وأبي تمام، والشـافعي، وأبـي حنيفة، وابن حزم، وأبـي هـلال العسـكري، وعبد القاهـر الجُرجانـي، وأبـي علـي القالـي، والمبـرد، والأصفهانـي، وابـن قتيبـة، وابن خلـدون، والجوينـي... قائمة تطـول بأسـماء الأعـلام والأدبـاء والفقهـاء والفلاسـفة والمتكلميـن المساهمين في البناء العقلي لتراث هذه الأمَّة.

هذا التراث ليس للزينة، وهذه الكتب ليست لجدران المكتبات، وإنما هي قيم أمَّة نهضت وتفانت في المسـاهمة المعرفية، وحب الحكمة، وما الشأن في الوريث أن يُمدح بما ورثه، إنما الشأن فيه أن يثمر ما ورثه، كما يقول محمد الشـيخ في زيارته الجميلة للمدونة التراثية في كتابه **الحكمة العربية**.

عبد الفتاح كيليطو:
متاهة القراءة والكتابة

«أحدهم إذا انفصم الحبل الذي يشده إلى التراث، اكتشف الماضي من جديد. فاستعاد الفكر حيويته، وتمكَّن من استنطاق الذخائر الثقافية للماضي، تلك الذخائر التي كنَّا نعتقد أنها ماتت، وها هي الآن تقدِّم لنا أشياء تخالف أشدَّ المخالفة ما كنَّا نعتقده».

حنَّه أرندت تصف هايدغر

لا يجادل أحدٌ في كون شهرزاد ألف ليلة وليلة قد عالجت شهريار وخلَّصته من وساوسه بفضل الحكايات، وأنقذت نفسها بما روت له من قصص، «فالحكي سلاح المفتقر للسلطة». ولقد كان عبد الفتاح كيليطو مُولعًا بهذه الحكايات التي تشفي، وطفق يبحث عن غذاء يوميٍّ من السرد والقصص الشعبية، فهو يعدُّ كل قصة جميلة حقيقةً حتى لو كانت أسطورية.

هذه المقالة قريبة من استراتيجية كيليطو التي تعلَّمها من الجاحظ بأن نجعل من الاستطراد فنًّا في التفكير، نحن أمام ناقد أدبيٍّ مختلف يناقش طائفة بعينها من المواضيع والقضايا، خصوصًا فعل القراءة/ الكتابة، ويبدو هذان الموضوعان مركزيين في كل ما يُكتب من تحليلاتٍ أدبية مميزة بلغة حيَّة ذات روحٍ بعيدة عن برودة الأسلوب الأكاديمي وجفافه،

وهو يملك ضمن ما يملك تلك «الابتسامة المقلقة للمحلّل» كما وصفه عبد الكبير الخطيبي، فهو سندباد بشكل من الأشكال، يبحر في عالم التراث ليكتشف جزرًا مجهولة، يتبع المثل الهندي القديم: «إن إلهة المعرفة لا تبتسم لمن يهمل القدماء».

وهو قلق على اختفاء المكتبات والقراءة حتى في يوم الدينونة، فقد دوَّن في قصته «صحيفة الغفران» قصة قرّاء يقفون يوم العرض المهيب دون مكتباتٍ ولا مرايا، لا يقرؤون سوى صحيفتهم. تشغل الكتب رصيدًا ثريًا في الحياة الشخصية، فأنت قبل دخولك عالم الكتب مختلفٌ عنك بعده، هذه الأنا تضاف لها تجارب وحيوات من خلال هذا الحبل الذي تبنيه القراءة. ولعبد الفتاح كيليطو قصة بعنوان: «صحيفة الغفران»، يحكي فيها عن سؤال عجائبي: «هل في الآخرة مكتبات؟» تستمر القصة بتلك العجائبية لتنتهي بحكمة جميلة مفادها أن البشر الذين لم يجدوا كتبًا تبادلوا صحائفهم للقراءة، ثم في النهاية يشعرون بخيبة أمل من أن يجدوا صحائفهم مرة ثانية؛ لأنهم سيكونون عاجزين عن التعرف إلى صحيفتهم، والتعرف إلى أنفسهم.

أولئك المتعصبون للقراءة في الدنيا ممن كانوا لا يعيشون إلا ليقرؤوا، يتحسرون بلهفة ضجرين من خلو الآخرة من المكتبات، ولعل هِذه القصة تحيلنا إلى استعارة بورخيس بأنه لا يتخيل الفردوس إلا مكتبة!

لا يقلق كيليطو من تشذيب نصوصه، ويتبع نصيحة الروائي وليام فوكنر «اقتل أحباءك»، فلا يتردَّد في التضحية بكتاباته وطرحها في سلة

المهملات على الرغم من حبِّه إياها؛ ولذلك تبدو كتبه مقالات صغيرة، بل حتى شذرات دون ثرثرة نقاد الأدب، فهو يمزِّق دون رأفة ولكن بشيء من التحسُّر على ما يكتب.

ولعل السبب هو أن كيليطو حريصٌ على أن يكون هاويًا، فالهواية مريحة؛ إذ يقوم بدور المتفرج مع ما يتمتَّع به من شدَّة التركيز والاقتصاد في الحركة والكلمة والاعتماد على طبقاتٍ معرفية نتيجة قراءة في كتب الأدب القديم، طورت في الرجل إمكانية الفضول وكسر رتابة القراءة التقليدية.

بدأ كيليطو مسيرة القراءة بالولع بالحكايات المصورة، ففي سنِّ العاشرة قرأ **ألف ليلة وليلة** في الفراش في طبعة بيروتية من سبعة مجلدات، وهي طبعة محتشمة. ورغم كونها طبعة كاثوليكية مهذبة، فإنه كان يخجل من الكتاب، فيخفيه عن أعين الرقباء. وكذلك اكتشف الأدب بواسطة مصطفى لطفي المنفلوطي الذي التهم كل ما كتبه، وتبيَّن له ساعتها أن لغة الأدب هي لغة خاصَّة تختلف عن لغة الحياة اليومية. ولا يعنيه من ذكرياته إلا ما يصلح أن يكون أدبًا.

وتبدأ رحلة قراءة كيليطو مع القروسطيين، والسِّير الشعبية، مثل سيرة حمزة البهلوان، وتمتدُّ بقائمة طويلة من القدماء: ابن رشد، وعبد القاهر الجُرجاني، وأبو حيان التوحيدي، وابن طفيل، وعنترة، والمتنبِّي (ونَفَسه الشعري الذي لا مثيل له)، وابن سلام الجُمحي، وأبو نواس، وابن بطوطة، وامرؤ القيس، وابن حزم، وابن المقفع (يتساءل في أحد كتبه: كيف نقرأ كليلة ودمنة؟). وأما الجاحظ والمعري فلهما أهمية بالغة

عنده؛ إذ يمتعه الجاحظ ويحبُّ قراءته، فالجاحظ يعلّم القارئ لكنه يلعب، وقد عرَّفه أحد معاصريه، أعني ابن قُتيبة، بأنه يعمل الشيء ونقيضه، هذا هو الجاحظ مع روح الدعابة والسخرية التي تميزه. وهو معجب بالهمذاني لشدَّة إتقانه، وبالحريري لشدَّة يقظته، وبابن منظور لثراء معجمه الحافل **لسان العرب**. كل هؤلاء المؤلِّفين يسكنون نصَّ كيليطو.

أما عن المُحدَثين فيذكر: بلزاك، ومارسيل بروست، وتوفيق الحكيم (كان يحلم بالاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية بسببه)، وسوفوكل في ترجمة طه حسين، وجبران، والمنفلوطي، وهو معجب بالسياب، و**قنديل أم هاشم** ليحيى حقّي، ويقدِّر أسلوب كونديرا في رواية **الخلود** التي تظهر بشكل أقرب إلى المقالة والتأملات، وموسيقى فولبير وشاعريته، ودانتي و**الكوميديا الإلهية**، وآجاثا كريستي، و**لذَّة النص** لرولان بارت، وجنون نيتشه، ودون **كيخوت** حاضرة في وعيه دائمًا، وتزيفيتان تودروف صاحب **الأدب في خطر**، مع وجود اللمسة الخاصَّة ببورخيس في استعارة المكتبة، والقراءة في كل ما يكتب فضلًا عمَّا بينهم من صلة تجمعهم بكتاب **ألف ليلة وليلة**، فهو كتاب يصفه كيليطو بالسحر والفتنة والامتلاء بالأسرار. وهو مهتمٌّ بإجراء حوار مع هذه النصوص الكلاسيكية يشبه التحقيق البوليسي؛ فيتساءل مثلًا في أحد نصوصه السردية: «كيف كان العرب قادرين على أن يستغنوا عن الصورة؟».

يقرأ كيليطو عشرين كتابًا، يقرؤها باستمرار ويكتب عنها، ومنها **أسرار البلاغة** للجُرجاني؛ لأنها لا تبوح له بكل أسرارها دفعة واحدة، فهي ضنينة بمعناها ولا تجود به إلا لمن يواظب على الإمعان فيها. يقرأ كثيرًا وبلا نظام، ويُخَيَّل إليه أنه قرأ كل الكتب، وفي بعض الأحيان أنه لم يقرأ

شيئًا. إن إعادة القراءة لديه بحثٌ عن الكتاب المثالي الذي تعيد قراءته إلى ما لا نهاية ويصاحبك طيلة عمرك، هذه الكتب القيمة عكاز طريق في الحياة، وهو يملك ضربين من القراءة؛ نهارية وليلية: خلال النهار يقرأ بالعربية، وفي الليل بالفرنسية.

ولعل نموذج القراءة الناضجة الذي يقدِّمه كيليطو هو القراءة المتواضعة التي لا تقع في إغراء التفسير الوحيد للنص، ولكنه يخاطب القارئ العام لا المتخصِّص؛ ولذلك يهتمُّ بشرح كلمة في الهامش، ويُشرِك القارئ معه فيما يقوم به من تحليل، ويعقد معه حوارًا بين الفينة والأخرى، يريد أن يشركه في لذَّة قراءة تلك النصوص، وإزالة الوحشة وبناء حالة من الأُلفة بيننا وبينها.

ويميز كيليطو بين صنفين من القراء: «قراء لا يرون في الكتاب إلا عرضًا موافقًا ومطابقًا للآراء الشائعة»، وقراء «يلمحون فيه شيئًا مختلفًا؛ لأن لهم طريقةً في القراءة لا يمتلكها الآخرون، فهم مثلًا يتنبهون لتناقضات المؤلِّف ويتجنبون عزوها إلى نقصٍ أو خلل في نمط استدلاله، خصوصًا عندما يشير المؤلف نفسه إلى احتمال وجودها، كما أنهم يبذلون جهدًا لفهم مقاطعه الغامضة وتعابيره الملتوية دون نسبتها إلى ضعفٍ في أسلوبه أو فنِّه».

ويعتمد كيليطو على روح السخرية فيما يكتب، سخرية جعلت أحد النقاد الفرنسيين يسأله: «هل الجاحظ عاش فعلًا أم هو من نسج خيالك؟ وهل الأبيات التي ذُكرت في أثناء الكتاب من تأليف الشعراء الذين سمَّيتَهم أم من تأليفك؟» سؤال يبدو ساخرًا، لكن طرحه يوضِّح لنا طريقة

الرجل في اللعب بالنصوص والنبش فيها. أما مقياس العمل الأدبي عنده فهو غرابته، يرفع القارئ عينيه ويقول: «عجيب، عجيب هذا الكتاب»!

أما شكل مكتبته فهي تتكوَّن من عدَّة رفوفٍ أعلاها نجد الكتب التي لا يستعملها إلا نادرًا، وفي الأسفل تلك الكتب التي يكرهها فلا يحب رؤيتها، وفي الوسط توجد الكتب التي يحتاج إليها في كل وقتٍ وحينٍ.

كتب كيليطو أطروحته للدكتوراه عن فنِّ المقامات عند الهمذاني والحريري بجامعة باريس (١٩٨٢). وله كتاب بعنوان: **الكتابة والتناسخ**، وهو مهتمٌّ فيه بوظيفة المؤلف في العصر الكلاسيكي، وبالجاحظ على وجه الخصوص. وأما كتابه **العين والإبرة**، فيقرأ فيه **ألف ليلة وليلة** قراءة مرهفة، ويهتمُّ بما يقال عن الكتاب والكتابة في الليالي، وقد استعار عنوانه من قصة شخصٍ يتلصَّص من ثقب مغلاق الباب، بينما في الطرف الآخر شخص يفقأ له عينه بإبرة. وأما مؤلَّفه **الأدب والغرابة** فيهتم فيه بأساليب الكتابة عند الجُرجاني والحريري وغيرهما من أعلام النثر الأدبي الكلاسيكي.

ويبدو كيليطو شديد التنبُّه لخطر الكتب الكلاسيكية العربية التي يهتمُّ بها الغرب، فيقع الكاتب العربي في موضة مسايرة الاهتمام الغربي بها مثل الاهتمام بـ **مقدمة ابن خلدون** أو بـ **ألف ليلة وليلة**، وكذلك **الخصائص** لابن جنِّي و**رسالة الغفران** لأبي العلاء المعري، وإذا كان القارئ الأوروبي قد غفل مثلًا عن كتاب **البخلاء**، فإن السبب في ذلك -كما يذهب كيليطو- «أنه لم يتمكَّن من ربطه بكتاب **البخيل** لموليير».

ومن جهة أخرى، يقع القارئ العربي في الإشكالية نفسها؛ إذ سرعان ما يربط النص العربي -بصورة مباشرة أو غير مباشرة- بالنص الأوروبي، فحين يقرأ **حي بن يقظان** يتجه ذهنه إلى روبنسون كروزو، وحين يقرأ المتنبّي يتذكَّر نيتشه، وحين يقرأ **رسالة الغفران** يولي وجهه شطر **الكوميديا الإلهية**، وحين يقرأ **اللزوميات** يفكر في شوبنهاور، وحين يقرأ **دلائل الإعجاز** يربط بينه وبين عمل سوسير، وحين يقرأ **المنقذ من الضلال** يتذكر ديكارت، ثم يعقب: «وويل للمؤلِّفين الذين لا نجد من يقابلهم عند الأوروبيين».

ولعل دراسة كيليطو للأدب الفرنسي والنقد الأدبي المعاصر قد جعلته شديد الانتباه لمدى الاختلاف بين النُّظم المعرفية؛ فلا يستخدم نظامًا معرفيًا سابقًا ويقارنه بجزء من نظام معرفيٍّ حديث، وقد طبّق هذه القراءة في كتابه عن الحريري والزمخشري والمعري، فقراءة هذا الأدب من داخله من شأنها أن تُثري المفهوم الحالي للأدب وتُثري إنتاجنا المعاصر. وهو ينفر من الكلمات التي تُستعمل في النقد الأدبي بشكل متكرِّر دون دراسة، مثل مصطلح «التعبير» وغيره من مصطلحات النقد التي تلوكها الألسنة دون مراجعة لمعناها ومدى قربها من مفاهيم التراث العربي، فمصطلح الأدب القديم يختلف عن مفهومنا عن الأدب المعاصر، خصوصًا في اختفاء قضية التربية التعليمية «التأديب» في الأدب المعاصر عن الأدب القديم الذي يقدِّم نصوصًا بغاية التربية والتهذيب، فضلًا عن كون القدماء ناقلي معرفة، وهو ما لم يعد يهتمُّ به كاتب الأدب المعاصر.

ينصحنا كيليطو بأنه في سبيل أن نكون قراء، فعلينا أن نتخلَّص من الأساتذة وقبل الأساتذة المعلِّمين، فإنجاز قطيعة بين القراءة وسلطة المعلم يجعلك تتوجَّه نحو النصّ ومناقشته.

لو أردنا أن نتعرف إلى قارئ كيليطو كما تخيله، فهو قارئ يصفه بأنه «فضولي متطفل، يمقت المستنسخات ويرتعب من إعارة كتبه، قارئ متسكع على الضفتين، متنزه بمفرده، لا يحبُّ العمل في المكتبات العامَّة، يذرع المدينة متوقفًا أمام ملصقات السينما، وأمام واجهات متاجر الكتب ومجلات المقتنيات القديمة، وحين يكون حاضرًا في مدينة أجنبية، فإنه يلجُ المكتبات في كل يوم، وهو قارئ يعتقد أن القدماء لم يقولوا كل شيء، لكنه ولكي يثبت ذلك، يعمد إلى دراستهم، وبهذا وحده سيتجنَّب تكرارهم».

في الختام، كتب فلوبير للآنسة شانتبي: «أن تقرأ لتحيا»، هذا هو جوهر قراءة كيليطو: ضخ الدَّم في الأجساد النائمة للمؤلفين، وإعادتهم للحياة بكامل نضارتهم ومناقشتهم والحديث معهم.

بحبر خفي..

«أكثر الكتب إفادة هي تلك الكتب التي ينجز القرَّاء أنفسهم نصفها».

بين يدي كتاب بعنوان: **بحبر خفي** للناقد المميز عبد الفتاح كيليطو، والصفة التي ترتبط في عقلي بكيليطو أنه ناقد قارئ، لا يتشدَّق بالنظريات الأدبية الغربية رغم معرفته العميقة بها، فهو أستاذ للأدب الفرنسي، لكنه يبحث عن نصٍّ مكتوب بحبرٍ خفيٍّ، فوراء الورقة البيضاء الناصعة أو

النـص، هناك نص مخفيٌّ تمَّ إقصـاء قارئ غير مرغوب فيه، واتقاء الرقابة والتلصُّص، لا سـيما -كما يقول- حين ينطوي الأمر على مسـألة حياة أو موت.

سفر من أجل السجع

يبـدأ كيليطـو كتابه بالحديث عن نـصٍّ لأبي حيـان التوحيدي جاء في **أخلاق الوزيرين** عن تجشُّـم ابن عبَّاد عناء الرحلة إلى أصفهان، وتجاوزه لقـرى بعيـدة وقريـة غامـرة على مـاء مالح، ليكتـب لهم: «كتابـي هذا من النوبهـار، يـوم السـبت نصف النهـار»، لقد مـدَّد طريقه جريًـا وراء لفظة، وبحث عن قرية لمناسـبة السـجع. يحلِّل كيليطو الفقرة، ولا يهتمُّ بصدق أو افتراء التوحيدي على ابن عبَّاد، ويتأمل في نوعٍ من المؤلفين يرى شرفه متعلِّقًا بجزئيات وتفاصيل إنشائية، ويورد اقتباس فولبير: «أجمل امرأة في العالم لا تسـاوي عنـدي فاصلةً موضوعة في محلها»، ويتسـاءل كيليطو: «ألا يشكِّل لزوم ما لا يلزم -بحسب تعبير ضرير المعرَّة- تعريفًا للأدب؟ وإلاَّ، فأي تعريفٍ سيبقى لنا يا ترى؟».

الحبيب الأول

يشـير كاتبُنا إلى سؤال طرحته أسـتاذة فرنسية تهتمُّ بالأدب العربي عن ثلاثة شـعراء يرد ذكرهم في كتب الأدب: الأول هو أبو الطيب فشـرح لها أنـه المتنبِّـي، والثاني أبـو عبادة فلم يعرفه سـاعتها، والثالـث «أبيب» فهم بعدها أنها تقصد حبيبًا، أي أبا تمام، اندهشت الأستاذة وفكرت: لمَ اللفُّ

والدوران، أيعقل أن يقول ناقد فرنسي: شارل، أو ستيفان، أو أرثور، وهو يقصد بودلير، ومالارمي، ورامبو؟

يوضِّح بعد صفحاتٍ أن أبا عبادة هو البحتري كما في **أسـرار البلاغة**، ويقرأ كيليطو بيت أبي تمام:

نَقِّل فُؤَادَكَ حَيثُ شئتَ مِنَ الهَوى
مـا الحُـبُّ إلاَّ لِلحَبيـبِ الأوَّلِ
كم مَنـزِل فـي الأرضِ يَألَفُـهُ الفَتى
وحـنـيـنُـهُ أبـــدًا لأوَّلِ مَـنـزِلِ

يجعل كاتبنا تلك الأبيات رمزًا للترجمة، لتنقل النصَّ من لغة إلى لغة، وشـعارًا لحنينـه للغـة الأصلية، ثم يحـاول أن يقترب بخفر واحتشـام من حنين أبي تمام، الذي يرى في تعذُّر عودته مكمنَ سِـر حنينه الجارف إلى الماضي.

ويبحـث بـلا يقيـنٍ عن أي حبيـب كان يقصد أبو تمام، هـل هي الأُم؟ والمنزل، ثم يفكِّر هل كان يقصد نفسـه؟ أليس اسـمه حبيبًا؟ اسـمه الذي أذهل الفرنسـية وكتب عنه المعري ذكرى حبيب، أيكون الحنين إلى أول مـن جمـع بين الحبيب والمنزل، إلى امرئ القيس، صاحب معدن الشـعر وأصله:

قِفَـا نَبـكِ مِن ذِكرى حبيـب ومنزلِ
بِسِـقطِ اللِّوَى بينَ الدَّخُولِ فَحَومَلِ

يلعـب كيليطـو لعبًـا هادئًا بلا يقين، لا يقترح مسـلمات، بل يحاول أن يربط بخفَّة وتواضعٍ جمٍّ بين أبيات وأدباء ونصوص، ويثير من التساؤلات

أكثر مما يطرح من الإجابات، يمكن تلخيص قيمة هذه الشذرات في أنها تفتح أفق القارئ للتأمل في نصوص الأدب بوعي أكثر، واستنطاق متأمل ولطيف دون مسلماتٍ يقينية بمغزى الكاتب.

يحكي كيليطو قصة سندباد **ألف ليلة وليلة** عندما تقذفه الأمواج على جزيرة غريبة وتأكل الأسماك باطن قدمه، فيصنع عكازا يتكىء عليه وهو بين قوم غرباء يحنُّ إلى بغداد، وعندما يصل السندباد إلى بغداد يختفي العكاز، يجعل كيليطو العكاز هو القاموس، والكتابة هي المشي، فإما أن تكتب بلغتك الأولى فأنت تسير على قدمك، وإما أن تكتب بلغة أخرى فتسير بعكاز. إنك لا تستطيع أن تكتب رسالة غرامية مستعينًا بالقاموس؛ لأنها ستكون ساعتها بدون فنٍّ وبلا حب.

الشنفرى.. شاعر الغضب والرحيل

يتأمَّل كاتبنا نصوص السرد ومقاطع الشعر، ويجد أنها تحفل بحديثٍ صريحٍ أو ضمنيٍّ عن السفر، تظل هناك بوابة للسفر، ورحلة القراءة تستدعي تكيفًا مع عادات النص، وتستوجب بالتالي مجهودًا ذهنيًّا ليس باليسير، فما أكثر ما تخلينا فيها عن السفر وامتنعنا عن الإبحار! ويفسر بذلك تفضيل القراء قراءة نصٍّ روائيٍّ على مجموعة قصصية؛ لأن كل وحدة من وحداتها تتطلب استعدادًا متجددًا وعناءً مستأنفًا للاندماج في بيئتها والانصهار في أجوائها.

وبهذا يربط كيليطو بين الأدب والسفر، ويورِد بيت الأعشى في معلَّقته:

ودِّع «هُرَيـرَةَ» إنَّ الرَّكـبَ مُرتَحِـلُ

وهـل تُطيـقُ وَداعًـا أيُّهـا الرجـلُ

يشـير كيليطـو إلـى تعريف ابن قتيبـة للقصيدة بأنها وصف لسـفر يقود الشاعر إلى أمير بمدحه، وهو تعريف مهم يسوِّغ ذكر المطيَّة، والمفازات الشاسـعة التـي قطعها الشـاعر قبل أن يصـل إلى الممدوح، ثم يشـير إلى تولُّد فن المقامة من هذا النوع الأدبي.

يحلِّل كاتبنا قصيدة الشنفرى «لامية العرب»، ويبحث في ارتحال هذا الشاعر عن أهله:

أَقِيمُـوا بَنـي أُمِّـي صُـدورَ مَطِيِّكُـم

فَإنِّـي إلـى قـوم سِـواكُم لَأَمْيَـلُ

وينبذ الشـنفرى أهلـه؛ لأنهم تنكَّروا له وجحدوه ولـم يشـدُّوا بعضُده، وحـان وقـت الفصل والارتمـاء في أحضان أسـرة جديدة، أسـرة الذئاب والضباع:

هُـمُ الأَهـلُ لا مُسـتَودَعُ السِّـرِّ ذَائِعٌ

لَديهِـم، ولا الجَانـي بِمَا جَرَّ يُخذَلُ

يقـرأ كيليطـو قصيـدة الشـنفرى بوصفهـا إدخـالًا للغضب في الشـعر العربـي، كمـا أدخـل بيتهوفـن الغضـب إلـى الموسـيقى، لا يلمـح ورود الغضب في المعلَّقات العَشر، هناك الحماسة وهدير الحمية الجاهلية، لا فـورة الغيـظ والغضـب، ولـن ترجع تلـك الفورة إلا مـع ظهـور المتنبِّي. ويربـط كيليطو بين رحيل الشـاعر عـن قومه ومفارقته العـادي والمألوف

وحديث عبد القاهر الجُرجاني عن الشعر بوصفه نصًا فيه خروج عن العادة وأقرب للغرابة، وبهذا يؤسّس الشنفرى لشعر أصيل، يُحدث في النفس إحساسًا لا عهد لها به.

ابن العميد.. الجاحظ الأخير

يحلّل كيليطو في مقالة جميلة كتابات ابن العميد، وهجاء التوحيدي له، وكيف أنه حاول أن يقلّد الجاحظ، لكنه وقع بعيدًا عن الجاحظ قريبًا من نفسه، ويحلّل لنا مسألة التكرار، وكيف أن محاولة كاتب تقليدَ كاتبٍ آخر فيها قتلٌ لإبداعه، ويذكر أسباب التوحيدي في صعوبة تقليد الجاحظ حيث قال: «ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مُدَبَّرٌ بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد: بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتح قلما يملكها واحد، وسواها مغالق قلما ينفك منها واحد».

ثم يحلّل فشل مشروع ابن العميد الكتابي، حيث يقول: «أن تهرب من نفسك، أن تنفصل عنها، مسعى يؤدي إلى باب مسدود».

في الكتاب تحليلٌ شيق للمقامات في مقالة بعنوان: «جراب بعض المغاربة»، لنتذكَّر أنه كتب كتابًا عن المقامات بعنوان: **المقامات: السرد والأنساق الثقافية**، ويربط في مقالة ممتعة بين الأدب والمأدبة. ويقرأ كيليطو قصص الأدب القديم ويبحث في شيء بسيط في القصة ويتتبعه، ويكتب عنه، حتى لو كنت تعرف القصة إلا أنه ينبهك على فكرة مميزة. وفي الكتاب أيضًا حديثٌ عن بورخيس والأدب العربي، وكيف يتذكَّر كيليطو طه حسين. ويختم الكتاب بمقالة رائعة عن إدوارد سعيد بعنوان:

«صورة المثقف حمَّالًا»، وهذه المحاضرة يمكن سماعها بصوته على الساوند كلاود.

صدر الكتاب في نحو مائة صفحة، وكاتبه يذكر من الشعر أبياتًا لـ أبي تمام والأعشى، ويحلِّل أبياتًا للشنفرى، ويحكي عن التوحيدي وابن عبَّاد والجاحظ وابن العميد، والحريري صاحب **المقامات**، و**ألف ليلة وليلة**، و**دلائل الإعجاز** للجُرجاني، و**طَوق الحمامة** لابن حزم. هكذا كتب كيليطو عن رحلته الممتعة إلى التراث العربي، التي رافقتها معرفة واسعة جميلة بالأدب الغربي.

جهاد فاضل يحاكم نزار قباني

بين يديَّ كتاب أهداني إياه صديقي عند عودته من بيروت، وهو كتاب جهـاد فاضـل المعنون: **نزار قبانـي؛ الوجه الآخر**. تناولـت الكتاب وكلِّي حماس للقراءة عن نزار وحياته وشعره. يطرح جهاد فاضل قولًا آخر عن حيـاة نـزار قباني، لقد كتـب كتابه بعد رحيل نـزار وأزعجته هالة التقديس التي عولج بها إرث نزار الشعري والحياتي.

ويعتـرف جهـاد فاضل في مقدمة الكتـاب بأنه لا يمكن لأحد أن ينكر دور نزار في الشعر العربي المعاصر والحديث. ولقد رأى جهاد أن الوجه المضـيء قد أسـرفت الأقلام فـي الحديث عنه، فأتى بقلمه ليكشـف عن الجانب غير المضيء.

فـي بدايـة الكتاب نـرى فصلًا يحمـل عنوان: «استعادة سـيرة ذاتية»، وغاية هذا الفصل هي الطعن في نزار. حين قرأته أول مرة، أعجبتني جرأة الكاتب في تشريح نزار، وقررت أن أقرأه ثانيةً. ومع القراءة الثانية تبيَّن لي نـدرة التعليـق على أدب نزار وشـعره. إن جهاد فاضـل يزعجه أن بعضهم وصف نزار بأنه كان يشبه المطر الذي ينزل على الشبابيك، فأراد جهاد أن يقول: إن الصورة التي رسمها نزار لنفسه ليست صادقةً، وأخذ يستعرض قائمةً بالطعون فيه، كالقول بأن إسهام والده توفيق قباني في العمل الوطني السـوري كان يُشـبه إسـهام أي تاجـر آخر، وأن نـزارًا لـم يسِـر يومًا في أية مظاهرة نظَّمها طلاب الجامعة، وأن أول قصائده السياسـية كانت قصيدته

عام ١٩٤٩ في مدح حسني الزعيم، ثم يستعين بأقوال سهيل إدريس التي ذكر فيها أن نزارًا كان ماديًّا، وأنه كان يلاحق المطربين والملحِّنين للحصول على حقوقه المالية، ثم يحكي لنا عن بخل نزار، وينتقل من مقولة البخل المادي إلى البخل العاطفي، ويتَّهم نزار بأنه لم يعرف الحبَّ، وأن مزاجه مزاج الدونجوان المتنقل من هذه العصفورة إلى تلك، هل انتهت لائحة الاتِّهامات؟ لا، إنه يتَّهمه بأن علاقاته مع أصدقائه كانت تقوم على المصلحة وتخلو رسائله من العاطفة والود، وأنه هجا الشعوب العربية ولم يهجُ الرؤساء.

لا بدَّ لنا من وقفة لشرح ما لم يرُقني في هذا التحليل الذي يطرحه الكتاب، إنها مدرسة في الكتابة عن الشخصيات الأدبية والفنية، يمارس فيها الكاتبُ الاستئساد على الأديب ليحاكمه أخلاقيًّا، وليته يحاكم شعره وأدبه أو مواقفه السياسية، وهذا ما نملك أن نحاسب الأديب عليه، لقد قلتُ للقارئ: إنها مدرسة عرفها بعض العرب من خلال كتاب **المثقفون** لبول جونسون، و**جنون الفلاسفة** لنايجل رودجرز، تلك الكتب التي تقدِّم نمطًا في الكتابة عن الشخصيات تلجأ فيه لاستدعاء الأخلاق الشخصية للكاتب لتنفير القارئ منه، وكأنها تحمل في كوامنها نظرية مفادها طهورية المثقف، فإذا ما أخطأ أو قصَّر أو كان في سلوكه الشخصي ما يُعاب به، بدايةً من البخل إلى حبِّ الظهور، انبرى المؤلف للمزايدة عليه.

وتعجَّبت من مقولة اتهام نزار بالمادية وحب المال، وهو شيء مشترك بين البشر كلهم، لكنه في سياق الكتاب يتحوَّل إلى سبَّة للمثقف، وكأنه لا يليق به أن يركض وراء ماله وحقوقه المادية التي يأكلها المغنُّون، فيما يأكل المنتجون الشهدَ بكلماته، ويُلام على أنه يبحث عن حقوقه المعنوية

والمادية. منطق عقيم يفترض أن المثقف لا يحتاج المال، وأنه يجب أن يكون نموذجًا في الفضائل وأن يترفَّع عن المطالبة بحقوقه. يهوى البعض النَّبش في ملفات الضعف البشري، فعندما يجدون كاتبًا ضعيفًا ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق، يطمئنهم ذلك على أنفسهم. ولقد نبَّهني صديقي لمقولة غازي القصيبي: «إذا تعرفتَ على شاعر خارج ديوانه، فلا تلومنَّ إلا نفسك».

أزعم أن هناك معالجتين لقضية كتابة سيرة الأديب: الأولى التي قام بها جهاد فاضل، قديمًا كانوا يسمُّونها في كتب التراث غَيرة الأقران، أن تشعر في صدرك أن هذا الأديب قد أخذ من الثناء ما يستحق وزيادة، فهيا إلى إعطائه ما يجدر به من الذمِّ، فهل نحاكم شعره وأدبه؟ لا، سنأتي بقصصٍ من حياته الشخصية، ونشقُّ عن قلبه، ونقول: إنه لم يحب قطُّ؛ لأنه بخيل في العاطفة! لستُ أدري عن أي عاطفة صَدَر جهاد فاضل في تأليف هذا الكتاب.

والمعالجة الثانية معالجة نقدية صارمة، لكنها تتكئ على النص والمُنتَج الأدبي، لكنني أرى أن ما يمكن أن نحاسب الكاتب عليه هي مواقفه السياسية أو الاجتماعية، فعندما يذهب نزار إلى صدَّام حسين ويخطب أمامه ويقول له: «يا منصورنا الجديد»، ويغضب أن تُنشر صورته مع صدام، ويطالب بحذفها ويقول: هي صورة «للعراق فقط»، أو أنه في المربد ألقى قصيدة عن بلقيس وتجاوز الأبيات التي يسخر فيها من الزعيم؛ حتى لا يُفهم أنها عن صدام؛ ساعتها لا نكون نبشنا في حياته الخاصَّة. إن صدام حسين يلتقيه بصفته الشاعر نزار قباني، ونحن الجمهور من حقنا أن نغضب من شاعرنا عندما يكون متزلفًا للسلطة. إن مطالبة

المثقف بالوقوف مسافة من السلطة ليست محاكمةً، ولكنها افتراضٌ ضمنيٌّ بأن هذا هو منطق الأشياء، أن تكون بثقافتك قادرًا على فهم أن أسباب البلاء العربي تكمُن في الاستبداد.

ثمة فقرة يفترس فيها جهاد فاضل حياة نزار، ويتهمه بأنه رغم حملاته القاسية على بلاد الخليج والنفط، قد تسلَّم جائزة سلطان العويس التي بلغت مائة ألف دولار، أهذا هو الحسد؟! لا أرى تعارضًا بين أن يكتب نزار عن آثار النفط ونقمته وأن يتمَّ تكريمه من الخليج، فالخليج ليس نفطًا فقط، فهو مجتمع يتفاعل مع جيرانه العرب، لكن جهاد فاضل لديه نظرة تستبطن رؤية دونية للخليج، ويفترض أن على مثقفه الطهوري أو صنمه أن يترفَّع عن الخليج وماله وجوائزه.

في الكتاب نظراتٌ لافتة وجميلة وسط هذا الذم الكثير؛ إذ ينبِّهنا جهاد فاضل مثلًا إلى غياب موضوع الموت في شعر نزار، أو أن محمود درويش كان يقول: «إنه دخل بيت نزار ولم يجد فيه كتابًا»، ويغمز نزارًا ويشير إلى ضعف ثقافته. وينبِّهنا جهاد فاضل أيضًا إلى براعة نزار في التعبير عن مشاعر المرأة في بعض قصائده عندما يتحدَّث بلسانها مثل قصيدته «أيظن أني لعبة في يديه»، وكيف تداخلت في شخصية نزار الشاعر شخصية أخرى، وهي نزار الناشر الذي يهتمُّ بمبيعات ديوانه وما يفضِّله السوق. ويقترح جهاد فاضل أن نستخلص من أعمال نزار الكاملة مختاراتٍ محدودة هي زبدة شعره.

والحقُّ أن الكتاب رغم قسوته يقدِّم نقدًا لهذا الزعيم الشعري الكبير، ويراجع أشعاره التي هجا بها الشعوب.

ولعل ظاهرة نزار تستحقُّ الدراسة، فقد أمَّم الشعر، وهو الشاعر الذي ما زال يسأل عنه القراء في المكتبات، وتقبل عليه الفتيات، ونسمعه في الأغنيات. لقد لانت له اللغة، وكان معجمه الشعري طبيعيًّا، وهو يزخرف عباراته بالتشبيهات والمجازات المبهرة، إنه شاعر السهل الممتنع.

وتروق لي عبارة عارف حِجَّاوي عنِ نزار حين قال: «هذا شاعر كانت العربية بين يديه صلصالًا يصنع به أي شيء أراد، سبحان من خَلقه».

عبد الوهاب المسيري:
سيرة غير ذاتية غير موضوعية

عرفتُ هذا الكتاب الضخم في أحد معارض الكتب، وعلى الغلاف صورة شخص يجلس ساكنًا مطمئنًّا. يجذبك عنوان الكتاب: **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار: سيرة غير ذاتية غير موضوعية،** فاشتريته ولم يبقَ معي تقريبًا ما يكفي للعودة إلى طنطا من القاهرة. أدين بالفضل لصديقي الذي أصرَّ على أن يقرضني مبلغًا من المال حتى لا أواجه مشكلة في المواصلات.

قرأت الكتاب عقب عودتي من المعرض، وانتهيت منه وحكيت لصديقي عنه. ومن شدَّة حماسي للكتاب اشترى صديقي نسخة منه، وقرأه في أسبوع واحد. التقينا كالعادة لمناقشة ما نقرؤه. بعتُ نسختي الأولى للأسف، التي قيدتُ بها بعض الهوامش؛ لأني كنتُ أريد شراء كتب جديدة، فبعتُها لصديق عزيز، وكنت ساعتها في الصف الثالث الجامعي. منذ عدَّة شهور وجدت نسخة جديدة في أحد معارض الكتب، فاشتريتها وأنا أشعر بأنها بضاعتنا رُدَّت إلينا، ولن أنسى بحثي وصديقي عن قرَّاء نجمعهم لإجراء نقاشٍ حول هذا الكتاب وغيره، فوجدنا في فضاء الإنترنت وفي مجموعات الفيس بوك وفي موقع الجودريدز رفاقًا من بلادٍ أخرى نتشارك معهم الحديث عن الكتب.

لهنري ميلر كتاب بعنوان: **الكتب في حياتي**، ولو أنني -أو غيري من أقراني المشغوفين بالكتب والقراءة- كتبتُ سيرة ذاتية، فسيكون جزء من هذه السيرة عن الكتب، وكيف حصلنا عليها، وكيف كانت محطات الحياة يتمُّ تأريخها بالكتب، وأن تحقيق مستوى من الرضا عن حياتنا كان جزء منه إمكان الحصول على الكتب، ولا سيما الكتب النادرة أو باهظة الثمن.

وحين قرأتُ المسيري صدَّعت زميلي في العمل بمصطلحاتٍ كثيرة، لكنني حكيتُ له قصصًا كثيرة تضمنها الكتاب، وكنتُ سعيدًا بما يمنحه لي المسيري من أفق بل آفاق جديدة: عناوين كتب، وفلسفة للحياة، وموقفه من الدين، وأسماء مفكرين.

وكان المسيري ابنًا لعائلة ريفية ثريَّة تنتمي لحزب الوفد، شأنها شأن الكثير من البرجوازيات الريفية في مصر، وفي طفولته تفتح وعيُه على الاحتلال الإنجليزي، وفي مراهقته وشرخ شبابه تابع الأوضاع السياسية، وسمع بأحمد حسين وحزب «مصر الفتاة» الذي كان ينشر صورة لمتسولين ويكتب تحتها: «رعاياك يا مولاي»، فيعتقل بسبب هذه الصورة، وينضمُّ لحزب «مصر الفتاة» بضعة أيام ثم ينتقل للإخوان المسلمين مدةً يسيرةً من الزمن، وتحدث ثورة يوليو/ تموز ويؤمن بأفكارها، وفي عام ١٩٥٥ ينضمُّ للحزب الشيوعي. ويلحَظ المسيري تراجع الاهتمامات السياسية للأجيال الحالية، ويُرجع ذلك إلى أسباب العلمنة والعولمة، ويشير إلى أن الناس ولَّوا وجوههم شطر اللَّذة والمتعة الشخصية، وتراجع اهتمامها بالوعي الطبقي والعام.

يتتبع المسيري تاريخ عائلته، ويجد بعضهم علماء، وبعضهم حكم بعض المناطق مثل الإسكندرية عند قدوم الحملة الفرنسية، وقد توفي ابن هذا الحاكم في أثناء المواجهة مع الفرنسيين، فتاريخ أسرته جعله يزداد وعيًا بالتاريخ.

ولهذا فإن المسيري لم يكن ينظر إلى واقعه بشكل مباشر، ولم يكن يستجيب للأحداث بجهازه العصبي أو بصفحة العقل البيضاء، ولم يكن ينظر إلى اللحظة الراهنة بحسبانها البداية والنهاية، ولكنها نقطة يلتقي فيها الماضي بالمستقبل. والعالم عنده ليس عالمًا بسيطًا يمكن اختصاره في قانون أو قانونين، ولكنه عالم يراه من خلال عدسات وبؤر وتقاليد وتاريخ، وأننا كأفراد لسنا البداية والنهاية.

ولا ريب أن المسيري لم يكن يدرك ذلك كله وهو في مدينته دمنهور، ولكنها مكونات مجتمعه وطفولته التي أخضعها لعدسة التحليل لاحقًا، وسجَّل لنا أغاني الطفولة بنَفس أنثربولوجي يخاف ضياع ذلك الإرث المهم، فاختفاء هذه الأناشيد يُقلقه، ويرى أن ذلك إحدى عواقب تحديث المجتمعات، وتنتهي بذلك فضائل كثير من هذه الأناشيد ومعانيها. نكتب ذلك في عصر أغنية «بيبي شارك» التي تمت مشاهدتها ٣ بلايين مشاهدة.

وأول ما يُستفاد من سيرة المسيري هو منهجه في التفلسف؛ إذ يستحيل العاديُّ مع منهجه رمزيًا، مع اعتياد البحث عن الكامن وراء المواقف الحياتية. يحكي لك طفولته في دمنهور، فيحدِّثك في الوقت نفسه عن التراحمية والتعاقدية، وعن أوجه الاختلاف بين حياة القرى والمدن. يكتب سيرة ذاتية بنَفَس ناقد أدبيٍّ يقلِّب الأفكار ويستخدم المناهج،

ولكنه لا يحلِّل النصوص بل يحلِّل حياته، إنه يفلسف الصفات الشخصية ليقرأها في سياق مجتمعه؛ ذلك أن لديه نزعة ضد الاستهلاك وضد التبديد، ويقارن ذلك بمعدلات الاستهلاك في المجتمعات الرأسمالية، فيعدُّ الاستهلاك أحد عواقب التحديث، وينتقل من الخاص إلى العام.

يحكي لنا عن والدته، وأنه عندما أراد أن يتزوج من الدكتورة هدى حجازي واستشار بعض رفاقه الماركسيين، فقالوا له: «إن هناك فروقًا طبقية بينكما، وأنه بهذا الزواج يخون أفكاره». لكنه استشار والدته، فما كان منها إلَّا أن سألته سؤالًا بسيطًا: «هل تشعر بالسعادة عندما تراها؟»، فقال: «نعم»، فشجَّعته على المضيِّ في الزواج، وسعِد به نصف قرن.

في كتاب **رحلتي الفكرية** متعة وفائدة، فهو يحكي لنا عن مراحل حياته طالبًا في جامعة الإسكندرية، وكيف أفاد من أساتذته وتعلَّم منهم، وعن معايشته للماركسيين، وتجربته في الابتعاث وجامعة كولومبيا وجامعة رتجرز، وبعضُ من عرف في الولايات المتحدة، وعن التعرف إلى صديقه المؤرخ كاڤين رايلي مؤلف كتاب **الغرب والعالم**. نراه يحدِّثنا عن الحياة في أمريكا وكيف رأى هذا «الفردوس الأرضي»، وفي سيرته يحكي لنا ظروف كتابة موسوعته **اليهود واليهودية والصهيونية**، سيرة غنية بالموضوعات والأفكار والنقاشات تصل إلى خمسمائة صفحة من النِقاشات والأحداث، إنه كتاب يغنيك عن كثيرٍ من كتب المسيري الأخرى، فهو يشرح فيه كل أفكاره التي ذكرها في الكتب الأخرى بالتفصيل.

ومن مآثر المسيري أيضًا التعريف بعلي عزت بيجوڤيتش المفكِّر الجليل ورئيس البوسنة، فقد أُعجب به المسيري كثيرًا. وتجدر الإشارة

إلى أن كثيرًا من القُرَّاء لم يعرفوا بيجوڤيتش ولم يقرأوا كتابه **الإسلام بين الشرق والغرب** إلا من خلال المسيري. وقد وجدتُ في أفكار بيجوڤيتش متعة فكرية وتجربة ثرية، وكان السبب هو المسيري.

وللمسيري قدرة على الحديث عن كثيرٍ من أفكار النقد الأدبي والشعراء بأسلوب مبدع، يحكي لنا عن وردزورث، وعن الشاعر والت ويتمان، ويربطهما بقضايا العلمنة والتحديث وحضارة أمريكا. وقد كتب الدكتور ماهر شفيق فريد بحثًا بعنوان: «المسيري ناقدًا أدبيًا»، كأن هذا الجانب قد تمَّ إغفاله في سياق الاهتمام بكتب المسيري الأخرى.

أول أعراض قراءة المسيري هي حمَّى المصطلحات التي تجتاحك «علمنة»، «حوسلة»، «تشيؤ»، «تراحمية»، «تعاقدية»، «نيتشوية»، «حلولية» مصطلحات ومفاهيم بعضها موجود في علم الاجتماع وبعضها من صناعته هو، لكن كتابته سلسة تمامًا ويعرف فنَّ قصِّ الحكاية، وكل قضية فكرية مدعومة بقصصٍ كثيرة من حياته وحياة الآخرين، لكن ثمة خطورة ما في الاستدلال بالقصة لصناعة نظرية تفسر حدثًا أو حالة، فللقصة منطقها ودليلها الحاضر فهي بنت الواقع، لكن المفارقة أنه يمكن الاستدلال بقصصٍ من تجارب آخرين تعكس نتائج المسيري، ومن هنا كانت بداية شعوري بضرورة نقد المسيري، وأنه لا يلزم أن نسلِّم له بكثيرٍ مما يذهب إليه رغم أنه يبدع في إقناعك بكل الحجج الممكنة.

للمسيري سِحر خاصٌّ عند القارئ الشاب، فها هي الموضوعات الفلسفية العويصة والمصطلحات المخيفة يتمُّ تبسيطها من خلال القصِّ والشرح السَّلس، إنها تعطي القارئ ثقةً لخوض هذه الموضوعات، لكن

الخطأ أن يتوقف القارئ عند ما كَتبه المسيري، خصوصًا أنه لا يسمح للقارئ بالتشكيكَ في نتائجه كثيرًا. وهناك عيبٌ آخر هو إغفاله ذكر المراجع والمصادر، خصوصًا في كتابه **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**. صحيح أنه يذكر إفادته من أفكار مدرسة فرانكفورت، لكنه لا ينسب الأفكار بدقَّة، ويخلط أفكاره الخاصَّة بأفكار تمَّ إنتاجها في حقل العلوم الاجتماعية. وهناك نموذج آخر هو استفادته من أفكار زيغمونت باومان. وتجدر الإشارة إلى أن المترجم حجاج أبو جبر قدَّم لنا دراسة مقارنة بين المسيري وباومان بعنوان: **نقد العقل العلماني: دراسة مقارنة لفكر زيغمونت باومان وعبد الوهاب المسيري**.

هناك أيضًا ألق الشخصية الخاصَّة بالمسيري وما كان يتمتع به من الود ودماثة الخلق، فهو شخص لطيف قبل أن يكون كاتبًا مشهورًا، يهتمُّ بتلاميذه ويهاتفهم كل فترة، وكل هذا يضيف رصيدًا لتقبل أفكار الشخص. وهناك الصورة الأيقونية له وهو في إحدى مظاهرات «حركة كفاية»، وظهوره في المشهد السياسي وانضمامه لـ «حزب الوسط»، كل ذلك زاد من لمعان تلك الشخصية وحبِّ جمهور القراء له، وخصوصًا الشباب. رحم الله المسيري، كان عقلية فذَّة، وما أحوجنا إلى قراءة سيرته الجميلة، ومناقشة أفكاره ونقدها.

زيارة حميمة لشاعر الأطلال إبراهيم ناجي

يا فُؤادِي رَحِمَ اللهُ الهوى

زار الأديب جمال الغيطاني منزل الناقدة سامية محرز، ورأى صورة إبراهيم ناجي على الجدار، فسأل بعفوية: «هو الدكتور ناجي بيعمل إيه عندكم؟» فأجابت: «إنه جدِّي».

ما إن رأيت غلاف كتاب الدكتورة سامية محرز **إبراهيم ناجي: زيارة حميمة تأخرت كثيرًا** حتى تمنيتُ الحصول على الكتاب، ومع القراءة لم يخِب أملي، فقد عشتُ بوجداني مع هذه الزيارة المتأخرة التي أجرتها الناقدة الأدبية سامية محرز لعالم ناجي.

وُلِدَت سامية محرز عام ١٩٥٥، أي بعد وفاة جدِّها إبراهيم ناجي بعامين. وكانت فكرتي عن ناجي بسيطة قبل قراءة الكتاب، مختزَلة في «قصيدة الأطلال» وصوت أم كلثوم وحكايات عن معجبات الشاعر، وأنه شاعر الرومانسية والعاطفة. وقد مضيتُ في قراءة حياة الشاعر كما قدَّمَتها سامية محرز فكانت معرفةً أعمق من هذه الشذرات المتناثرة التي لا يربط بينها رابط.

تصحبنا سامية محرز في رحلة علاقتها مع الشاعر إبراهيم ناجي، رحلة تبدأ بنفورها في طفولتها من فخر أمها وخالاتها من تكرار ذكر الانتساب إليه، ورغبة الكاتبة في إثبات الذات بعيدًا عن «التمحُّك» في

قصة حياة جدها. تكبر سامية وتدرس الأدب، وترى فيها الأسرةُ أملًا أو مفتاح الفرج في دراسة حياة ناجي وشعره، لكنها تختار جيلًا أدبيًّا آخر لدراسته، يمثِّله صنع الله إبراهيم وجمال الغيطاني الذي عشقت روايته **الزيني بركات**.

أقرأ الكتاب وأشعر أنني حصلت على نص يصلح للتأمل في قضايا السِّيَر، ولكوني غارقًا في تأمُّل عالم السِّيَر والمذكِّرات، أراها فرصةً للتفكير في هذه الإشكالات، ومع كل تقدُّم في صفحات الكتاب، تتضاءل صورة ناجي شاعر الرقَّة العاطفية كما أطلقوا عليه، أتحرَّر من تلك الصورة النمطية، وأخطو خطوات في عالَم ناجي لأرى حياته الواقعية.

تصف سامية محرز كيف صحَّحت علاقتها بجدِّها؛ إذ تشرع في التعرُّف إليه شيئًا فشيئًا، وذلك من خلال تتبُّع الحكاية من أولها. وكانت البداية مع قصة ناجي وزوجته. والحقُّ أن هذه الزيارة لعالم ناجي منحت الكاتبة فرصةً للتقرب من أمها وهي تقرأ عليها فصول الكتاب في فترة الجائحة، تمزح الأم معها قائلةً: «بتكتبي الكتاب ده كله لمين؟ الناس ماتوا خلاص».

وأنا حُبٌّ وقلبٌ ودَمٌ

تُوفِّيت ابنة الشاعر إبراهيم ناجي ضوحية [كذا اسمها] في المهجر، في مدينة سان دييغو بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد عثرت شهيرة، ابنة ضوحية، على مظروف يضم بعض الأوراق، فأهدته إلى الكاتبة، وهنا تكون المفأجاة؛ كم تكون تلك الدفاتر قيِّمة بما تنطوي عليه من أسرار أو إجابات. وكان أهمُّ ما حصلت عليه محرز مفكِّرة ناجي وبعض أوراقه الشخصية.

تكتشـف الكاتبة ضمن الأوراق ورقة بيع مكتبـة إبراهيم ناجي، بمبلغ سـبعين جنيهًا، تلك المكتبة التي باعتها الأسـرة بعد وفاته لتسديد الديون المتراكمـة عليـه. تدرك سـامية سرَّ غيـاب مكتبـة ناجي عـن البيت، تلك المكتبة التي كتب عنها ومدحها، وعدَّها تمثيلًا لقصة حياته.

يقـول ناجي عـن مكتبته: «لقد تركـتُ مكتبتي على سـجيَّتها، أي أنني جعلـتُ الكتب فيها سـجلًّا لقراءتـي وتفكيري، فهذا كتـابُ طب يجاوره كتـابٌ فـي الأدب، يجاورهمـا كتـابٌ فـي التاريخ، ويُسـنِد الثلاثـةَ كتابٌ ضخمٌ في الفلسفة». هكذا تعدُّ المكتبة رحلة عمر.

تقرأ سـامية محرز المفكرة الشـخصية وتوضِّـح: «نحن مختلفان، لكن هـذه الزيـارة خلقـت بيننا صداقة، وقد سـمحت لي مفكرتُـه بالتعرف إليه وتَقَبُّله، فحياة ناجي باهرة بالنسبة إليَّ؛ لأنه كان مليئًا بالطاقة. ورغم حياته القصيـرة والأمـراض التي أصابتـه والمِحَن التـي مرَّ بها، فإنه اسـتطاع أن يكون مثقفًا موسوعيًّا في كل النواحي».

أين مِن عيني حَبيبٌ ساحِرٌ؟

وُلـدَ إبراهيـم ناجي عام ١٨٩٨، وتَـزوَّج عـام ١٩٢٧، وكانت زوجته سـامية فـي سـنِّ العشـرين. تقترب سـامية محرز من الكشـف عـن صورة الفنان في منزله، ليس الشاعر المُلهَم، بل الطبيب الذي تَخرَّج عام ١٩٢٢، وتحصُل من أُمِّها على رسائل ناجي إلى جدَّتها، تلك الرسائل التي لطالما أظهرَتهـا الأم فـي وجه النقاد الذين شـكَّكوا في وفاء ناجـي لزوجته، تقرأ محرز تلك الرسائل بعين مختلفة.

تُعيد بناء حياة هؤلاء الأفراد، الجدّ الشابّ المتخرّج حديثًا في كلية الطب، الذي يشتكي في رسائله معاناةً ماليةً، ويُنفق كل أمواله على الكتب. تواصل سامية قراءة الرسائل وتجد في باطنها أزمة وتوتُّرًا في العَلاقة، بين عالَم ناجي الرومانسي وعالَم زوجته سامية التي تحذّره من شراء الكتب، تلمحُ كاتبتُنا بوادر العتاب بين الزوجين، واحتياجات الزوج العاطفية التي يلحُّ عليها، فهو لا يمَلُّ المطالبةَ بتكرار عبارات الحب والود.

نتلصَّص على خطابات شاب يهوى الأدب ويعشق الكتابة ويحب الشعر، ونرى نقاشاته وأحيانًا جداله مع خطيبته، خطابات تبدأ بكلمة «سومتي العزيزة»، ونُنهي قراءة الفصل ونحن نشعر أننا أمام قصة حب متوترة. لقد تزوجت جدَّة الكاتبة طبيبًا شابًا، فإذا هو حبيب ولهان يُمطِرها كلامًا معسولًا بدلًا من أن يكون زوجًا، ويطلب من زوجته الكتابة له باستمرار، السأم يجعل ناجي كالطفل اللحوح في حبها حتى تتأفف منه، وتنبِّهنا الكاتبة أن الكتابة عند جدها صنعة، فهو ينظم الشعر ويكتب المقال والمحاضرة، فهو مهووس بالكتابة، فكيف لزوجته الشابة أن تجاريه بتربيتها التقليدية وثقافتها المحدودة؟

لا تكتفي سامية محرز بقراءة الرسائل لفهم قصة عاطفية بين زوجين، بل تحاول توسيع القراءة لملاحظة حالة المجتمع، أو انتظام حركة البريد ودِقَّته، الذي يضمن وصول رسالة يومية بين الزوجين عندما يبتعد كلاهما عن الآخَر.

يا حبيبِي كلُّ شَيءٍ بِقضاء

قد تجد في قصة الكتاب أكثر إشكالات السِّيَر: نرى عوالم المحيطين بالبطل، سياسيًّا كان أو أديبًا، تستنطق الكاتبة أصوات الزوجة وتؤرِّخ

حياتها ومعاناتها في تربية بنات ناجي بعد وفاته، وتَحمُّلَها الديون ومصاريف زواج البنات وهجرة ابنتها إلى أمريكا. يضعُنا الكتابُ أيضًا أمام إشكالية الحقِّ في التلصُّص على مفكِّرات الراحلين لفهم تاريخهم فهمًا أعمق، وهل يحقُّ لنا هذا الكشف أم لا؟ نكسب نحن القراء شخصيات أكثر إنسانية، بضعفها الإنساني وصوت السعال ومرض السُّلِّ الذي يصيب ناجي، نخدش صورة الشاعر بهمومه الحياتية وقلقه الماديِّ وخوفه على الوظيفة والتفكير في بناته، نرى الشاعر يحاضر عن صديقه شكسبير ويفرح بثناء الحضور عليه، نُخرِجه من الإطار والرمز إلى الواقع.

نرى خط الشاعر المهزوز وهو يتحدث عن شكوى من زوجته، ثم يتراجع في ورقة أخرى للإشادة بوقفتها معه، صوت الأديب الذي يرى في نفسه شاعرًا وطبيبًا، وتريده الوزارة طبيبًا فقط، قلق الحصول على مكانة في المجتمع، قلق الاعتراف الأدبي والتفكير المستمر في المجهود الأدبي.

أتاحت الكاتبة مساحة أكبر لبعض الأصوات النسوية كي تعبِّر عن نفسها، مثل صوت الجدَّة وأمها وحكايات خالاتها، وكشفت عن عجز الكاتب في سنوات حياته الأخيرة عن الاقتراب الجسدي من زوجته، وفسَّرت قصائده الغزلية ومغامراته بمحاولة تعويض عن ضعف فاعلية الجسد، استخدمت نظرية بيار بورديو عن الأدوار الاجتماعية، لتحلِّل تجاهل الوزارة له وحرمانه الترقية، وحكَت بالطبع قصة **الأطلال**، لكن الحسرة أصابتني؛ لأن ناجي لم يشهد ذلك التتويج لشعره عندما غنَّته أم كلثوم، وسردت الكاتبة حكاية الأغنية الشهيرة، وكيف أصبحت **الأطلال** من أغانيها المفضلة بعد أن كانت لا تطيقها في مراهقتها.

رُبَّما تجمَعُنا أقدارُنا

على مدار سنة كاملة عاشت سامية محرز في ظلال عالَم جدها، قصة العشيقة المختفية، «ع.م» التي أهدى إليها ديوان **ليالي القاهرة**، تجمع الأخبار وتسأل العائلة وتصحبنا في رحلة الكشف عن ملهمة الشاعر، ثم تصحبنا في فصل آخر لقراءة بعض أوراق ترجمات ناجي لأغاني شكسبير، وتبثُّ في النص أسئلة نقدية عن علاقة الأدباء بالكلاسيكيات الغربية، وتكشف في فصل آخر عن محاولات ناجي تأليف كتاب عن الطب للجمهور ...

إنها محطَّات في زيارة حميمة تأخرت كثيرًا، لكن سامية محرز تصالحت مع الجدِّ بهذا القُرب والانغماس في حياته، قُرب ولَّد عاطفة وتَفهُّمًا، ولم يكُن هذا القرب مجرَّد أسئلة نقدية لي كقارئ، بل قصة رقيقة عن أسرة تجتمع للبحث عن أثر ناجي في حياتها، الأم التي تُفاجأ بمعلومة في دفتر مذكِّراته، وتقول: «لم يخبرنا عن هذا الأمر ولم نكن نعلم هذه القصة»، والكاتبة التي تشارك ابنها نديم قراءة الكتاب، وتصنع من هذا النقاش والجدل قربًا إنسانيًّا لتصحبنا حول أسئلة نديم عن علاقة ناجي بشكسبير، وتقدِّم ملحوظات مهمة عن قراءة الأفكار في سياقها وزمانها.

برَعَت سامية محرز في نسج ثلاثة خيوط من القصص: القصة الأولى حكايتها هي وتَقلُّبات حياتها من خلال قصتها مع الجدِّ، والقصة الثانية قصص أناس غُيِّبوا عن مشهد ناجي مثل الزوجة والبنات. تقول السيدة أميرة ناجي ابنة الشاعر لابنتها عندما تسمع منها مقتطفات من مفكرته:

«إحنـا ماكنّاش حاسّين به، لـم يخبرنا عن معاناته مع هـذا الأمر، نصارح أحيانًـا يومياتنـا بمـا لا يعرفـه حتى أبناؤنـا». والقصـة الثالثة أسـئلة نقدية وإشكالات تتعلق بحقل النقد الأدبي غذَّت بها نَصَّها وجعلته مفيدًا وثريًا. وبمزجهـا بيـن هذه القصص نشـعر بحالة مـن الامتنان المعرفـي والرضا الأدبي عن هذا الكتاب الذي قدمته لنا.

ولعل شكري للكاتبة يرجع إلى أنني ازددتُ حبًا لناجي مع نهاية الكتاب، وقـرأتُ ديوانه بعين أكثر رحمة وعطفًا ومودة، فإنني أيضًا زُرتُ عالمه بعد هذه العِشـرة على مدار الكتاب، تعاطفت مـع مرضه وأزماته العاطفية ومع عيشـه بين الواقع القاسـي وعالَمه الأدبي الذي يبحث فيه عن تسـطير دور أدبي في الشعر والترجمة والنقد، خرَجتُ منَ الرحلة بمكسب الأُلفَة.

فكَّرت وأنا في صحبة الكتاب في قيمة ما تتيحه لنا اليوميات الشخصية التي تُنشَر بعد رحيل أصحابها لفهم أفكارهم، رأيتُ أمثلة عديدة من هذه الدفاتر، مثل دفتر أحمد أمين الذي حصل عليه ابنه جلال أمين وانتقى منه بعـض الأفـكار ليقدِّم قراءة نقدية مقارنة بين سـيرة والده شـديدة التحفُّظ والتي سـمَّاها **حياتي**، وبين الدفتر الشـخصي الذي أعرب فيه أحمد أمين عن مشـاعره بقدر أكبر من الصراحـة والجرأة، ويمكن عقد تلك المقارنة كذلك في نصوص يوميات عبد الرازق السـنهوري التي نشَـرَتها ابنتُهُ، أو المذكِّـرات الشـخصية التي عثر عليهـا الكاتب توم ريس وهـو يتتبَّع قصة الروائي قربان سـعيد، وكذلك الكتاب الممتع الذي قدَّمَته إيمان مرسـال بعنـوان: **فـي أثر عنايـات الزيات** فـي تَتبُّعِها لقصة الكاتبـة عنايات الزيات التي انتحرت في شبابها. كل دفتر سرِّيٍّ يتيح لنا بعد تَعرُّف محتوياته قربًا أكثـر مـع روايـة الأشـخاص عن أنفسـهم، وهذا مـا عثرنا عليـه في كتاب

ناجي، حيث تنتهي الكاتبة سامية محرز إلى ملاحظة مدى الشبه بينها وبين صورة جدّها ناجي، وتتصالح معه ومع قصته.

أما من يبحث عن ملهمات ناجي في الكتاب فلن يجد شيئًا ذا بال، وإنما سيجد أسماء سيدات في بعض القصاصات لكن بلا قصص كاملة، لن نعرف عن «جرائم ناجي الصغيرة» كما يسمّيها، ولكن الأهم أننا سنرى كذب المدَّعِيات من الممثلات أنهن مَن ألهَمَ ناجي ليكتب **الأطلال**، ونشرن تلك الإشاعات للترويج لأنفسهن.

وتلفت الكاتبةُ نظرنا إلى أن ناجي كان نهمًا في كل شيء، في القراءة والطموح الأدبي والعلاقات ... وهذا النهم أتعبه.

وفي النهاية تقول لنا: «أراه يُطِلُّ من فوق كتفي وأنا أكتب، موافقًا أحيانًا ومعترضًا في أحيان أخرى، فأُدخله إلى عالمي تارةً وأتجاهل وجوده تارةً أخرى، وأقول لنفسي: «إنه جدِّي وأنا حفيدته في آخر الأمر، ونحن قد أصبحنا أصدقاء». عُدتُ إلى ديوان ناجي وجلست أقرأ قصائده، فرأيت كثيرًا من الحديث عن القلب والجوى، والسهر والتفكير في المحبوبة... لا شأن لقصائده بالسياسة، ولكن الغاية التي يدندن حولها هي عواطفه.

وأختم بهذه المقطوعة من شعره:

كم تَجرَّعْنا هَوانا ... ولَقِينا في هَوانا
وإذا حَلَّ الهوى هَيـ ... ـهاتَ تَدرِي كيف كانا
يا حبيبِي هَدأَ الليـ ... ـلُ ولم يَسهرْ سِوانا
لا الدُّجى ضَمَّدَ جُرحَيْـ ... ـنا ولا الصُّبْحُ شَفانا
لا الهوى رَقَّ على الشا ... كِي ولا قاسِيهِ لانا

إدوارد سعيد طفلًا

اقترح جلال أمين في أحد كتبه عندما كتب عن إدوارد سعيد ترجمةً مختلفة لعنوان سيرته الذاتية بدل **خارج المكان**، وهو «اغتراب»، بوصفه أكثر دلالةً على حياة الكاتب. وكانت سيرة إدوارد سعيد، التي كتبها قبل وفاته وفي مرحلة مرضه الأخير، مفاجأةً لكثيرٍ من متابعي حياة الرجل، فقد كتب عن طفولته ومراحل حياته الأولى، ولم يتطرق لكثيرٍ من محطات حياته الأخرى التي يعدُّها كثيرٌ من القراء مهمَّة وثريَّة.

طبقًا لإدوارد سعيد، هناك أمران أساسيان حدثا له في بداية التسعينيات فشجَّعاه على تسجيل مذكراته التي تهتمُّ بطفولته بشكل كبير. الأمر الأول وفاة والدته، فقد شعر حينها بأن آخر خيط يربطه بالعالم الذي نشأ فيه قد انقطع، وأما الأمر الثاني فقد كان تشخيصه بمرض السرطان في خريف ١٩٩١، وشعوره بأن حياته تشارف على الانتهاء. كأنه أراد من كتابة المذكرات أن تكون طريقة جيدة لتساعده على توضيح أفكاره بشأن عائلته، وخصوصًا والده الذي يقول إدوارد: إنه عامله بقسوة شديدة في تربيته له.

ثمة تغيير جذريٌّ طرأ على حياة الطفل إدوارد في سنِّ السابعة؛ ففي صيف عام ١٩٤٢ تتقدَّم القوات الألمانية إلى الصحراء الغربية في مصر في أثناء الحرب العالمية الثانية، ويشعر والده الذي يحمل الجنسية الأمريكية بالخطر، في وقتٍ لم تكن فيه أمريكا تتمتَّع بتلك القدرة على حماية رعاياها في كل أنحاء العالم. يقرِّر الأب الانتقال إلى فلسطين، ويستقر بدايةً في القدس ثم رام الله. ثم كان أن أُصيب والده باكتئاب، وأصبح منطويًا جدًّا على نفسه، وتحول -كما يقول إدوارد- من شخصٍ مرحٍ ودود إلى شخصٍ بعيد

وفاتر. تحوَّل من شعوره بالأبوة إلى ربِّ عمل، وصبَّ نوعًا من الانضباط الشديد على حياة ابنه ظلَّ يشتكي منه على صفحات الكتاب. لم يساعده تدوين سيرته على التخلُّص من أيٍّ من هذه المشاعر، بل أعطاه هدفًا وكتابًا واحدًا انشغل به في فترة مرضه الأولى، وهو ما ساعده على التأقلم مع المرض.

في أحد الحوارات يسأل المحاور إدوارد سعيد: «هل تسنَّت لك فرصةُ أن تقيم روابط لم يسبق لك أن تنبَّهت لوجودها في حياتك قبل كتابة المذكرات؟» عندها قلت لنفسي: «هذا هو جوهر ما أبحث عنه؛ فهل الكتابة الذاتية تجعل الكاتب يفهم ذاته وهو يعرضها للناس؟» يأتي الجواب من إدوارد سعيد بالإيجاب، فقد وعى الكثير عن نشأة عائلته وسلوكها عندما كتب المذكرات. لقد أعانته المذكرات على فهم مركزية قضية التعليم في حياته. ولقد قدَّم سيرةً تركِّز على ماذا تعلَّم. ونتيجة ذلك أنه بقي في المجال الأكاديمي طوال حياته تقريبًا.

ما أصبحنا عليه نودُّ أن نجد له جذورًا منطقية أدت إلى ما أصبحنا نُعرف به بين الناس. لا شكَّ أن الجذور طبيعية في حياة كل فرد، لكن مرحلة الطفولة هي أقلُّ المراحل التي يعي الإنسان فيها فرديته ويؤسس تعريفًا يقدِّمه للآخرين عن نفسه. الطفولة نُلبسها ثوب وعينا اللاحق. في الحوار تأتي عبارة مهمَّة، وهي: «كان لقسوة طفولتي نصيب الأسد في التأثير عليَّ، واكتشفت بالعودة إليها أنها لم تكن طفولة سعيدة أبدًا، بل كانت تعيسة تذكِّرني بشخصية بيب في رواية **الآمال الكبرى** لتشارلز ديكنز، وثمة أمر أخير أستطيع أن أجده واضحًا من طفولتي إلى كهولتي، وهو اهتمامي باللغة والموسيقى».

الطفولة في السِّير الذاتية

يمسك الكاتب بالقلم ليدوِّن مذكراته، فبماذا يبدأ؟ يبدأ بقصة طفولته، يخبرنا عن ظروف الطفولة والمشاكل التي واجهها، وجو الأسرة، والنظام التعليمي، وبعض ما بقي في ذاكرته عن هذه الفترة. ثمة افتراض لديَّ عندما أمسك بسيرة ذاتية يخصِّص فيها الكاتبُ جزءًا من الحديث للطفولة: أشكُّ في دقَّة السرد؛ لا لشيء يخصُّ أمانة الكاتب فيما يكتب، ولكن لاعتقادي بقدرة الذاكرة على تغيير الأحداث على نحو يجعلها تسير في خطٍّ منطقيٍّ من الطفولة إلى الشباب. يكتب الكاتب ذو المزاج السياسي عن أول اهتماماته السياسية منذ صغره، ويكتب الأديب عن بدايات التعرف بالشعر وفنون الأدب، إنني أفترض -بلا دليل- أن هذا المنطق الخطِّي في كتابة السِّير الذاتية تولَّد لدى العديد من المؤلِّفين نتيجة الرغبة في الحديث عن حياتهم بوصفها قصة تصاعدية، فلحظات النهاية والكهولة سبقتها طفولة شبيهة بها.

ويستمد الافتراض الثاني بخصوص تدوين ذكريات الطفولة في السِّير الذاتية أساسه من أن مرحلة الطفولة جرى تضخيم أهميتها في القرن العشرين. ولا شكَّ أن التحليل النفسي وفرويد قد منحا هذه المرحلة دورًا كبيرًا، فالشخص نتاج الطفولة. ولست مهتمًّا بالتشكيك في آراء التحليل النفسي، بل إنني أجد صدى هذه الفكرة في كتابة السِّير الذاتية لتفسير كثيرٍ من الآراء والميول والتوجهات، وتفسير البدايات الفكرية، ومحاكمة الأهل على بعض تصرفاتهم التربوية.

وأما الافتراض الثالث، وقد وثب إلى ذهني من كتاب الباحث تيتز روكي في **طفولتي: دراسة في السِّير الذاتية العربية**، وهو أن مرحلة الطفولة جرى الاهتمام بتدوينها بكثرة في مقابل إهمال تدوين تاريخ الأفراد في

إبان مراهقتهم، والانتقال من الطفولة إلى الشباب عند تدوين المذكرات الشخصية.

وهناك بعض الكتب التي اهتمَّت بفترة الطفولة فقط، مثل ما كتبه ڤالتر بنيامين في **طفولة في برلين** عن حياته في برلين. وكتب إبراهيم عبد الحليم كتابًا بعنوان: **رباعية أيام الطفولة** على نمط الرواية، وهي أحداث طفولته. وكذلك محمود عبد الشكور في كتابه **كنت صبيًّا في السبعينات**، وكتاب **طفولتي** للكاتب الروسي مكسيم جوركي.

وتحتلُّ فترة الطفولة مكانةً في سير العديد من المؤلفين، مثل **النوافذ المفتوحة** لشريف حتاتة التي تكاد تقترب من السرد الروائي. فالكاتب تخيَّل حتى مشاعره وهو طفل رضيع، وكل هذا استنطاق لاحق لفترة الطفولة وما جرى فيها من مغامراتٍ وأحداثٍ. وهي سيرة تُقرأ من أجل جمال الوصف ودقته ولمحات من المشاعر الصادقة والصادمة، مثل تحليله لعلاقته مع أمه ووالده، وكذلك لتجربة الكاتب السياسية التي بدأت منذ عهد الملكيَّة.

والمتصفِّح للسِّير الذاتية سيجد اهتمامًا لهذه المرحلة، مثل ما ذكره أحمد أمين عن طفولته وتعليمه في كتابه **حياتي**، أو وصف ابنه، جلال أمين، لحياة عائلته في كتابيه عن سيرة حياته: **ماذا علمتني الحياة**، و**رحيق العمر**. وهناك فرصة ثمينة لقراءة فترة زمنية مثل الطفولة في عدَّة أجيال ومقارنتها بعضها ببعض. فمن يقرأ **يوميات مجاور** لسليمان فياض سيرى الأزهر بعين مراهق/ شاب في مرحلة زمنية معينة، ولو قارنها المرء بتجارب أشخاص التحقوا في الفترة ذاتها بالأزهر ودوَّنوا تجاربهم وذكرياتهم، فستكون لديه قراءته الخاصَّة لفتراتٍ تاريخية بعيونٍ مختلفة.

أوائل زيارات الدهشة: هوامش التكوين هذا هو عنوان السيرة الذاتية للشاعر محمد عفيفي مطر، وهي السيرة التي ساق فيها فصولًا ممتعة عن

طفولته. وبطل هذه السيرة هو اللغة الشاعرية المتدفقة في السرد. نصٌّ ممتع اختيرت ألفاظُه بعناية فائقة. يصف الشاعر أحداثًا عادية في مجتمع القرية، لكنه يضفي عليها عمقًا، وعندما يتعرف إلى ديوان محمود حسن إسماعيل في بيت أحد الأشخاص في القرية المجاورة، يذهب إليه ليخطَّ القصائد بيده وينقلها ويعود بها وهو يشعر بانتصار عظيم، وينعم بوجبة دسمة جميلة.

يتحدَّث مطر عن المدرِّسين في المدرسة ويصفهم بسلالة النور، ويقدِّم مقالات شكر وتبجيل لمدرس التاريخ ومدرِّس اللغة العربية، ويلعن الحضارة الفرعونية ولا يشعر نحوها بأيِّ حنينٍ أو صلة، ويذكر هذا الانقطاع في الوجدان التاريخي بينه وبينها، ويقدِّم نصًّا ممتعًا عن طفولته وعن نساء القرية وذكرياته مع والده.

ولا يمكن الحديث عن مذكرات الطفولة دون ذكر السيرة الرائدة **الأيام** لطه حسين. وكيف وصف طه حسين حياته وكأنه يلقيها إلقاءً على مسامع القارئ، فيما هو يلعب بالألفاظ، وتسمع في كتابته موسيقى خفيَّة ونغمة جميلة. لقد وصف طه حسين عالمًا يسير فيه طفلٌ ابتُلي بفقد البصر، ويذهب للأزهر ويصف طريقة معاشه باللمس والشم والسمع، وهكذا أدخلنا عالمه من بوابة الطفولة.

وبعدُ، فإن القرن العشرين هو قرن الكتابة الذاتية، وفيه دوَّن كثير من المؤلِّفين تجاربهم وذكرياتهم. وعندما قرأت **رحلتي الفكرية** لعبد الوهاب المسيري تعجبتُ من حرصه وبحثه عن أغنيات الطفولة التي خشي اندثارها في عصر الإنترنت، فدوَّنها وسأل رفاق جيله عنها خشية أن تُنسى. في الطفولة سِحرٌ عجيب، هي زمن البراءة، ما إن يشرع الإنسان في قصِّ حكايته، حتى يبدأ بالقول كنت طفلًا ... وعشتُ كذا وكذا.

مودَّة الغرباء

حكايات من السِّير الذاتية والمذكرات

درستُ التاريخ في الجامعة، وأحببت هذا التخصص؛ فقد أعانني على أن أرى كيف أصبح العالم على ما هو عليه الآن، ثم اكتشفت عالم السِّير والمذكرات، وكان كأنه كسوة جميلة قشيبة فوق جسد التاريخ الصارم. رأيت التاريخ في شخصيات أبطاله وقصصهم؛ فالسِّير تجعله يتنفَّس ويصبح حاضرًا في الوعي وأكثر قربًا منَّا. صرت أرى في كلِّ سيرة مائدة تدعوني إليها. نعمت بصحبة أصحاب السِّير وكنت أراهم آباء روحيين يضعون حيواتهم بين يدي ويغذونني بتجاربهم وحكمتهم.

مدارات للأبحاث والنشر
٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة
جمهورية مصر العربية
(٢+) ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢
info@madarat-rp.com
مدارات للأبحاث والنشر

تصميم الغلاف:
أحمد الصباغ


ISBN 978-977-6459-49-6